جعفر محمد نميري

النهج الإسلامي لماذا

المكتب المصري الحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾

الإهداء

إلى روح أبى

والذى كان صبره على المكاره

مدخلى الى الإيمان

جعفر محمد نميرى

تقديم

لعلها تلك الأيام المباركات من ذى الحجة من سنة تسبق السنة الأخيرة من القرن الرابع عشر من الهجرة المباركة ، بكل إيحاءات قرن جديد يشرق على الدنيا محملا بذكرى الرسول والرسالة .

ولعلها لواعج الشوق إلى البيت الذى بورك حوله ، حيث الطواف والسعى ، حيث قداسات المكان واتصال الزمان من عهد الخليل إلى عهد الحبيب صلوات الله وسلامه عليه .

ولعله الحنين الذى لا يفتر للروضة الشريفة ، حيث المصطفى ومن اصطفى من صحابته وزوجه ، ولعله حادى الطريق بين الحرم والروضة ، حيث أمجاد بدر ، وصمود أحد وعزة الخندق ، ونصر الله يوم الفتح المبين .

ثم لعلها أصداء يعيها القلب ويرددها القلب ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

ثم لعله (١) عجز القدرة مع إمكانية الاستطاعة مقترنة بالحنين والشوق .

---

(١) امتنع الحج على صاحب الكلمات لهذا العام بقرار أصدره حين حدد عدد الحجيج لظروف طارئة عايشتها بلاده .

فما كان لولى الأمر إلا أن ينتهى عما نهى الناس عنه ، وما كان لولى الأمر ، إلا أن يلى الناس فيما أتاحه للبعض منهم ، فلا يكون من بين قلة تيسرت لها الأسباب ، وإنما يكون له اليسر إذا ما عم ، والخير إذا ما شمل ، والنعمة إذا ما فاضت ، هكذا علمنا الإسلام بنص قرآنه وسنة رسوله .

ثم لعلى طالب مثوبة ، طامع فى مغفرة ، راغب فى توبة لا شفاعة لها بالنوايا ولو خلصت ، وإنما ما ينفع الناس فى الدنيا ودونه قدرتى ، وما ينفع الناس فى الآخرة ، فدونه اجتهادى ، إلا ما ينفع الناس فى الدنيا والآخرة ، إنما هو متاح لمن صح إيمانه ، ولا يصح الإيمان بغير الرشد ، ولا يستقيم الرشد إلا بالمعرفة ، ولا تتاح المعرفة بغير دليل ، ولا دليل لراشد مؤمن إلا كتاب الله ونهج رسوله .

وليس كتاب الله آيات تتلى ، ولا نهج الرسول روايات تروى ، فما كان الكتاب عظات وعبر ، ولا كانت السنة سوابق للقياس والمقارنة ، ما كان على غرارها فهو خير ، وما كان دونها فهو شر ، وإنما كان الكتاب دعوة لتأمل لا ينتهى ، ولفكر لا يتجمد ، ولاجتهاد لا يجاوز المبدأ ولا يخرج على الحدود فى إطار إيمان مقترن بالعمل .

وإنما كانت السنة قدوة وقمة ، تمثلت فى النهج الكريم والنهج القويم ،ما خالفت النص الربانى وإنما جاهدت لبلوغ غاية متدرجة بمتغيرات الظروف والأحوال .

ذلك كله تقديم لخواطر فكر تجمعت على امتداد السنين ، منذ كان الوعى بالإسلام فى الوجدان فطرة ، ثم تجمع على دروب المحاولة اجتهاداً . حصيلة اختلط فيها ما هو مقروء وما هو مسموع مقترن بمعاناة الممارسة ، ممارسة المسلم لحياته ، نظرة المسلم لواقعه ، طموح المسلم لبلوغ غاياته ، هدف المسلم فى الانتصار لدينه ،

شوق المسلم لطفرة لا لردة ، طفرة لا يصوغها الحنين لباهرات السنين ، حيث المجد بالإسلام ، وإنما طفرة لقادمات السنين حيث المجد للإسلام .

فما كان محمد إلا بشيراً للعالمين ، وما كان دين محمد إلا ديناً يتجدد فيه المجد حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولئن أصبت فيما أردت فذلك من فضل ربى ، وإذا ما قصر جهدى دون غايتى ، فذلك حدود اجتهادى ، وما توفيقى إلا بالله .

دنقــلا
الثانى عشر من ذى الحجه ١٣٩٨ هـ

جعفر محمد نميرى

الدين والحياه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا
وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

سبحانك اللهم تسبح الأرضين والسموات باسمك ، تجرى الفلك والأفلاك بأمرك ، تخشع شم الجبال لذكرك ، عندك علم الساعة وما فى الأرحام ، تعلم ما فى السرائر والضمائر لا يخفى عليك ما فى الصدور ، ما ظهر منها وما بطن ، مالك الملك إليك المنتهى ، ولدنك المغفرة والرحمة ، ولك الأمر والمثاب والمـآب ، تحيي وتميت ، غنى عن العالمين ، رحيم جبـار ، ملك قدوس ، سلام مبين ، تباركت أسماؤك ، وتعالت على العقل والقلب صفاتك ، ما أغناك عن العالمين ، فما من دابة على الأرض تسعى إلا بإذنك ، حياتها موصولة بقـدرتك ، وأعمارها موقوتة بمقـاديرك ، ومنتهى أمرها إليك ، تخرج النهار من الليل ، وتخرج الليل من النهار ، والشمس والقمر والنجـوم قدرت منازلهـا ، والنعم والأنعام جعلتها للناس زينة ولتبلونهم أيهم أحسن عملا ، يحار العقل فى بديع صنعك ، فالأرض مهاد والجبال رواس والسماء بغير عمد ، والنجـوم مصابيح وزينة ، والأرض الميتة أحييتهـا فربت وكانت متاعاً إلى حين ، تعالت حكمتك ، فكنت أحكم الحاكمين ، وجرى حكمك فكنت أعدل العادلين ، وتسارعت مغفرتك فكنت أرحم الراحمين ، وما كان عفوك إلا سابقاً لغضبك ، فسبحانك ملاذ للتائبين .

تلك نظرة تتناهى تضاؤلا أمام ما تتصف به قدرة الخالق ، وما المخلوق فى رحابها مالكاً لأمره ، لا يملك حياته ومماته ، نعيمه وشقاءه ، ضلاله وهداه ، إلا إذا اهتدى بما اختص به من رحمـة الله ،

حين أنعم عليه بالعقل والفؤاد والإبصار والسمع ، ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فعليها والله غنى عن العالمين .

فيم إذن الرسالة والرسل . . ؟ فيم إذن الدعوة والدعاء . . ؟ ولماذا إذن كان الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن .

فيم إذن كانت دعوة الخليل والكليم ، وابن مريم وابن عبد الله وغيرهم من الأنبياء والرسل والأسباط ؟ أكانت دعواهم مجرد دعوة للناس أن لا يشركوا بالله أحداً وأن لا يتخذوا من دون الله ولياً ولا نصيراً ؟

أكانت رسالات الرسل ودعوات الأنبياء وكتب الله المنزلات تذكرة لما يجتليه العقل ويخفق به القلب وتشهد عليه الأبصار والأسماع بأن المخلوق موصول بخالق تتعالى صفاته عما يصفون ، فلا يكون دون المخلوق قدره ، ولا كالمخلوق قدراً ، ولا مثل المخلوق مساراً ومصيراً .

هل خلت الألباب من منافذ للبصيرة والبصر لتدرك أن الآفلين كالشمس ، والجوامد كالأصنام والغاربين فى رماد العدم كالنار ، إنما لا تملك من أمرها ولأمرها ضراً ولا نفعاً ليتخذوها أولياء وأرباب . . ؟

هل غفلت القلوب والعقول فما تعرفت على مواطن العجز فيها

حينما استبانت فى الناس ما يجرى على الناس جميعاً من مرض وصحة ، عجز وقدرة ، موت وحياة ، ومع هذا فإنها اتخذت من بينهم أرباباً من دون الله وصكت آذانها ادعاء من يدعى بأنه ربهم الأعلى ؟ . .

ما خلق سبحانه إلا كمالا ، وما فطرة المخلوق إلا من إبداع الخالق ، وما وهب الإنسان الحياة إلا لأنه قادر على تبين الرشد من الغى ، الضلالة من الهدى ، يتفكر فى خلق السموات والأرض وفى أنفسهم لعلهم يعقلون ؟ . .

فيم إذن كانت دعوة الدعاة ، ورسالات الرسل ، هل كانت دعوة للإيمان أم كانت دعوة لمنازلة الطغيان .

طغيان يطغى على فطرة الإنسان بالقهر ، فإذا استسلم فهو كالدواب والسائمة ، أو هو دون ذلك يستنيم للجهالة استنامته للظلم ، ويخضع للضلالة خضوعه للبطش ، ويستوى لديه الحق والباطل ، فلا يرى ما يراه ولا يسمع ما يسمعه ولا يقر فى فؤاده غير ما هو مفروض عليه ، إذا ما صورت الأحجار أرباباً فهو عابدها ، رغم أنه صاغها ، وإنه المدرك بأنها لا تملك لأمرها نفعاً ولا ضراً ، ولكنها إرادة الطغيان ، إذا ما أضرمت النار إليها فما هو بالمبتغى منها قبساً ، ولا هو باللائذ بها قراً ولا هو بالمستضىء بها ، وإنما هو فى رحابها يسبح لها ويلوذ ويحتمى وينشد الخلاص رغم أنه يضرمها ويخمدها ، يميتها ويحييها وكلها إرادة الطغيان .

وإذا ما انتصب الطغيان بشراً ، فما هو ذلك الذى تحمله الأرحام ، وإنما هو ابن الشمس أو هو رب أرباب .

هكذا يطمس **الطغيان** نظرة الناس فلا يعقلون ، لا تجديهم عين ولا لسان وشفتين ، لا يهديهم عقل ولا فؤاد ، لا يقيهم بصر ولا بصيرة ، فهم فى الضلالة يعمهون ، هم عبيد لعبيد ، هم أرقاء لجوامد ، هم فى براثن الوهم يتخبطون بين شمس آفلة ونار غاربة وطاغية جبار .

كيف السبيل إذن لاستعادة الإنسان لفطرة الإنسان والتى تهديه بوجوده المتناهى لخالقه اللامتناهى لتنتزعه من حيرة الضلال إلى أمن اليقين ، من عذابات الضياع إلى أمان الإيمان ، لا سبيل ولا طريق ولا نجاة من الزيغ والكفر والشرك إلا باقتلاع جذوره ولا تحرر من الأوهام إلا بتحرير الإرادة ، ولا مناطحة للضلالة إلى بالهدى ، ولا هداية ولا هدى إلا بمغالبة الطغيان ، فحين تدول دولته وتزول سطوته ويتهاوى بطشه يبطل سحره ، فاللضلالة من الضلال ، والغى من الفسق ، والجهالة توأم الظلم ، فهى نارها ووقودها ، وهى عمادها وأركانها ، وما الجهالة إلا إنكار لنور الله ، فما ارتفعت ناصية وثن إلا فى دار فجور وفسق ، ولا أوقد نار الشرك إلاطاغية ، ولا ادعى أنه من دون الله إلهاً إلا ظالم جبار ، فما بال الناس تعمى بصائرهم ؟ وما بال الناس تغشى أفئدتهم ؟ وما بال الناس لا يتبينون الحق من الغى ، الحق من الباطل ، الهدى من الضلالة ؟ وما بال الناس لا يحتكمون لفطرتهم ؟

ذلك لأن الناس فى دار الفجور والفسق ، ولأن الناس فى رحاب الطغيان والظلم ، لا يملكون مغالبة الفسق والفجور والظلم والطغيان .

وهم إذا استطاعوا لاستضاءت منهم العقول والقلوب بنور الإيمان ، **لا يشركون بالله أحداً . .**

تلك كانت دعوة الله لأنبيائه ورسله ، وتلك كانت دعوة الدعاة منذ عهد الخليل إلى عهد الحبيب عليه الصلاة والسلام ومن سبقهم من الأنبياء والرسل ، دعوة لمغالبة الطغيان ومقاومة الظلم ، ورفع قهر الناس عن الناس .

دعوة لصياغة جديدة للحياة تقوم على العدل والبر والإحسان والتقوى ، دعوة يتحرر بها الإنسان من قهر ظالمه إذا ما تجرد الظالم من أدوات قهره ، وتحرر المظلوم من أسباب خضوعه .

هكذا صورت آيات العزيز الحكيم أولى خطوات إبراهيم الخليل على درب دعوته تجريداً للظالم من منطق ظلمه ، إجباراً للظالم على الاعتراف بعجزه ، تجريداً للظالم من رموز طغيانه وما أيسر بعد ذلك ، خطاه على الطريق .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا
عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ
لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا
بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن
تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ
إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟
ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ
كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾
فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾

هكذا سبق الدعوة إلى اليقين ومهد لها ، تجريد الظالمين من رموز طغيانهم .

كانت المجابهة بالتحدى ، فزال السحر وسقط القناع وبطل الوهم فتكشفت الحقيقة ، لم يبق من الوثن إلا ركام وفتات ، ولم يبق للظالمين إلا مواجهة الاعتراف بالعجز بعد أن تحطمت رموزهم ، وما أيسر بعد ذلك درب الإيمان .

وما واجهه إبراهيم رموزاً للطغيان والظلم ، واجهه لوط ، سنناً تخالف السنن وشرائع الفسق والفجور ، مجتمع ظالم أهله . . فإلى أين اتجهت دعوته . . ؟

هل حادت عن مواجهة مفاسد الظالمين ، أم تواجهت بالتصادم معها .

يلخص الكتاب الكريم صورة المجابهة على لسان لوط وقومه :

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ ﴾

هى دعوة اتجهت كالصراط المستقيم ، تسعى لهدم مفاسد واقتلاع بؤر للبغى والفجور والطغيان ، ذلك سبيلها إلى ما تهدف إليه ، وذلك دربها إلى ما تبغى ، ذلك أن طريق الهدى ، هو طريق الهداية ، ولا هداية فى ضلال يقوم الناس عليه ويدين الناس به خضوعاً أو التزاماً .

هى دعوة للحق نعم . . إلا أن أركانها لا تقوم على قــدرة من دعا لهـا ، وإنما على استجابة المدعوين إليها ، فإذا لبوا نــداءها ، **نفـذ الحق إليهم** ، وإذا استكبروا بغياً **نفذ الحق فيهم** . . فلا سبيل لنور الإيمان لمن طمست بصائرهم بظلمة الفسق والفجور والعدوان ، ولا سبيل لبراهين كضوء الشمس ، ذلك أن الظلم من الظلام ، فحق عليهم القول لم يشفع لهم نسب ولا قربى ولا نجــاة إلا من اختار الهدى ونبذ طريق الضلال .

لا مناص إذن من اقتلاع الظلم من جــذوره ، ولا مهرب من الهدم إذا استحال مع الطغيان إقــامة صروح الإيمان .

يقول العزيز الحكيم :

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟
أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ
رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا
تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

تلك هى نهاية الطغيان إذا ما صادم الحق ، بل إن تلك بدايات كل دعوة للحق ، بل هى الأصل فيها ، ألم نسمع نداء الله لكلمة موسى ، يوم كلفه بالرسالة تكليف آمر مشفوع بما يبرره :

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

هى مواجهة للطغيان إذن ، هى رسالة جوهرها التصدى لظلم الباغى وقهر الجبار .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ثم هو يحدد فى منزل كتابه ، مظاهر الظلم وآثام الظلم تلك التى حددت الرسالة أهدافها ، بل وكأنها تبررها .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

ثم هو جل جلاله عليم بما فى الصدور ، عليم بما يزلزل القلوب من بطش الطغاة ، حتى ولو كانت قلوب تهيأت للإيمان .

ذلك أن مدخلها للإيمان قدرة على الصمود واحتمال البلاء وتحمل الأذى ، قدرة المواجهـــة والتحديات والتصدى ، قدرة على النفس تعجمها فلا تلين ولا تستكين ولا تستسلم ، قـــدرة مع النفس تروضها فلا تتخاذل ولا تتراجع ولا تنكص .

ثم قدرة مطلوبة للداعية ، لا تقف عند حدود الدعوة معها دائماً وفى خطى متوازية ، مغالبة ظلم الظالم للناس ، وظلم الناس لأنفسهم امتثالا له واستسلاماً لبطشه ، هو العليم الحكيم الخالق البارىء المصور ، لا تخفى عنه خافية ، وليس بينه وبين ما فى صـــدور الناس حجاب .

فما كلف كليمه بما كلفه ، إلا بعد أن أعانه على أمر نفسه وكشف له عن مكنون قدرته تتضاءل أمامها كل قدرة ، وظاهر نقمته ، تتوارى أمامها كل نعمة ، ليواجه الظالم مستنداً إلى حق القوة وقوة الحق .

يخاطب الرحمن كليمه .

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ
عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ
﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ
تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا

ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ
مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا
ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾

ثم بعدها تكليف آمر ، تأهل له الكليم بما رآه من آيات ربه :

ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾

تلك دلالات المعجزات فى مسارات الأنبياء والرسل ، ما أراد بها الرحمن تدليلا على قدرة ، ولا برهاناً على قوة ، وإنما أراد أن يبطل سحر الطغاة ، والذين يصورون بالقهر أنهم بقوتهم أعلى من كل سلطان .

هكذا أبرأ ابن مريم الأصم والأبكم والأعمى وأحيا الموتى بإذن الله ، فتنادى الناس به وأحاط به الحواريون ، رغم قهر الروم وطغيان بنى إسرائيل .

معجزات ما أراد بها الحق إلا أن يشد أزر المستضعفين ليواجهوا الظالمين ، فإن استطاعوا نفذوا هم إلى نور الإيمان ونفذ إليهم ، وإن هوت موازين قدرتهم قوة أو عدداً ، فإن الله بالغ أمره ، يمسك الظالمين بظلمهم ، فتنفتح حينذاك مصاريع الإيمان .

يقول تباركت آياته :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا
الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ
طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ
لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾

ليس الدين إذن دعوة من السماء إلى السماء معزولة عما يجرى فى الأرض ، بل إن الآخرة موصولة بالأولى وإن جنات النعيم التى أعدت للمتقين ، الذين يذكرون الله كثيراً ويسبحون كثيراً ، إنما تتسع أبوابها لمن أخذ نصيبه من الدنيا .

أخذ نصيبه من الدنيا ، عدلا يمارسه ، وعدلا يدعو إليه ، ظلماً يقاومه ، وظلماً ينأى بنفسه عنه ، براً بالناس ورحمة للناس ، ودعوة للناس بالمعروف ونهياً عن المنكر .

تلك هى رسالات الرسل ودعواهم ، ما تعلقت بالسماء وأهملت الأرض ، ما لاذت بعدل الخالق وأهملت العدل للمخلوق ، ما حلقت زهداً عن دنايا الدنيا اكتفاءاً بنعم الآخرة ، وإنما خاضت فى أمور الناس تبغى صلاحها ، ما أهملت صغائرها ، ولا تجاوزت عن كبائرها ، وأكدت القول المبين أن من ينشد عدالة السماء ، فليسع بين الناس بالعدل ، ومن ينشد رحمة الخالق فليترفق بالمخلوق ، ومن يدعو إلى الحق فبإحقاق الحق بين الناس .

كانت تلك رسالات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، تلك كانت دعوات نوح وصالح ولوط ، تلك كانت غايات سليمان وداود وشعيب .

والذى يقول فيه ربه ورب الخلق أجمعين :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

ويحدد شعيب عليه الســلام طاعة الله وتقواه فيقول بلسان الحق :

﴿ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

ويخاطب الرحمن صفيه وخاتم النبيين محدداً له مسار دعوته ، بما ينبؤه من رسالات المرسلين ، بمـا يوضح له هدف الدعوة وغايات الرسالة .

هى دعوة تصادم الظلم ولو تحصن الظلم بالقوة ، هى دعــوة تنتصر للمظلوم ولو كانت حصونه الضعف والذلة ، هى دعوة للعدل لأنها العدل ، **تلك شريعة الله** .

هو الذى أرسل موسى لفرعون ، فماذا عند فرعـون ؟ عنـده ما ينكره الله ورسله ، عنده ما يلعنه الله فى كتبه ، عنده ما يخافه الله على المستضعفين من عباده .

يقول الحكيم مخاطباً رسوله والمؤمنين :

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾

ذلك هو حكم الله على من يفرق الناس شيعاً ويروع الناس خوفاً ويسلب الناس أمناً ويقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق .

تلكم هى دعوة الداعى أن يقتص منه ، تلك هى رسالة الرسول أن يكون والناس عليه ، أن يغالبوا ضعفهم بالإيمان ، أن يستزيدوا صمودهم باليقين ، أن يتجمعوا على الحق فيكونوا بعد ضعفهم أئمة ، ويكونوا هم الوارثين .

ذلك وعد الحق ، إذا ما تمرد المظلوم على ظالمه ، وتلك سنة العدل ، إذا ما اجتمع الناس على غير الباطل ، وذاك هو ما أرسل به الرسول وما كانت له الرسالة .

تقول آياته المنزلات :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾

هذا نهج الدعوة منذ كانت الدعوة حين شاء ربك أن يجعل فى الأرض خليفة .

إستشراف للعدل حيث الظلم ، نزوع للحق حيث الباطل ، انتصار للمظلوم حيث الخوف ، سكينة ورحمة ، مودة وألفة وتعاون على البر والتقوى ، ونكران للفسق والعدوان ، نزوع للتغيير لما هو أفضل ، سعى بالعدل إلى ما هو أكمل . هجران للإفك والشرك والكفر والزيغ والبهتان .

ما كانت الدعوة منذ كانت الدعوة دعوة إلى التوحيد وحده ، دعوة إلى الصلوات فحسب ، إيماناً بالخالق وكفى ، عرفاناً بقوة

القادر القاهر الخالق البارىء المصور ، فما أغناه عن العالمين ، فكل ما فى الأرض والسموات يسبح بحمده ، وإنما مع الإيمان به ، **البر بالناس** ، وإنما مع التسليم له ، **العدل والقسط** ، وإنما مع التسبيح بحمده ، **لا تفاخر بنسب ، ولا تسلط بمال ، ولا عزة بإثم ، ولا عزوة بعصبية ،ولا قدرة بطغيان ، ولا مقدرة ببغى .**

الناس سواسية كأسنان المشط ، سواسية يستظلون مع راية الإيمان بعدل الأمان ، لا تبخس أشياؤهم ، ولا تستحل أموالهم ، لا تختل موازينهم ، لا تنتهك حرماتهم ، لا يحتمون إلا بصالح الأعمال ، لا قرابة تحفظهم من قصاص فما كان منهم من هو أقرب من نوح لولده ، فكان لغيه من الغارقين ، ولا كان ألصق بلوط من زوجه ، فكانت بضلالها من الغابرين ، ولا كانوا أقرب إلى رحمة الله إلا كما كانت إمرأة فرعون ، التى استجارت من الظلم بالعدل ، فأرادها الله مثلا للناس :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

تلك هى سنن الرسالات ، وذاك هو نهج الرسل اقتلاع لما هو قائم على الظلم ، ونزوع لمـا هو قائم مع العدل ، وما كان الإيمـان بالله إلا تسليما بعدله ، وما كان عدل الله إلا رحمة للناس ، يسعون إليه فى أرضه وبين عباده .

هكذا كان ابن عبد الله خاتم النبيين والرسل أشرف الخلق صلوات الله وسلامه عليه .

ما صادفت دعوته إلا ظلماً ، وما استهدفت رسالته إلا عدلا ، وما كان للمستضعفين فى الأرض إلا ما هفت قلـوبهم بالعجز إليه .

وذلك فى مجتمع ما كان الإنسان فيه إنساناً ، إلا بعراقة أصل ، أو وفرة مال ، أو جوار عز ، أو أصالة نسب ، أو فسق فجور ، أو غرور قوة ، وما غير هؤلاء إلا سائمة .

لا كرامة ولا عزة . . .

لا عرض ولا شرف . .

لا يقيم منهم الأود إلا عرق يمتزج بالامتهان . .

ولا يستر فيهم الجسد ، إلا عرى الحاجة لا عرى الخلاعة كما يفعل السفهاء من ساداتهم .

لا يمسك الحياة فيهم إلا ذل الخضوع ، لا يحفظ دماءهم إلا بمنعة من يلوذون به ، فإذا شاء أهدر ، وإذا شاء أمسك ، وإذا أراد امتلك الروح والجسد ، البنين والبنات ، ما كان فيهم إلا مدين لدائن يستوفى ماله بمال يكافئه ، إنما يستوفيه من مال دائنه مضاعفاً ، يتضاعف بالربا إذا حال الحول ، فإذا عجز المدين فما أسعد الدائن ، وقتها يأخـــذ ما هو أغلى من المـــال ، يرتهن دائنه استرقاقاً ، ويرتهن زوجته أو أمه أو أبنته متاعاً له وللسفهاء من صحبه وكل من طلب متاعاً مأجوراً ، فيكون الأجر والمتاع للدائن ومن عرض المدين .

كل ذلك فى بيئة تعتز بالأنساب إلى حد القداسة ، تزود عن العرض بما هو أغلى من الدم والحياة والموت جميعاً . تعتز بالولد والأب والجد والحفيـــد وحفيد الحفيـــد ، ولا ترى قوتها إلا فى كثرتها ، حتى صارت المقابر تضيف إلى تعداد الأحياء أمواتاً لعلهم يزيدونها منعة .

فى تجمع هذا شأنه ، فما يتبقى للإنسان إذا ما ثلم عرضه .

تجمع تتساوى فيه الحاجة بالمذلة ، الفقر بالاسترقـــاق ، الدين وفـــاؤه العرض زوجاً أو أماً أو بنتاً أو شقيقة ، تجمع يعيش فيه أذلاء الفقر فى هلع من شريعة الوحوش فيها ، فيئدون البنـات مخافة العار الوشيك ، فهم مع الأيام بالغون أعتابه .

فلما لا يسابقون الأيام فيغتالون براعم الحياة ، حتى لا تتلوث جباه الشقاء بدناسة الفسق فيهن .

لقد أعياهم الطواف بهبل واللات والعزى فما أغنتهم شيئاً .

فما كانت شخوص الحجر إلا سدنة الظالمين ، هم قسمهم للبطش ، وهى ملاذهم للفسق ، وهى ساحة لتجارة ما أضيع الحلال فيها ، وحتى بيت إبراهيم بقداسته ما لهم فيه إلا دار بيع أو دار لهـو . يلوذون فى ساعات المحن بأعتابه ، ويفرون فى ساعات الفرج عنه ، ما تصدى منهم يوم الفيل إلا عبد المطلب شيخ بنى هاشم بشيبه وقوته ، قوة الإيمان برب البيت استجار به فى ساعات المحنة فأجاره .

ولأن الجاهلية جهالة ، ولأن الظالم أعمى ، ولأن الطاغية أصم ، فما استوعبوا هجمة الحبش حين أقبلوا ، ولا استوعبوا خيبة الحبش حين دحروا ، ولا استبانوا معجزة أراد بها الله أن يبصرهم ، فعادوا للخمر والميسر ، وعادوا للربا والمجون ، وعادوا للبطش والقهر ، وعادوا يستنزفون ضعفاءهم وفقراءهم عزة الحياة وعرق الحياة .

ذلك ما أقبل محمد عليه ، وذاك ما تصدى ابن عبد الله له ، وهذا ما قدر لليتيم أن يصارعه فصرعه بإذن من الله ونصره الذى وعد به عباده المؤمنين .

كيف تراجع الطغيان أمام كلمته . . ؟ كيف تراجعت صروح الظلم وتهاوت أمامه . . ؟ كيف استطاع أن يسترد للعبد حريته . . ؟ وللأمة كرامتها ، وللعرض قداسته ، وللموؤدة حقها فى الحياة ، دون أن تسلبها الحياة الذليلة ما هو أغلى من الحياة . . ؟

كيف صان النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وقضى على الميسر ، وأفرغ الدنان مما يغيب منه العقل ويطيش الصواب . . ؟

كيف أحل البيع ومحق الربا . . ؟ كيف استطاع أن يجعل للسائل والمحروم ، حقاً معلوماً ممن يزيد ماله عن كفاف عياله كيف استطاع أن يحيط بالقداسة مال اليتيم ، فلا يغتصبه غاصب ، وأن يحدد الأنصبة للوالد والولد ، للزوجة والأم ، للشقيق والشقيقة ، لذوى القربى بموازين العدالة .

كيف صان الأسرة من تلاعب الشهوات ، فلا يحل للناس ما أحلوه لأنفسهم بالضلالة ، فحرم عليهم أمهاتهم وأخواتهم وعماتهم وربائبهم وزوجات آبائهم وأن لا يجمعوا بين الأختين ، وأن يعدلوا ، فإذا تباعد العدل عن مقدراتهم . . **فواحدة .**

كيف استطاع أن يغرس قيمة العمل فى نفوس السادة بعد أن ظنوا أن العمل هو قدر العبيد . . ؟

كيف غرس قيم النفور من التنطع والتبطل بين قوم ما كانت ملاعبهم إلا مشاغلهم ، وما كانوا ينزفون العرق إلا على مذابح الشهوات . . ؟

كيف جاهدهم ، ثم جاهد بهم ضد الظلم والكفر والضلالة والجهالة ، وما سقط منهم قبله إلا صريع شهوة وقتيل نزوة ومن صارع بعزة الإثم والرعونة والغرور فصرعه آثم أرعن مغرور . . ؟

كيف استضاء للناس وفى صدور الناس منافذ لليقين وعزيمة الإيمان ، فامتنعوا بعد ضعف ، وتوحدوا بعد فرقة ، وأءتلفوا بعد عداء ، فدانت لهم الدنيا وسقط تحت سنابك خيولهم عروش وتيجان . . ؟

كيف استنهض الهمم وصاغ العزائم ، فخاضوا بحار الرمال وأمواج البحر ، وقاتلوا واستشهدوا وناصروا وانتصروا لشهادة **لا إله إلا الله . . ؟**

هو فعل ما أمر الله به ، انحاز للمستضعفين وهم قلة ، وناصر المظلومين وهم ضعف ، وصارع الطغاة وهم كثرة ، وناجز المستغلين وهم وهن لا يشتد عودهم إلا بخضوع الناس لهم ، حيث لا يستمد الظلم وجوده إلا بامتثال المستضعفين لحكمه . . ولنراجع أوائل من ناصر دعوته . .

منهم **بلال بن رباح الحبشى** ، فأبوه من بنى الحبشة وأمه حمامة سبية حبشية ، ولقد كان لأمية بن خلف ولقد استشرف ما يشوقه من نسائم الحرية فيما دعى الرسول إليه ، فأسلم وسلم نفسه لعذاب أليم ، فصمد صمود من لا يرتهن بالحياة حريته .

ومنهم **عمار بن ياسر** ، ومنهم أبوه وأمه وهم من قال فيهم النبى الكريم :

« صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » .

صبروا على عذاب لم يتحمله بشر ، صمد له عمار واستشهد فيه ياسر ، واستلب عمرو بن هشام (أبو جهـــل) حيـــاة أمه فى خسة لا يعرفها إلا من كان مثله ، فما اختار لطعانه صدراً ولا ظهراً ، ولا تخير لرمحه نحراً ولا قلباً ، وإنما قتلها بالرمح حيث تصون الحرائر شرف الحياة ، ولقد كانت أولى الشهيدات للدين الحنيف ، ولقد ظل مصرعها يؤرق المسلمين حتى يوم بـــدر ، يوم سقط عمرو ابن هشام بسيوف الحـــق ، فقال الرسول فيه (**لقد كان فرعون هذه الأمة**) .

ومنهم **خباب بن الإرت** ، وكان لسباع بن القرى الخزامى ، وقد ناله من العذاب لإسلامه مـــا ناله ، إلا أنه صمد ، وهاجر مع الرسول ، وشارك فى مواقع الإسلام .

ومنهم **صهيب بن سنان الرومى** ، من سبايا الروم ، ومنهم **عامر بن فهيرة** مولى الطفيل بن عبد الله الأزدى ، **وأبو نكيهة** ، وكان عبداً لصفوان بن أميـــة .

ومن النساء . جـــاريات منهن : لبيبة وزنيرة والنهدية ، وأم عبيس .

هؤلاء من فتح الإسلام قلوبهم وقلوبهن فى صدر الدعوة ،

حيث كان الأذى يلاحق الرسول من الكافرين ولم يك ذا قوة

ليحميهم ، ولا كان صاحب مال ليفتديهم ، وما كان لهم إلا لأنه كان منهم ، متطلع للعـــدل تزيـــده الأمانة إصراراً عليه ، فدعـــا إليه وانتزعه . .

إلا إنه بهم قد أخل بقيم سادت فى الجاهلية واختلت موازين ظنها الكافرون باقيـــة .

فما عاد العبيد بالإسلام عبيداً ، ولا عادت السيادة قاصرة على ذوى العروق والثروات والأنساب .

هم بالإيمان بالله ، لهم السيادة والعزة ، وحيث الإنسان بما يعمل صالحاً ، وحيث الكفر والطغيان والفساد فى الأرض مهاوى الانحدار إلى الدرك الأسفـــل فى المجتمع الإسلامى الجديـــد ، هذا دين يتلاقى فيه الحـــق والعـــدل ، تلك شريعة يصنف الناس فيها بأعمالهم .

تلك عقيدة يستوى فيها الناس ما تساوى إيمانهم ، وتتعاظم فيها الأقـــدار بما يقدمون فى الأولى للآخـــرة ، .

تصنيف جديد للناس ، فى ظل العقيدة الجديدة تقننها الآيات المباركات :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

تلك هى دعوة محمد ، وهؤلاء أتباعه المستضعفون فى الأرض .

نواة تغيير لقيم استقرت ، وبواكير تقنين لعلاقات جديدة ، لا يحكمها المال ولا النسب ولا العرق ولا العصبية ، بناء جديد يقام ، وصروح للباطل تتهاوى ، معادلات ظالمة تختل ، وموازين عادلة تقام ، خطوات على درب طويل أراده الله ، وكلف بها رسوله ليأمن الناس بعد خوف ، ويجتمع الناس بعد فرقة ، ويتكافل الناس بعد صراع ، ويتساوى الناس بالحق لا يفرق بينهم إلا كما يفترق النهار عن الليل ، ذاك واضح أبلج ، وهذا مظلم حالك ، بالعمل وحده . عمل فى الدنيا وللآخرة ، تلك هى جوهر الدعوة كل دعوة ، وتلك نهج الرسالة كل رسالة ، منذ الخليل إلى الحبيب ، قبل نوح وبعد آدم عليه السلام ، وذلك أيضاً نهج مكفول لمن آمن بالله وكتابه ورسله ، تعرف على الإسلام فعرفه ، اعتنق الإسلام والتزم به ، قرأ الكتاب والسنة ، استلهم من الرسول حياته ، وفى الرسول جهاده ، وللرسول غاياته ، ومع الرسول نهجه ، فإنه بإذن الله بالغ أمره .

أن يجاهد ليبلغ من حياته ما بلغ الأولون من المؤمنين الصالحين ، أن لا يقنع بما هو ظالم ولا يرضى بما هو باطل وأن يسعى لما هو حق وأن يهفو لما هو خير ، وأن لا يرى الناس فى ضيق ، فيظن أن غاية أمره مع ربه صلاة تقام ، وزكاة تؤدى ، وفروض يلتزم بها .

حسبه أن يحاول . .

فإذا بلغ ما أراده الله ورسوله منه ، فله مثوبة وأجر ، وإذا قصر جهده عن بلوغ غايته ، فله ما يؤجر عند الله عليه . .

ولقد حـاولت جهـدى . .

وما زلت على الطريق . .

فلعلى بفضل الله لست ظالمـاً لنفسى . .

وعليه توكلت وإليه أنيب . .

الفصل الأول

يومَ ولد الهُدى

فإذا بلغ ما أراده الله ورسوله منه ، فله مزية وأجر ، وإذا قصر جهده عن بلوغ غايته ، فله ما يؤجر عنه الله عليه .

ولقد حاولت جهدي ..

وما زلت على الطريق

فلعلي بفضل الله لست ظالماً لنفسي

وعليه توكلت وإليه أنيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ
هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا
وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

يوم ولد الهدى

لعلى مسترجعاً يوم مولده لأعود إلى ما كانت عليه البشرية قبله وأصبح الإنسان بعده، ذلك جهد مطلوب لمن توافر له الإيمان والعلم، وعدتى فيما أخوض فيه من الإيمان فطرة، شكلتها حادثات ورؤى واستشراف لمجتمع فاضل لا تصطرع فيه المطامع ولا تستعر فيه الأحقاد.

ذلك كان مقصده صلوات الله وسلامه عليه، وتلك كانت آية الآيات فى دعوة رفع لواءها مخضبة بما أراق فى صدر شبابه ومن صدر شبابه مجاهدة للنفس عاصمة لها مما كان يخوض الناس فيه من جهالة الجاهلية، فما عرف عنه إلا عفة القلب وطهارة اليد وصدق اللسان والنأى عن الشهوات، وما كان فى الناس، إلا الأعلى نسباً، فلقد ولد من خيار من خيار من خيار، فهو ابن عبد الله ابن عبد المطلب سيد بنى هاشم، وهو اليتيم الذى كان مولده إعجازاً شهدت له شعاب مكة وترددت أصداؤه فى البيت العتيق، وما كان ليكون بمنطق الحادثات تتوالى بنواميس الدنيا، لولا أنه كان مرصوداً لهداية البشر أجمعين.

فما كان عبد الله بن عبد المطلب بين الناس قلباً ينبض وأنفاساً تتردد ، إلا لأنه كان مقدراً أن ينتسب إليه أشرف الخلق وخاتم النبيين ، وهو تقدير أفسد النذر الحرام ، يوم تعلقت أبصار الناس بعبد المطلب يلقى القدح ثم يعيده فى موازنة وثنية بين عبد الله وعشرة من الإبل ، فعشرون ، فثلاثون ، فخمسون ، حتى شارف المائة ولم يبلغها ، والقدح راصد بدم عبد الله فماذا كانت جريرته .

كانت هى تلك الموعود بها عبد الله فى نسله ، أو كانت تلك هى المقصود بها عبد الله فى حياة موقوتة ، أن يحمل فى صلبه من يتصدى بالدعاء فالدعوة فالجهاد حرباً على جاهلية تفسد على الناس دينهم ودنياهم ،أولاهم وآخرتهم جاهلية تغتال بالصلف إنسانية الإنسان فيهم ، فلا يفتدونها إلا وهنا ، ولا يتوسلون إليها بعزة القادر أو استكانة الصابر ، وإنما تزلفاً لما لا يضر ولا ينفع ، وشفاعة بقرابين أدناها المال وأعزها الولد ، تلك شرعة الجاهلية والتى ولاها عبد المطلب أمره يوم تصادم نبل الهدف مع صلف الطغيان ، يوم كان فى رحاب البيت العتيق يغالب إهمال السنين التى تراكمت حول البئر المبارك ، لعله يعيد لزمزم ما كان منها ، حين كانت لإسماعيل وأم إسماعيل ومن حج البيت من بعدهما جرعة مبرورة .

جاهد عبد المطلب واجتهد ، إلا أنه لم يصادف إلا صلف الجاهلية ، تؤاخذه على ما يفعل ، تراجعه فيما يهدف ، محذرة خوفاً على أوثانها بل ومخافة من أوثانها ، أن تصيب الرجل فى الحارث .

ولم يكن للحارث بن عبد المطلب شقيق . تحذير ظاهره الإشفاق ، وباطنه الرثاء ، فما كانت الجاهلية ترى فى الرجل عمله ، وإنما ترى فى الرجل ولده ، ولا ترى فى الرجل خلقه ، وإنما تزن الرجال بما ينتسب إليه الرجال وبما ينسب إليهم ، عزيزهم : عزيز بالولد ، فالشقيق فأبناء العمومة ، وما دونهم ، فهم عليه .

فلا وشائج القربى تغنى ، ولا صلات الجوار تشفع فهم فى شتات فى شتات فى شتات ، يظاهرون الباغى متى ما قرب رحمه ودنى نسبه واتصلت بينه وبينهم الأسباب .

تعددت أسباب الصراع فيهم واتسعت دوائرها ، فتالهم قتل ، وسمرهم قدح ، سلمهم متبوع بحرب ، وعهدهم متبوع بغدر ، فلا أمن ولا أمان .

ليس للرجل فيهم إلا ولده ، هو عزته ومنعته وحصنه ودرعه وقوته وسهامه ، وما دون ذلك فقد يكون له وقد يكون عليه .

عصبية جاهلية بررت وأد البنات ، واتخذت أسباباً للعزة هى إلى الوهم أقرب ، فتباهى الناس بسكان القبور .

وما كان عبد المطلب ليجهل لمز اللامزين ولا هو أنكره ، وإنما نذر أن يكون قربانه فى الكعبة أياً من أبنائه إذا تكامل عددهم عشرة ، وحين أصبحوا ، أمسى على وعد الوفاء بنذره ، وما كان يدرى والقدح تزيد على عبد الله ، عشراً من الإبل ، فعشرة فعشرة حتى

بلغت المائة ، بأن الوالد كالولد جسر اتصل منذ الخليقة ليكون معبراً لنور الهداية والهدى ، وهكذا امتدت الأيام بعبد الله بن عبد المطلب إلى أجل محسوب ، فما تكاثرت الشهور بين يوم نذره ، ويوم موته ، إلا لتحقق به الغاية والآية والمعجزة .

فما رفض بنت « نوفل الأسدية القرشية » ، وما أعرض عن « فاطمة بنت مر » ، ولا تغاضى عن إلحاح « ليلى العدوية » ، إلا لأنه مع « آمنة بنت وهب » ، كانا معبر النور المرصود منذ الخلق هدى للخلق أجمعين .

هكذا رحل ابن عبد المطلب ، ويتيم منسوب إليه على مشارف الدنيا .

وهكذا توفيت « بنت وهب » واليتيم ما زال دون القدرة ، ثم تنقل من بيت عبد المطلب إلى بيت أبى طالب ، لتكون آية الإعجاز فى مولده وفى نشأته دلالة المكنون فى دعوته ، تلك التى كانت ثورة اتصلت وتواصلت شعلة للحق لا تخبو على مر الدهور .

هو اليتيم لا عزوة بأب ، ولا قوة بأخ ، ولا سطوة ولا سلطان ، هو الضال الذى اهتدى وهدى .

هو السائل أغنى وأغنى ، فما أولاه بأن لا يقهر يتيما ، ولا ينهر سائلا ، وأن يلهج بالقلب واللسان ، ذاكراً لله فضله .

هو اليتيم الذى عف لسانه ، وسلمت يده وقلبه من جهالة الجاهلية فكان للناس وبين الناس ما أجمع الناس عليه ، هو الأمين ،

وما كانت أمانته ما تعارف الناس عليها فحسب ، وإنما معها ، ما ارتضاه لنفسه بينهم .

هو فيهم بعمله لا بنسبه ، هو منهم بخلقه لا بذوى قرباه ، هو فيهم منهم جميعاً ، ولهم جميعاً .

كبيرهم وصغيرهم ، رقيقهم وسادتهم ، يتجه بوجدانه إلى غير ما يتجهون إليه ، دائم التأمل فى خلق السموات والأرض ، دائم التفكر إلى ما يجمع الناس رغم شتات العرق والنسب والعنصر ورفعة المكانة وقلة الرزق ، هو فيهم ليس منهم ، لا تتعدد ولاءاته كما تتعدد ولاءاتهم ، ولا تتجه مطامحه حيث تتجـــه مطامعهم ، هو الرافض لأوثانهم ، هو المشفق من صراعاتهم ، هو الحادب على الضعيف فيهم ، هو المدرك بأن مصرعهم إنما يكمن فى شتاتهم ، هو الأمين الذى ارتضوه حكماً ، يوم اقترح « أبو أمية بن المغيرة المخزومى » بأن يكون أول من يدخل البيت العتيق حكماً فى خـــلاف القبائل حـــول من يرفع الحجر الأسود إلى موضعه ، ولقد كان هو الأمين ، ولقد كان أقرب إلى التصور أن يختار أكثر القبائل منعة ، أو أوفرها مالا ، أو أن يدعى الحكمـــة ، فيهب الشرف لأقلها من ذلك كله ، فتكون منحة من الكبير للصغير ، منحة يدرك مانحه قدرته بما وهب ، ويدرك الممنوح قدره فيما منح .

إلا أنه أرادها أن تكون فوق ذلك كله ، أن – يتجاوز بالحدث مكانه وموضعه ، وأن يرسى قاعدة سيهب العمر والجهد لتأكيدها ،

بأن الناس سواسية كأسنان المشط ، تتساوى قدراتهم فى العمل ، وتتحدد أقدارهم بالعمل ، وأن العون فى التعاون لا فى التنافس والصراع .

هكذا تماسكت القبائل حول ثوبه ، يرتفع فوقه الحجر المقدس ليأخذ مكانه حيث تتجه القلوب والأبصار .

* * *

تلك آية من آيات مولده ونشأته قبل الرسالة .

* * *

وعلى هديها كانت بدايات الطريق . . ولكنه أين وكيف كان ؟ أكان ذلك الذى بدأ فى ذكرى مولده صلوات الله وسلامه عليه ، ليلة الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١٣٨٩هـ ، حيث بـدأ الزحف بعد أن خبت كل الأضواء إلا ما تبقى منها ساهراً يحرس الفجر ويتعجل بزوغه ، أم كان ذلك قبل ذلك ؟

عبر طفولة لم تكن شقية ولم تكن أيضاً سعيدة ، كان فيها ما يقاس بمقاييس ذلك الزمان بأنه قدر الجميع ، وماذا كانوا وقتها يملكون .

لم يكن الوطن يومها إلا الأسرة ، بينما كان حتى الموطن مجهولا كخيالات تتردد فى السمع كأصداء لماض أبداً لن يعود .

دنقلا ، قرية ود نميرى ، قصر شامخ لأحد الجدود ، ما تبقى منه ذكرى شاهدة على أمجاد الثورة المهدية العظيمة والذى ولد فيها ثائر

تاريخى ، تجاوز الموطن إلى الوطن ، وحاول أن يتجاوز حـدود وطنه ، إلى مصر الأسيرة ، وترددت أصداء دعوته إلى أرض الحجاز ، جاهد ودعا ، قاوم وصمد ، تقدم وانتصر ، وكانت عدته فى ذلك كله الإسلام .

أسرة صغيرة ، عاشت الكفاف وعاشت المحن ، تخلف عن ركبها أحد أبنائها الثلاثة بعد مرض طال ، ولقد تواصت بالصبر وكانت عدتها فى ذلك . . الإسلام .

أستعمار أجنبى يمارس وجوده فى الحقل والمدرسة ، على مستوى الحى والقرية والمدينة ، تتحرك رموزه فى مواكب النفاق والرهبة ، يعلو صوته فتخور العزائم وتتراجع أقدار الرجال ، ومنهم المهاب فى قومه ، والعزيز فى أهله ، والسيد الذى يأمر فيطاع .

إلا نفر من الناس لا تشغلهم دنياهم عن دينهم ، يرتلون الآيات ، يذكرون الله ، يأمرون بالمعروف ، ينهون عن المنكر ، يقيمون الصلاة ، يصلون الأرحام ، وهم وحدهم الذين لا تختلج أصواتهم فى مواجهة الأجنبى ، لا تنتبه حواسهم لمقدمه ولا يزول توترهم لرحيله لا يهبون وقوفاً لرؤياه ، لا يطأطئون الرأس يجاهرون بما هو حق فى مواجهة كل ما هو باطل .

وأسأل . . وتجيبنى الشواهد . . إنه الإسلام . ويتفتح الوعى على سطور الكتب ، فيها عن السودان قليل ، إلا أنه سودان غير ما أعرف . .

هو بحسابات خطوط الطول والعرض ، يمتد من حلفا إلى نمولى ، من سواكن إلى الجنينة ، ولكن أين سكانه .

وهنا تبرز المحاذير .

منها مناطق مقفولة ، محظورة على غير سكانها ، وهناك معابر مجهولة لا يعرف مسالكها إلا المغامرون ، وهناك حواجز اللغة ، فبعض الأقدمين من أهلى فى الشمالية لا يعرفون العربية وأنا لا أعرف النوبية ، ويحكى السمار فى ساعات الصفاء حكايات ونوادر عن أبناء عمومة بل أخوة وأشقاء لا يتحاورون إلا عبر وسيط ، فاختلاف المكان ووعورة الطريق قد خلقت سدوداً تحول دون تفاعل العقل واللسان .

وأسأل . . فأسمع أنهم جاهدوا وشاركوا فى صنع بطولات للسودان كله ، هكذا قرأت فى كتب التاريخ .

قرأت عن محمد أحمد بن عبد الله المهدى والذى ولد فى جزيرة لبب ، فى أقصى الشمال وانتقل إلى الوسط فى الجزيرة آبا على النيل الأبيض ، وانتقل الناس له هناك ونصروه ، ومن النيل الأبيض انتقل إلى كردفان ، حيث ناصره أهلها ، واستقر به المقام فى جبل قدير حيث كان انتصاره الجليل ، وهبت الناس فى الجزيرة وسنار تساند ثورته وتناصر دعوته ، فكان النصر العظيم فى شيكان .

وإذا كان الشمال مولده ، والوسط ميلاد ثورته ، والغرب بدايات

انتصاراته ، فما تخلف الشرق عن ركبه الظافر ، فهناك عثمان دقنه ودوره فى قطع طريق بربر — سواكن واحتلاله لسنكات وطوكر ، وهناك الشيخ العبيد محمد ود بدر يدعو لتسليم الخرطوم للمهدى القادم الظافر .

ثم هناك الوقفة الأبية للقائد العظيم ، حين رفض عرض غوردون بأن يكون ملكاً لكردفان ودارفور ، على أن تتولى سلالة السلاطين والملوك الأقدمين حكم بقية السودان كمناطق منفصلة .

كنت أقارن ما قرأته ، بما أسمعه وأعايشه من واقع الفرقة التى يعايشها السودان ، وأجد الإجابة دائماً بأنه الإسلام .

ما كان دين فرقة وإنما كان دين وحدة ، وما كان الدعاة فى رحابه إلا دعاة وحدة وأنصار وحدة وصناع وحدة .

تلك كانت خطوات على الدرب يوم الزحف فى ليلة الذكرى لمولد الهدى .

تلتها مع الوعى خطوات ، والسنين تجرى .

وعلى مشارف اكتمال الصبا وفى صدر الشباب ، كان الخيار قدراً ، لم يردنى عن أبواب الأمل صدمة الرفض يوم مالت الموازنة لصالح غيرى لاعتبارات كان العمر أكبرها ، كنت دون المطلوب عمراً ، أو كان من نافسنى قد تقدم به الزمن ليسبقنى بسنوات ، يومها تراجعت عن صفوف المتقدمين للكلية الحربية ، لأن سنوات

عمره لن تتيح له الفرصة بعد ذلك أبداً ، بينما السنين أمامى تتسع للكثير من فرص الاختيار ، الجامعة لو أردت ، الجيش لو عاودت المحاولة .

ورجعت لأهلى لأسمع من الكبير والصغير حكمة الإسلام :

(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) ، (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) .

وتوكلت عليه . .

عاودت المحاولة ، وكانت إرادة الله غالبة وغلابة فما كان اختلال الزمن فيما قدرت ، إلا سباقاً مع الأحداث .

كانت الثورة المصرية بنجاحها المذهل ، قد أضافت لجيوش دول العالم الثالث أبعاداً جديدة لدورها الوطنى ، وبغض النظر عن فوارق موضوعية لا يمكن تجاهلها ، فلقد كان انتصار الجيش فى مصر على إرادة قوات أجنبية متمركزة على بعد عشرات الكيلو مترات من العاصمة ، ثأراً لشهداء سقطوا هنا فى الخرطوم ، وقد تخضب لواءهم الأبيض بدم شهداء المدرسة الحربية سنة ١٩٢٤ .

هكذا تجد أمل الخلاص وتحددت مسالك الانعتاق من المستعمر الظالم ، فلقد كان وجوده هنا امتداداً لوجوده هناك ، وكانت هزيمته هناك بداية لاندحاره هنا ، وإن كانت أداة الخلاص قد

تبلورت فى مصر عبر ظروف الحرب العالمية الثانية ، والتى أتاحت للجيش فيها فرصاً للتطور ، فإن تطوير الجيش فى السودان ، هو بداية الطريق وأولى الخطوات .

وهكذا من الكلية الحربية إلى القيادة الغربية ومنها ممثلا لها فى تنظيم الضباط الأحرار ، والذى كان هدفه الأوحد الإسراع بسودنة الجيش والعمل الفعال لتطويره .

ولقد تحقق الهدف الأول ، وترنح الهدف الثانى وانفرط العقد وتشتت السبل ، ذلك أن البعض منا كان قد اختار أن يكون داخل جيش السودان ، صوتاً لغير السودان .

ولقد كانت تلك صدمة . . ما صمدت لها إلا بيقين الإيمان وحده ، ووجدت فيها عبرة كانت فى قادمات الأيام دواء بدلا من أن تكون داء .

واستشعرت عبرها وما بعدها دلالة القول الكريم :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ
وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

ولقد كانت الصدمة الأولى مدخلا لليأس لولا يقين الإيمـان ، وكانت الصدمة فى الثانيـة مدخلا ليقظة تـوالت بعـدها حادثات وأحداث تجـاوزت السودان إلى ما حوله ، وعدلت مسارات لشعوب وأوطان .

ولئن كانت تلك بداية جانبها التوفيق لوحـدة الفكـر داخـل القوات المسلحة ، فإنها على وجه اليقين لم تمس منها إلا ما طفا على السطح لبعض الوقت ، وبقى من جوهرها ما ينفع الناس .

ما طفا على السطح تجاذبته الريح وذهبت ريحه ، وانساقت خطاه من منحدر البداية إلى هاوية النهاية ، ولا أريد هنا أن أعدد الأسماء ، منهم من ارتضى أن يكون جزءاً من موازنة موقوتة فى صراعات الطوائف والأحزاب ، ومنهم من قبل أن يكون واجهة لصراعات الطوائف والأحزاب ، ومنهم من شاء أن يكون بديـلا للأحزاب دون الطوائف ، ومنهم من ظل على ضلاله القـديم ، وجـود هنا وولاء لهناك ، ولقد جرف التاريخ هؤلاء جميعاً ، حيث العزلة أو الغربة وفى كل الحالات الضياع .

ولقد كانت تلك أيضاً ، لمحات من دروب المسيرة يـوم الزحف ، ليلة الذكرى لمولـد الهـدى ، فلقد كان على الـدرب وقفات ووقفات ، لعل الصحيح فيها والنافع منها ما كان أصيلا فى روح الجموع تلك التى تعالت على عابر الحادثات ، وتشبثت بأصالتها عملا لا قولا ، تلك التى عاهدت وأوفت ، أقسمت

فصدقت ، آمنت فصحت ، تشربت بقيم الإسلام ، وآمنت بجوهره الحق ، ودعوته الصدق ، وندائه الباهر ، تلك التى تجاوزت فى انتمائها العرق والعنصر ، تلك التى اختزل وعيها ووجدانها اتساع المكان ، ليكون الوطن كالموطن ، ساحة يكون الذود عنها كالذود عن العرض والأهل والولد .

جموع ما تلونت باختلاف المكان ، ولا اختلاف السكان وإنما هى فى كل السودان لكل السودان ، بغير تمييز .

جموع لا تتعصب ولا تتكتل ولا تنحاز ، تتحد فى سبيل الله جهاداً ، وما كان الجهاد الحق إلا فى سبيل الله ، ما كنت فيهم إلا وكنت منهم ، وما كنت معهم ، إلا وكنت فيهم ، وما كنا جميعاً إلا من تراب هذه الأرض لها الولاء ، ولها الفداء .

ولئن كانت طفولتى وصدر شبابى قد عانقت المخاوف على وطن لا أكاد أدرك وجوده رغم وضوح حدوده ، فإننى فى القوات المسلحة قد أدركت أبلغ الحكم إن وحدة الوطن هى أولا وأخيراً وحدة الإحساس بالانتماء لدى كل مواطن .

ولم أكن فى صفوف القوات المسلحة فى حاجة إلى تأكيد الانتماء بالتلقين والتعليم بالإرشاد والوعظ .

كان واقع الحال يكفى ، كان مجرد الانتماء إليها تسليما بوحدة الوطن ، بل تطوعاً للفناء فى سبيله .

كان مجرد الانتساب لها قبولا بالعمل للتأكيد على هذه الوحدة ، بل رمزاً يتأكد من خلاله حتمية وجودها ، وعايشت من النماذج ما لا يمكن أن يكون إلا صدق ولاء وصدق انتماء .

عايشت من مات وضحى ، عايشت من ناضل واستبسل ، عايشت من غاب عن الأهل والزوج والولد لسنوات وسنوات ، دون أن يشكو غربة أو يعيش وحشة أو يعانى حنيناً .

ولقد صادف هذا كله سنوات من الضياع صاغتها الفرقة ، فالناس خارج القوات المسلحة غيرهم داخلها ، كانت خلافات الأحزاب صراعاً ، وكانت صراعات الطوائف دماراً ، وكانت العصبية العرقية تشعل النار دماراً وقتالا ، ولقد سبق التبلور الطبقى بدايات دامية لبوادر الصراع الطبقى ، بما يضيف إلى نار الفرقة ما يزيدها اشتعالا ولقد كان السجل فى كل تلك الساحات حافلا .

حوادث أول مارس سنة ١٩٥٤ الدامية ، حوادث الجنوب فى أغسطس سنة ١٩٥٥ بداية الهول ، الذى تواصل عطاءه المدمر لسبعة عشر عاماً كاملة ، أحداث عنبر جودة سنة ١٩٥٦ ، ثم الخلاف والائتلاف فالاختلاف ثم بدايات الإنشطار الخطر فى كيانات الطائفية وواجهاتها الحزبية ، تنظيمات تدعو

للانفصال فى الغرب ، ومنظمات تبشر بالإنفصال فى الشرق ، والجنوب وقتها نـــار ودمار ، والدستور الموعـود موضـع خـلاف ، فهـو إسلامى كما هو مطلوب وهو علمانى كما هو مرغوب ، وهـو فى الحالات مناط بتوازن لن يكـون ، بين فئات تتصـارع لتتصـالح لتتصارع من جديـــد .

كل هذا والساحة تكاد تكون ساحتين ، ساحة للصراع تقتحم منزلق التجزئة ، وساحة تناضل من أجـل الحفـــاظ على الوحــدة ، وكلما ازدادت احتمالات اختلال الميزان كانت القوات المسلحة وحدها هى الأمل ، فوحدها فى ليل الأحزان هى ما تطابق قـول الرسول عليها حين قال :

« ليس منا من دعا لعصبية ، وليس منا من مات على عصبية » .

بل كان الشهداء منها ، صناع وحدة ، كان ذلك قـــدرها ، وكان ذلك هو اختيار بنيها .

ولعلنى يوم الزحف فى ليلة الذكرى لمولد الهـــدى ، كنت أسائل النفس بما يمكن أن يسائلنى الناس يوماً ، بل بما يمكن أن يسائلنى الله قطعاً ، رغم أنه عليم بما فى الصدور .

هل كنت على الطريق من طلاب السلطة . . ؟

وأقول ، بل أرقنى قعود الهمم عن تقـــدير العواقب ، وأردد قول الرسول الكريم ، يرد على أعرابى سأله :

الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى ، فمن فى سبيل الله ؟ .

فيرد المصطفى :

« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

واسترشد بقول المصطفى ، حين دعا بالانتصار للظالم بمنعه من الظلم .

« وليس أظلم بالناس ، من دعا الناس لفرقة » .

يتخاصم الناس رغم أواصر القربى ، ويتقاتل الناس رغم وشائج الصلات ، وتفرق الناس لغير الحـــق ولغير العـــدل ولغير أنفسهم .

ولئن كانت مطامح السلطان تدفعنى ، فما كان ذلك وهو أيسر الدروب إليها ، كان الزمان غير الزمان والساحة قد خلت إلا من كل طامع لا يملك القدرة ، يوم تراجعت الأكفان من أجداث موتى بغير قبور ، يوم ارتدت الروح لمن ضمتهم كهوف الإهمال لسنوات ستة .

يوم أيقظتهم نداءات الناس طلباً للخلاص ، تصدوا للنـــداء وبدلا من أن يكونوا صداه ، تصدروا موائد المساومة عليه ، ولقد كان

ذلك مدخل الخطر على شمس ثورة الشعب المجيدة فى أكتوبر سنة ١٩٦٤ فتلون أفقها بدم شهداء ساحة القصر مؤذنة بغروب وشيك .

وقتها كنت فى صفوف القوات المسلحة ، حيث ارتضت لى أن أكون سياجاً يحمى الناس من قهر السلطة ، وسداً يصون مكاسب الناس من هوان المطامع .

ولأيام وليال كانت السلطة الفاعلة فى يمينى ، لو أردتها لنفسى كما أراد بعض صحبى لكانت ، ولكننى ما كنت طامعاً إليها فضلا عن أكون طامحا فيها .

عدنا إلى مواقعنا ، بعد أن عاد الاستقرار للناس ، وظننا أن القرار للناس وبعد أن حسمنا خلافات فى الرأى ، واجتهادات فى الفكر ، ومطامع فى النفوس ، وأحقاد وشهوات ونزوات .

عدنا ليكون الجزاء تشريداً واعتقالا واضطهاداً ومطاردة ، وما كان فينا من تذمر ، ولا كان فينا من تمرد على قدره ودوره .

لست طامعاً فى سلطة كانت ميسورة قبل سنوات خمس ، لو مددت لها أطراف أصابعى لتمكنت منها ، ولكنها السنوات الخمس بكل ما كان فيها .

أستعيد فى رحاب الذكرى مرارات ذكراها ، كانت للعطالة مواكبها ، هل يذكر الغافلون مغزاها ؟ . . كانت للنفاق جحافله ،

هل يتذكر الناس تجـارات الإرادة ومساومات الأصوات وسوق تغيير الحكومات .

كان الزمن قد استنزف جهوده وهو يسابق فى كل الدنيا كل الدنيا ، ما عدا أرضاً منسية اسمها السودان .

اكتمل السد العالى فى مصر ، وسد الفرات فى سوريا ، وانشقت الجبال عن طرق مرصوفة فى اليمن ، وتعالت أبراج الكهرباء فى أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية ، والسودان منـذ عهـد الاستقلال يعيش على مجد الاستقلال ، نشيد وعلم ، ثم طرق مجهولة ، ومدارس مرفوضة ، ومصانع منكورة ، وخدمات موعودة ، وتراجع بالإنسان إلى ما قبل عهود الإنسان ، عطش ومرض وفقر وعرى وعار الصراعات لسنوات خمسة .

كان الجنوب قبلها جرحاً نازفاً ، وأصبح خلالهـا بركاناً مدمراً .

كان الجنوب قبلها آهات ألم ، فاستحال فى ظلها إلى هـدير أوجـاع .

وتداعى جسد الوطن بالسهر والحمى ، بدأت بوادر الأعراض فى الغرب بمنظمة سونى ، وظهرت قروح المرض فى الشرق فى تنظيمات البجة .

وتنادت خلافات الدنيا لساحتنا ، الفكر الديني ، والفكر المادى ، والفكر القومى ، وقيادات لا تخلو من الشبهات .

حزب التحرير الإسلامى ومقره الأردن فى ذلك الزمان ، المحافل الماسونية ، وجماعات التبشير ، وشهود يهـوه ، وفرق المجددين والمتزمتين من سائر الأديان .

وعلى نطاق الأحزاب ، ما كان منها موحـداً انشطر ، وما كان منها مؤتلفاً اختلف ، تتغير التحالفات على مدار الساعة ، ويمتـد الصراع من الحزب للطائفة ، ومن الطائفة إلى الأسرة ، ويتماسك الكبار ، وتتبادل التهم ، وينحـدر الحوار إلى مستوى الفاحشة التى ينهى الله عنها ، إلى حـد أن تحـاط الأنساب بالريب ! ! !

سنوات خمس تتجاذب السودان فيها عواصم قريبة وأخرى بعيدة ، فهو مع الشرق صبحاً ، ومع الغرب ليلا ، وعبر النهر ضحى ، وعبر البحر فجراً ، وتتغير الدورات بتغير الحكومات ، وتتغير الحكومات عبر مشاورات واتصالات ومساومات .

سنوات خمس كان السودان فيها يتولى الجهل زمام أمره ، أليس جهلا أن يعلـن وزير الدفـاع أن رفض حكومته القبـول بوقف إطلاق النار فيما بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، إنما هو مناورة متفق عليها ومع أحد الأطراف ، يعلنها فى الإذاعة ، يعلنها فى الصحف ، يعلنها لوكالات الأنبـاء .

سنوات خمس ، كانت القوات المسلحة فيها على شفا البركان ، جنود فى مواقع الحرج بغير ثياب وبغير غذاء بغير سلاح بغير اتصال بغير قيادة مسئولة ، كل ذلك يدفع لأن يقع فى أسرها من يتولى أمرها ، وزير الدفاع وقيادة الأركان .

وأحداث جوبا شاهدة . .

سنوات خمس عاشها السودان ، منذ فجر ثورة الشعب فى أكتوبر ، إلى هبة الجيش والشعب فى مايو .

هل كنت فى ذلك الطريق دافعاً أو مدفوعاً . . ؟

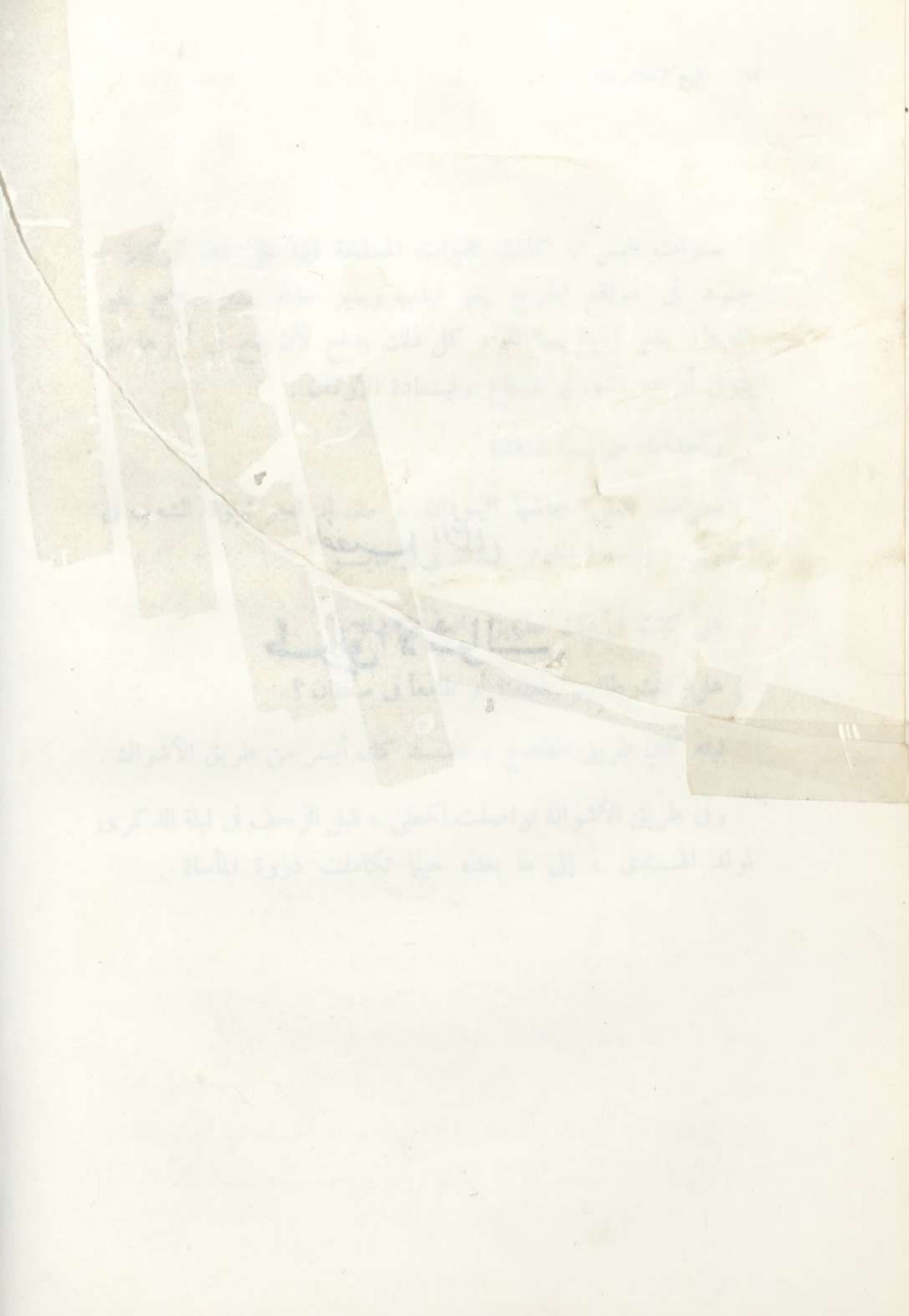
هل كنت طالب سلطة ؟ أو طامعاً فى سلطان ؟

ليته كان طريق المطامح ، فلقد كان أيسر من طريق الأشواك .

وفى طريق الأشواك تواصلت الخطى ، قبل الزحف فى ليلة الذكرى لمولد الهدى ، إلى ما بعده حينما تكاملت ذروة المأساة .

الفصل الثانى

طريق الأشواك



قِيل

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ

قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ النَّا

السُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ

قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ

بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ

اشْتَرَوُاْ الضَّلَٰلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ

مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ

أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ

لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

طريق الأشواك

ليته كان طريق المطامح . . نعم . . فما كان أيسر منذ البداية أن تتحدد الخطى على درب الهدف المنشود .

إلا أنها حادثات السنين ، ما كان منها ذكرى وما كان منها عبرة . ثم الهدف الكبير ، محاصرة الحريق فيما قبل ليلة الذكرى العاطرة لمولد الهدى ليلة الزحف الكبير ، كانت الشرر تملأ الأفق منذرة بخراب وشيك . ولذا تجمعنا .

كان منا من خالف فاختلف ، وكان منا من اختلف فتخلف . وكان فينا من يرى أن بوادر الشرر التى امتلأ بها الأفق ، لا تسمح بترف الانتظار حتى ولو كان فى التعجل مخاطره ، وعددوا الأسباب :

الجنوب : ماذا تبقى منه ؟

تدافعت الأحداث فيه بحيث سابق الفعل رد الفعل ، فاتسعت

الهوة ، تراجعت أصوات التعقل ، وتوارت دعوات الحوار ، وخلت الساحة إلا من دماء تهدر .

وهى فى كل الحالات نزيف من جسد السودان .

تحول الجنوب من ساحة للخلاف بين أخوة ، إلى مدخل للصراع الدولى والمطامع الإقليمية ومحاولات الالتفاف والحصار ، تصاعد هدير الموت فغدا كل ما هو متاح مشروع . ولقد كنا بحكم مواقعنا فى الجيش أقرب ، نعايش الخطر ونعيش المحنة ونلمح بوادر الكارثة .

كنا مدفوعين بحكم القرار السياسى ، بغرض الوحدة ، كنا نستشعر مرارة القتال ، فنحن لا نواجه عدواً وإنما نواجه أنفسنا .

كنا ندرك أن معارك الخلافات فى الشمال هى ساحة الصراع الأهم بالنسبة لحكام الخرطوم ، بينما الجنوب جرح القلب الدامى ، فعلى هامش الهامش من اهتمامات العاصمة ، والأهم والأخطر مشاعر الناس هنا وهناك .

كانت السنوات قد طعمت الناس بالمأساة ، فاستحالت من جرح إلى مرض ، من ألم إلى وجيعة ، تعايش الناس فى الشمال معها كواقع يتعايشون معه دون انفعال بأبعاده ولا حتى تطوراته الخطرة المنظورة وغير المنظورة وعايشها الناس فى الجنوب وقد انصرف جهدهم

إلى اتقاء مخاطرها ، وانحصر الاهتمام بها ، بين مـن يحملون السلاح .

ولقد عايشنا نكسة سنة ١٩٦٧ ، عايشناها إلى حد طلب التطوع للقتال فى أى من الجبهات العربية ، إلا أن المقارنة فى عقولنا ووجداننا كانت جارحة ، ونحن نقارن بين اهتمامات الساسة والرأى العام بحرب الأيام الستة ، وإغفال الساسة والرأى العام لحرب السنوات الإثنى عشر .

وبالرغم مما قيل وما يمكن أن يقال ، عن ثـورة الشعب فى أكتوبر أهـدافها ودوافعها ، فإن مشكلة الجنوب كانت شرارتها الأولى رغم أن المبـادرة جاءت من السلطة ، ورغم أن حكـومة عبود هى التى طلبت مناقشة القضية على المستوى القومى ، فكانت ندوة جامعة الخرطوم التى انتهت بسقوط القرشى ، فاندلاع ثورة أكتوبر المجيـدة .

ولقد قيل فى ندوة جامعة الخرطوم المذكورة الكثير ، إلا أن أهم ما قيل فيها ، كان تشخيصاً حكيما ودقيقاً لأبعاد قضية الجنوب أو وسائل المعالجة المطلوبة لها .

كان الرأى الذى ارتفع شعاراً للندوة ، ثم بعد ذلك شعاراً للثورة ، إن قضية الجنوب لا تنفصل عن قضية السودان كله . هى قضية الحريات فيه ، هى قضية الديمقراطية ، هى غياب المشاركة الشعبية ،

فالجنوب جزء من قضية ، ومعالجة الجزء لا تكون إلا فى إطار معالجة الكل .

وحينما خرجت الجموع تهتف للديمقراطية ، وتطالب بإسقاط الحكم العسكرى ، فإنها كانت تهتف للطريق الجديد لمعالجة قضية الجنوب ، ولذلك فحينما تقدمت الطلائع فى القوات المسلحة لحماية الثورة بعد مؤامرات الإجهاض من جانب الحكم العسكرى ومؤامرة الخلاف بين الزعامات السياسية ، فإننى طرحت على المجتمعين من الهيئات وقيادات الأحزاب خيارات ثلاثة وبأسماء ثلاثة لتشكيل الحكومة فى وقت حددته ، وكان منهم (سر الختم الخليفة) ، أول رئيس للوزراء بعد ثورة أكتوبر .

كان التقدير فى اختياره أنه الأقدر على معالجة قضية الجنوب ، عاش فى الجنوب وعايشه ، خالط الناس فيه ، تعرف على المأساة ونبضها الدامى ، فعرف معايشة تعرف لا تعرف سماع ، كان مسئولا عن التعليم ، وهو موقع يتيح له تقدير الفارق بين الاضطراب والاستقرار ، بين استمرار الحياة والقضاء عليها ، بين العمران والخراب ، بين نمو البراعم لتسهم فى صياغة المستقبل ، وبين وأد البراعم فى صدام النار والدم .

كان هذا هو الأصل فى اختياره ، وبغض النظر عن ظروف وملابسات اعترضت مهمته ، إلا أن المهم أن قضية الجنوب والتى أشعلت ثورة أكتوبر ، تزايدت تعقيداً فى ظل حكومات ما بعد أكتوبر

بل إن التعايش النموذجى بين الجنوبيين والشماليين فى العاصمة ، تعرض لأزمة قاتلة ، وانتقل الصراع من الغابات إلى شوارع الخرطوم ، وذلك فى يوم الأحد الأسود ، أحد أيام ديسمبر سنة ١٩٦٤ .

بدأت موجات من الهجرة المضادة من الشمال إلى الجنوب ، عاد الآلاف بمرارة التجربة ، وعاش مئات الآلاف فى العاصمة يجترون مرارة تلك الساعات .

وفى الجنوب ، تزايدت الأزمة تعقداً ، وصل الصراع إلى داخل المدن ، تزايدت حدة الاشتباكات فى الغابات ، انقطعت الطرق بعد أن اعترضتها الشكوك والريب وانحسار الأمل فى حل قريب ، وبدأت تظهر نوعيات جديدة من الأسلحة دلالة على أن المواجهة قد تعددت أطرافها ، وأن أعداء الجنوب والشمال قد تقدموا خطوة على طريق تحقيق مطامعهم ، وارتفعت أصوات منكورة تتحدث عن مواجهة بين المسيحية والإسلام . نشطت منظمات عالمية ودول أجنبية وتنظيمات مشبوهة ، تعيد للأذهان ذكرى الحروب الصليبية القديمة ، الغريب أن أعلى الأصوات كان صوتاً لا ينتمى لا للمسيحية ولا للإسلام ، ثم غير الجنوب : الشرق والغرب .

شرق السودان وغربه .

تجمعات فى الشرق تطالب بالاستقلال .

تنظيمات فى الغرب تسعى للانفصال .

ورغم أنها جميعاً ، كانت روافد لأحزاب وطوائف ، إلا أنها وفى ظل الفوضى والصراع والتناحر ، تحوصلت على أسس إقليمية وعرقية ، بل إن منها من تسلل إلى داخل القوات المسلحة ، وكان تجمعنا يتابع أبعاد التسلل الخطر ، بل إنه كان على علم بتوقيت للتحرك تحدد فى الأيام الأخيرة من مايو ، أو الأسبوع الأول من يونيو سنة ١٩٦٩ .

فهل كان هناك مجال للانتظار ؟

ثم قضية الممارسة الديمقراطية .

كانت ممارسات تجمعات القوة ، تجمعات بدأت داخل الطوائف ، لتنتقل إلى واجهاتها الحزبية ، ثم لتفرض وجودها على الشارع ، ثم لتتجه إلى الخارج تطلب السلاح ، ويصلها السلاح .

داخل الطوائف :

انقسم الحزب على نفسه ، حزب يتمتع بمباركة الطائفة ، وحزب انقسم نتيجة انقسام داخل الأسرة .

وبدأت سلسلة من التحالفات المريبة ، تحالفات مع الشيوعيين ، وتحالفات مع الخصوم التقليديين ، مرة مع القيادة التقليدية منهم ، ومرة مع الجناح المنشق فيهم ، وفى كل مرة تسقط حكومة لتتولى حكومة أخرى ناصية الأمر لأسابيع أو عدة شهور .

حوار بغير الكلمات ، اشتباكات بالأيدى ، اتهامات فاحشة ،

ثم أخيراً استعراض القوة ، بجحافل مسلحة بالأسلحة البيضاء ، تجوب شوارع الخرطوم وأم درمان تمارس الديمقراطية على هواها .

ثم بعد ذلك قضية السلاح .

تجمع السلاح لدى كل الأطراف ، ولم يبق سوى لحظة المواجهة .

كل ذلك والجنوب مشتعل بالنار ، والمحاكم تنظر قضية دستورية حول شرعية حل أحد الأحزاب ، رغم قرار نواب (الشعب) ، فى الجمعية التأسيسية .

والقوات المسلحة حائرة إلى من تنحاز . ؟ إذا جاء قرار المحكمة الدستورية ، مناقضاً لقرار الجمعية التأسيسية ، هل تنحاز إلى القانون بقدسيته ؟ أم إلى المجلس بشرعيته ؟

وكان القرار فيما قبل أيام من ليلة الزحف فى ذكرى مولد الهدى ، أن تنحاز القوات المسلحة للشعب وللشعب وحده .

ولقد تخلف من اختلف ، وتراجع من تنصل ، وبقى من التجمع من كان يرى أن خطر الانتظار فوق أى حسابات للتعقل .

وكانوا نخبة ، انتخبنا من بينهم ثمانية ليكونوا واجهة ، كان منهم من أعرف ممن عمل تحت قيادتى المباشرة ، وكان منهم من لا أستطيع ادعاء اكتمال معرفته .

تجمعنا جميعاً لتحقيق أهداف لا خلاف عليها ، لم تكن بيننا صراعات فى الفكر أو هكذا بدت الأمور حتى تكشفت .

كان تجمعنا يحكمه عهد ، بأنه لا اتصال بأحزاب أو جماعات ولا تنظيمات .

كانت أهدافنا محاصرة الحريق الوشيك ، وعلى هذا التقينا .

ترامى إلى مسمعي قبل شهور ، من ليلة الزحف فى ذكرى مولد الهدى ، أن أحدهم ، وكان مبعداً عن الجيش ، قد أجرى اتصالا بالحزب الشيوعى السودانى ، ولقد جزعت فسألت ، فكانت إجابته ، أنه استثمار معكوس لمبدأ شيوعى معروف ، وهو الاستفادة من(المغفل النافع) .

رأى أن يستفيد من إمكانياتهم فى طبع منشورات تجمعنا وقدراتهم على توزيعه فاستعان بهم ، دون أن يكشف لهم من أمرنا شيئاً .

هل بلغت واحة الاطمئنان فى قوله . . ؟ ربما . . إلا أن الأحداث بعدها توالت ، والزمن كان سباقاً ، حيث التوقف مخاطرة والتراجع جريمة فى ظل موعد مع الخطر ينتظر السودان وبات وشيكاً فقبل ساعات من ليلة الزحف ، فى ذكرى مولد الهدى التقيت بمن صور اللقاء وكأنه صدفة ، صارحنى بعدها أنها صدفة صاغتها مطاردة ، زميل دراسة ، وصديق حميم ، رغم اختلاف الفكر والرأى والعقيدة ، كنت أعرف موقعه فى صفوف الحزب

الشيوعى السودانى ، وكان يعرف موقفى من معتقدات الشيوعية والشيوعيين ، كان يعرف أننى لجأت إلى القضاء خصما لمن ادعى فى صحيفة يصدرها ، أننى أتعاطف مع الفكر الشيوعى وذلك أيام المد الشيوعى الذى رافق وتلى ثورة أكتوبر لبعض الوقت .

كان يعرف اتجاهات فكرى ومنطلقات عقيدتى ، والتى لا يمكن أن تلتقى مع الفكر الشيوعى ، ومع ذلك فإن اختلاف الرأى لم يفسد فينا على مدى الأيام للود قضية ، إلتقى بى مرحباً ، وأقبلت عليه بشوق الصديق ، ثم صارحنى بهدف اللقاء الذى لم تصوغه الصدفة . . أشار إلى أن هناك ما ينبغى الحديث حوله ، وأننى مطلوب كطرف فى حوار عاجل لا يتحمل التأجيل ، وأنه غير مكلف بإجراء هذا الحوار ، وأن غيره طالبه بحكم زمالة قديمة وصداقة وطيدة تربطنى به أن يرتب هذا اللقاء .

وتفكرت والساعات تجرى موازناً بين القبول والرفض ، كان تقديرى أن اللقاء الذى لم تصوغه الصدف ، له علاقة مع ما جرى تدبيره وأن الحوار المطلوب حوله . فلو رفضت لتأكد الشك ، ولو قبلت فإنه لا فارق بين الغنيمة والخسران ، فإذا اقتنع بما سأقول فتلك غاية وإذا لم يقتنع فإن الشكوك لن تزيد شكوكاً .

ولكن كيف ومن سرب لهم سر تجمعنا الخطير ؟ والتقينا .

قيادى فى الحزب الشيوعى السودانى ، تولى إلى جانب موقعه الشعبى فى الداخل ، مواقع عالمية فى الخارج ، وبدأ الحوار بسؤال يتسم بطابع اليقين حول تحركنا المرتقب ، ثم تحفظاته عليه .

عدم نضوج الحركة الثورية .

جرح مصر ومأساة عبد الناصر .

شراسة الاستعمار العالمى بدليل الهزيمة العربية .

انحسار المد الثورى فى أفريقيا .

عجز الطبقة العاملة فى السودان عن القيام بمهامها التاريخية لتحقيق أهـــداف الثورة .

القضاء فى حالة الفشل على ما تبـقّى من حريات ديمقراطية تمارس من خلالها القوى الثورية دورها رغم حل الحزب الشيوعى ، فما زالت لقيادته حرية الحركة ، بل إنها لها صداقات داخل السلطة وخارج السلطة تمكنها من التأثير فى الأحداث لصالح الجماهير .

واستمعت لخطابة والتى تداخلت فيها تعبيرات لم أفهمها ، ثم فاجأته بسؤال حول مسئوليتى بالنسبة لكل ما قال ؟ بل وتساءلت عن معلوماته حول تحرك وشياك ، ومن هم أطرافه ، وما هى أبعاده ، أكدت له بعد معاناة واضطهاد وتشريـــد ، آن لى أن أستريح ، أنعم بالرتبة التى وصلت إليها ، وأتطلع لما بعدها ، فلقد دفعت الكثير .

تظاهر بالاقتناع وكأنه نادم على ما أفصح عنه ، وأدركت عن يقين ، بأن ثغرة ما فى تجمعنا قد تسرب منها النبأ العظيم .

ولم يكن ما تبقى من ساعات كاف للمحاسبة أو المراجعة ، كان اليقين أنهم يعرفون ، وكان المطلوب أن لا تمكنهم تلك المعرفة من تسديد طعنة فى الظهر . . ولكن كيف ؟ . . لم يكن هناك غير كبيرهم .

إليه توجهت . . زائر جاء على غير موعد ، وعلى غير انتظار .

ألجمتــه المفاجأة فاستثمرتها على الفور ، ذكرت له أننى أعلم أنه يعلم ، وأن ما يعلمه صحيح مع فارق فى التوقيت ، فإن ما يتوقع حدوثه قد وقع فعلا ، وأننا أحكمنا السيطرة ، وأن الإعلان عما جرى لن يتمهل إلا ساعات ، وأنــه بشخصه وأنــه فى بيته وأنه بكل إمكانيات اتصالات تحت سيطرة كاملة من جانبنا .

وأننى لا أحذر ولا أنذر ، ولكننى أقول ، إن الحساب سيكون عسيراً لو حاول ، وأن الحرج ولا أقول الخطر ينتظره لو تخطى أبواب منزله ، حتى صباح الغد الوشيك .

وخرجت . .

كان مطلوب أن أراجع الأسماء ، من منهم أباح لنفسه خطيئة الاتصال بهؤلاء ، ومن فيهم أذاع السر ولماذا ؟ كانوا ثمانية ، خمسة أكاد أجزم ببرائتهم ، وثلاثة حولهم بعض الشكوك .

فيهم ذلك الذى اتصل بالشيوعيين وبرر الأتصال بنظرية (المغفل النافع) المعكوسة .

ومنهم ، من كان الصمت ثوبه ، والاتزان طبعه ، والكلمة المحسوبة له ، أكثر من تلك المحسوبة عليه ، تربطنى به صلة قرابة بعيدة ، تحمس حين دعوته للانتماء لتجمعنا ، كان فى كل لقاءاتنا يستمع ولا يناقش ، لا يدلى برأيه إلا بعد الجميع ، وكان دائماً مع الإجماع إلا مرة واحدة .

يوم الخلاف بين المتمهلين والمتعجلين ، يومها كان مع سرعة الحسم لأنه يرى كما أرى أن الظروف لا تتحمل ترف الانتظار .

ثم ثالثهم لا يمكن أن يكون .

فهو ليس بيننا ، يعمل فى موقع بعيد خارج البلاد وهو على خلق عظيم .

* * *

كانت الساعات القادمات حاسمة ، طرحت الأمر جانباً معللا النفس بأن الأيام قادرة على كشف المخبوء ، ولم أكن أعرف أنها قريبة إلى هذا الحد ، أسابيع وتفجر الخلاف ، شهور وتفاقم ، سنة وبعض السنة ، لينكشف المستور عن تدبير أثيم .

راجعت ما اتفقنا عليه هناك فى نقطة التحرك ، حيث الطلائع يلهبها الحماس ، وحيث واحد فاجأه التدبير فتخاذل ، وكان القرار أن يبقى حيث هو مقيداً إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا ، أما نصر الله الذى وعد به عباده المؤمنين ، ولسوف نتولى وقتها فك قيده ، أومايشاء الله ، ووقتها يتولى أمره غيرنا ، وفى الحالتين هو فى مأمن من كل خطر .

الغريب فى أمر أسير القيد ، أنه وبعد أن تأكد النصر ، انطلق يملأ الدنيا ضجيجاً بأنه صانع التغيير وأن غيره قد تخاذل ، وظل يردد الأكذوبة حتى صدقها ، وما لبث أن انكفأ ساخطاً فتورط ، فلاحقه العفو وأصابه الثراء ، وما زال يردد أنه حطم القيد رغم أنه كان فى القيد ، يوم تحطمت كل الأغلال .

* * *

على مشارف المدينة ليلة الزحف فى ذكرى مولد الهدى راجعنا المكان ، فبدت أضواء ساهرة ما زالت تحيى الذكرى العاطرة تلمع ، كان ذلك يعنى أنه مازال هناك جموع من الساهرين ، وقررت أن تتمهل خطوات البداية ، كان فى تقديرى احتمالات صدام على

الطريق ، وخشيت على الساهرين احتفاءاً بذكرى مولد المصطفى من مخاطره ، كنت أريدها بيضاء من غير سوء ، هكذا تمنيتها ودعوت الله وابتهلت إليه ، فما استهدفت إلا وقف نزيف الدم فى جنوب بلادى ومخاطر الخراب والانقسام والدمار لكل بلادى ، أردتها بيضاء منذ لحظاتها الأولى ، وأرادها الله امتحاناً لصلابة الإيمان فامتثلت ، شفيعى فيما جرى ، أننى لم أكن مبادراً ، وسندى فى رحابه أننى لم أكن مهاجماً ، ويقينى قوله تعالى فى عزيز آياته :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

وقوله تعالى :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

كانت غايتى أن تكون بيضاء من غير سوء ، ولهذا فقد تمهلت خطواتنا على طريق الزحف فى ليلة ذكرى مولد الهادى عن ميقاتها المحسوب ساعة وبعض ساعة ، كانت كافية لنعاود التأمل فيما تم إجماعنا عليه .

أن لا نكون طرفاً فى سلطة ممارسة الحكم ، تلك لها رجالها ، أن نكون بالقوات المسلحة وداخل القوات المسلحة متابعين لتنفيذ أهدافنا بل هدفنا الوحيد العظيم ، وقف نزيف الدم فى الجنوب وفى أسرع وقت ممكن ، وفى إطار سياسة تقوم على الحوار والاعتراف بما هو مشروع ، الفوارق الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وبالطابع المميز لجنوب السودان ، وذلك فى إطار حكم ذاتى يتأكد بوحدة التراب السودانى شماله وجنوبه ، ثم أن نسعى ، لرفع ألغام التشرذم وبؤر الانقسام فى السودان كله . لا طائفية ، ولا حزبية ، لا عنصرية ، لا إقليمية ، على أن تؤول السلطة تدرجاً للشعب وفق خطوات محسوبة .

ذلك دورنا ، تشكل بالقوات المسلحة قدرة التوجيه لمسار العمل التنفيذى لتحقيق هذا الهدف ، دون أن نتورط فى ممارسات تنفيذية ، لها رجالها .

ولقد اخترنا منهم من رأينا أنه الأصلح .

هو بحكم تخصصه يلتزم بالقانون ويقدس نصه وروحه .

هو بحكم التاريخ ، لم يكن إلا خصما لكل الأحزاب والتكتلات والطوائف .

هو بحكم إنجازه أحد الطلائع التى تصدت لمواجهة الحكم العسكرى فهو من رموز ثورة أكتوبر الشعبية العظيمة ، بالإضافة إلى أنه لم يتورط فى قبول منصب ، يوم انحرفت بالثورة مطامع الأحزاب .

بهذا الرجل وحده تم الاتصال قبل ليلة الزحف فى ذكرى مولد الهـــدى .

ولهذا الرجل وحده تركت مهمة اختيار من يعاونه ، وهذا الرجل وحده كان حلقة الاتصال بين قيادة تجمعنا وجهازه التنفيذى .

ولقد اختار الرجل رجاله .

صحيح أنه عرض الأسماء ، إلا أنها كانت أسماء بلا طابع ملفت ، والقليل منهم والذى توقفت أمامه أكد لى أنه غير محسوب على ما أظن ، وأنه بالممارسة وزمالة المهنة يعرف حقيقة انتمائه .

ثم تولى مع الأيام كشف كل الحقائق . . قال بعضها فى ساعات حرج ، وقال بعضها فى ساعات محن ، وبرر بها جميعاً ، لمـــاذا اختار من هؤلاء بعض هؤلاء ، وللحق كان يملك دليلا .

إنه حين فوض فى اختيار رجاله ، فقد راعى أن لا يكونوا من بين صفوف الأحزاب التقليدية تلك لها مواقفها بل لها مصالحها والتى تتعارض مع أى تحرك يستهدف التغيير .

ثم إنه حينما اختار كان يعرف سلفاً أن هـؤلاء حين قبلوا عرضه ، فإنما قبلوا التنصل الكامل مع كل ما كان يربطهم ، ليس لأنهم لا يريدون ، وإنما لأن الآخرين لن يقبلوا ، وقد حدث هذا بالفعل ، صدرت قوائم فصلهم مما كانوا ينتمون إليه ، جردت حملات تشهير

وتنديد بهم ، انقطعت بينهم الصلات ، وانعكست مواقفهم داخل ذلك التنظيم ، فكان انقسامه الشهير .

كان التقدير قبل الزحف فى ليلة ذكرى مولد الهدى ، أن الرجل يستطيع أن يتولى قيادة سفينته ، ولم نكن ندرى وقتها ، أنه قادها فعلا ، ولكن على طريق الأشواك .

* * *

تحرك الزحف قبل الفجر ولحق به ساعة انتصاره ومرت الأيام ، وهواجس القلق تتكاثف ، ولولا يقينى بالله لجزعت .

توالت برقيات التأييد ، من القيادات والتنظيمات — المهنية والفئوية ، ولكنها لا تكفى ، تكاثرت الاعترافات الدولية ، ولكنها لا تفيد .

أوفد الراحل عبد الناصر مندوبين ينقلون تأييده بعبارات أشعلت فى القلب جذوة الزهو ، كانت رسالته رحمه الله وغفر له تقول :

إن ثورة السودان ، هى أولى ضمادات جرح يونيو ، وهى دليل حيوية الأمة العربية وقدرتها على مغالبة اليأس .

حملت الصحف العالمية ووكالات الأنباء ، تصريحات بعضها متحفظ وبعضها ودود ، تصدرت أخبارنا صفحات الصحافة العالمية ، وفد إلينا العديد من الصحفيين من كل أنحــاء العالم ، لهثت الدنيا أمام النبأ العظيم ، ومع هذا فى القلب غصة . . !

هل خاب التقدير يوم ظننا أن الشعب قد فاض كيله وأنه يتحرق شوقاً لساعة الخلاص .

هل تلون تقديرنا لمشاعر الناس واتجاهاتها بما يطوف بالفكر ويثقل القلب والوجدان ؟

هل ما رأيناه خطراً تمثل لنا وحدنا ، بحكم معايشة لمكامن الخطر غير متاحة لسوانا ؟

هل هناك انفصام بين الشعب وجيشه ؟ هل استهوت الناس لعبة الليبرالية وإثارة الصراع وتطاحن المطامع بحيث شغلتها عن جوهر قضاياها .

ويطوف بالفكر ذكرى قريبة ، كنت فى زيارة بعض أهلى فى ود نوباوى ، عجوز من الأسرة يلقى النرد جانباً ويتشاغل عمن يلاعبه ليقول لى : لقد طفح الكيل بالناس ، فأين أنتم ؟

استرجع الحديث ، والذى لم تمض عليه سوى بعض أسابيع ، والذى تقبلته وقتها بالرضى لأعاود النظر فيه ، هل هى نظرة جزئية لعجوز ساخط ، أم هى تعبير عن مشاعر الملايين ؟

والآن فقد مضى اليوم الأول والثانى والثالث وكاد أسبوعنا الأول أن ينصرم ، أين هى إذن حشود الجماهير ؟ أين الترحيب والتأييد تطلقه الحناجر وليس مجرد سطور باردة ولو ضمتها آلاف البرقيات ؟

أين آباء الشهداء وأمهاتهم فى الجنوب والشمال ؟ أين مواكب العطالة ؟ أين أسرى الجوع والعطش والعرى وضحايا الإهمال ؟

أين الجماهير التى وعت نظرة الأحزاب لها ، تتذكرها على أبواب مراكز الانتخاب ، وتتناساها بعد انتهاء التصويت ؟

أين هؤلاء وغير هؤلاء الذين يعايشون عبث الصراع الحزبى والطائفى وسطوة الإدارة الأهلية وقهر الإنسان لأخيه الإنسان ؟

أين هؤلاء وكل هؤلاء ، ممن لا يدخلون فى شجرة الأنساب ويتدرجون فى قاع القاع لأنهم غير مميزين بالوراثة ؟

أين الذين يبيعون عرقهم بأمل موعود فى الجنة رغم أنه ليست للجنة باب غير باب الإيمان والعمل الصالح ؟

أين غرقى العطش ، وأسرى المرض ، وضحايا الجهل والحرمان ؟

أين غير هؤلاء وهؤلاء ، نخبة المثقفين فى بلادنا هل مازالوا فى مكاتبهم ومعاهدهم ، يقارنون بالأسى بين تقدم العصر فى غير السودان وتخلف الزمن بالسودان .

صحيح أن إجراءات عنيفة قد تم اتخاذها ، إعتقلنا العشرات من القيادات الحزبية والطائفية ، ألغينا الأحزاب وواجهاتها المختلفة ، وكان من الواضح أن هناك شعوراً بين الناس بالرضى ، أو على الأقل ، ليس منهم من أعلن احتجاجاً على أى من تلك الإجراءات .

ولكن هل يكفى ذلك ليكون دليلا على مناصرة الزحف يوم تقدم ، ويوم انتصر ، ويوم استقر ، وقد مرت أيام وأيام .

وتسربت أيام شهر مايو ذلك الشهر الجليل ، وتباطأت ساعات يونيو رغم تزاحم المشاغل والأحداث ، مراليوم الأول وفى صبيحة الثانى من يونيو ، كان الهدير .

عشرات الآلاف تهدر ، مئات الآلاف تهتف ، جموع العاملين تزحف ، من حيث تعمل ومن حيث تقيم .

ولقد كان ذلك اليوم المجيد ، يوم النصر فى يقينى ، ولقد ظل ذلك دليل النصر وفى كل المراحل خاصة فى ساعات الحرج والمحن والأزمات .

* * *

من الثانى من يونيو ، وحتى التاسع منه ، توقف الزمن أو كاد يتوقف ، كنت أتعجل دراسات حول الوضع فى الجنوب ، يجريها مجلس الوزراء الجديد فى إطار البيان الذى أعددناه سلفا والذى يتضمن تصوراً لحل قضية الجنوب .

وتابعت على البعد مناقشات جرت ، وأدركت وقتها أنه كان هناك خطأ فى الحساب ، خطأ لا أتنصل منه فمسئوليتى شاملة ، ولكنه كان فى الحقيقة خطأ من انتقى واختار ، ومن انتقى واختار لم يكن وحده ،

كنت معه ، كل فيما يخصه ، كان عقدنا قد اكتمل كقيادة لتجمعنا ، وكان مجلس الوزراء برئاسة من اخترنا قد اكتمل تشكيله .

ومن مجلس الوزراء ، تناهى إلى سمعى أن هناك من اعترض ، وكان الإعتراض شاملا للصيغة المطروحة بكاملها ليس لأنها لا تتناسب مع حجم المشكلة فحسب ، وإنما لأنها تتناقض مع جوهر المشكلة كذلك . . كيف ؟

كان للمعترضين داخل مجلس الوزراء لغة واحدة تتشابه حتى فى مفرداتها .

قالوا . . إن القضية فى جوهرها ، هى قضية التناقض الطبقى ، فهناك فئة تمارس الاستغلال وتطمح للسيطرة على الطبقات الكادحة ، وقد تحالفت مع الرأسمالية العالمية ممثلا فى الاستعمار الغربى ، وأن الصراع الدائر فى الجنوب هو فى حقيقته تنافس بين الطبقات المستغلة فى جنوب الوطن وشماله ، وأن ضحايا هذا التناقض هم فى ذات الوقت أدوات الصراع ، سواء كانوا من الشمال أو الجنوب ، وأن شعارات الانفصال والوحدة التى يتواجه عبرها كل الأطراف إنما هى شعارات مضللة ، وأن معالجة القضية ينبغى أن يكون فى إطار محتوى أممى ، تتراجع أمامه مفاهيم الوطنية والقومية ، وأن سيطرة الطبقة العاملة ينبغى أن يتقدم كل الأهداف ، فهو الطريق الوحيد لإسقاط شعارات الانفصال والوحدة معاً ، وتتهاوى بتحقيقه كل التناقضات الثانوية ، ليبرز التناقض الرئيسى الذى يتجمع فى إطاره الشعب بقيادة الطبقة العاملة لمواجهة الاستعمار .

ذلك كان صوت الاعتراض داخل مجلس الوزراء ، وحينما طرحته للنقاش داخل تجمعنا ، إعترفت صراحة بأننى لم أفهمه ، فالتناقضات الثانوية والتناقضات الرئيسية والصراع الطبقى كلها مفاهيم من الممكن أن تكون فى أى مكان إلا فى السودان ، فالسودان عموماً والجنوب خصوصاً يتميز بحالة من التسيب الطبقى لو صح التعبير ، فأغلب وسائل الإنتاج ذات القيمة الاقتصادية هى ملكية عامة وخاصة فى الشمال ، وكل وسائل الإنتاج ذات المردود الاقتصادى هى ملكية مشاعة وخاصة فى الجنوب .

وإن الأبقار وهى رموز الثروة فى الجنوب ، إنما هى رموز اجتماعية تتحدد من خلالها مكانة الفرد والأسرة والقبيلة ، وهى رموز للتبادل فى حالات المصاهرة ، وهى غير قابلة للاستثمار الاقتصادى ومن ثم يستحيل أن تكون وسيلة من وسائل الاستغلال .

وكان تقديرى ، أننا وفى تجمعنا لن نتوقف مطلقاً أمام هذه الاعتراضات ، فلقد كانت الدراسات الخاصة بالجنوب سابقة على تحركنا ، وأننا أشبعناها دراسة ونقاشاً إلى أن توصلنا إلى الصيغة المطروحة ، بل إننا توصلنا أكثر من ذلك إلى وضع الخطوط العريضة للبيان الذى يتضمنها .

إلا أننى فوجئت بل صدمت حينما اتضح أن بعض أعضاء تجمعنا يساند اعتراضات البعض فى مجلس الوزراء ،وحينما لجأنا إلى التصويت ، كان ستة من أعضاء التجمع مع الصيغة المطروحة ، وأبدى ثلاثة الكثير من التحفظات . من كانوا الثلاثة ؟

ذلك الذى كان بعيداً يوم تحركنا ، وذلك الذى كان يتستر بالصمت ويتميز بالاتزان ، وصاحب تعبير (المغفل النافع المعكوس) .

وكانت تلك أولى علامات الخطر .

حل التاسع من يونيو ، وتم إذاعة البيان ، تقبله الناس فى الشمال بالفرحة ، وتقبله البعض بالتحفظ فى الجنوب .

ومن هؤلاء ، من التقيت به بعد ذلك بشهور وحينما استرجعنا الماضى بعنف المأساة فيه ، توقف متطوعاً أمام بيان التاسع من يونيو ، تحدث مطولا عن ردة الفعل الأولى بالنسبة لهم ، كانت الفرحة ، وبعدها كان طوفان الشكوك ، كيف يستقيم عقلا أن يتجاوز (ناس) الخرطوم صراع السنوات فجأة وبغير مقدمات دون مساومة دون مناقشة دون محاولة لإملاء الشروط ، كيف تجاوزوا سياسة المواجهة بالقهر ليحل محلها مبدأ المناقشة والحوار ؟ كيف يمكن للوافدين الجدد أن يعترفوا بما أنكره الكل على طول سنوات الصراع ، بالفوارق الثقافية والفوارق الاجتماعية ومبـــدأ الحكم الذاتى ولا يضعون شرطاً ، سوى التأكيد على وحدة السودان .

لابد أن فى الأمر خـــدعة .

بل إن البيان (الزائف) إنما هو تمهيد لهدنة موقتة يجمعون فيها قواهم ، استعداداً لمواجهات جديدة وعنيفة هذه المرة .

ولقد كان ذلك سر التحفظ الذى تأكدت مبرراته حينما تجمد الوضع عند حد إصدار البيان .

لم نتحرك من جانبنا لإزالة الشكوك ، لأننا وبعد إصدار البيان مباشرة ، كنا على موعد مع سلسلة من خطايانا ، وهى خطايا كان حسن النوايا جانباً منها ، ثم كان الصبر جانبها المدمر .

فى داخل تجمعنا ، لاحظت أن هناك من يسجل كتابة الكلمة والهمسة وحتى الإشارة ، وحينما استفسرت عن سر اهتمامه بتسجيل كل ما يقال ، كانت إجابته ذات شقين .

جانب منها ، أنه يريد أن يسجل للتاريخ ، وجانب منها ، أن التسجيل وسيلة للمتابعة فمن خلاله يستوعب أكثر ويفهم أكثر وبالتالى فإنه يتوصل إلى الرأى السديد .

صدقته . . نعم . . إلا أن ذلك لم يطول ، فسرعان ما كان ينقل ما يدور داخل تجمعنا سراً إلى الخارج وبأدق التفاصيل فيه ، امتلأت بـه منشورات الشيوعيين تشير إليه وتعلق ، تهاجم قرارات صدرت ، وأخرى لم تعلن وكأنهم كانوا يشاركوننا قاعة الاجتماعات ، ولقد كان ذلك مقصوداً أن يشيع بين الناس أنهم يشاركون فى السلطة بل يشيع بين الناس أنهم هم السلطة .

ولقد كان ميسوراً أن نتخبط فى ظلمات التخمين ، إلا أن المنهج العلمى والنظرية الثورية إلى آخر المصطلحات لم تعصم الشيوعيين من خطأ فادح ، ذلك أن منشوراتهم كانت تشيد دائماً بقرارات يصوغها الإجماع داخل تجمعنا ، وتهاجم دائماً قرارات يتحفظ عليها البعض منا ، وكان هؤلاء البعض على الدوام هم نفس الثلاثة

صاحب التعبير ، والبعيد العائد ، وذلك الذى يتستر بثوب الصمت ، ويتميز بالاتزان .

داخل تجمعنا أشرت إلى ما يجرى تلميحاً ، ثم تناولته تصريحاً ، ولم أصادف فى كل الحالات غير الإنكار .

هل كان يمكن فى ذلك الوقت المبكر أن أحسم الأمور ؟ كانت المحاذير كثيرة ، كنا على أبواب معركة بدأت القوى التقليدية تحاول فرضها علينا بالاستفزاز .

كنا فى بداية مواجهة مع الشيوعيين فى الوقت الذى كانت فيه مباحثات نشطة تدور مع الاتحاد السوفيتى من أجل التسليح ومن أجل الإسهام فى تنفيذ خطة طموحة للتنمية .

كنا نواجه بدايات حملة نفسية ضارية شاركت فيها الصحافة الغربية وبعض دول المنطقة ، كنا نواجه مخاض التغيير فى نظام التعليم والذى وضعت أسسه فى أواخر القرن الماضى وفى ظل الاستعمار .

كنا نواجه أنفسنا من خـــلال صراع ضارى بين الإمكانيات والتطلعات ، نريد أن نحارب العطش فوراً ، نريد أن نقضى على العرى حالا ، نريد أن نقاوم المرض والجهل ولقد كانت الجماهير تسابقنا ، بل كانت الجماهير تورطنا ، أقامت المدارس والمستشفيات ونقاط الغيار بالعون الذاتى ، أقامتها بالمئات استجابة لنداءاتنا ، وكان

علينا أن نستكمل ما بدأت الجماهير ، وأن نوفر لتلك المنشآت معداتها وكوادرها من مدرسين وأطباء ، وأن نستوعب آلاف التلاميذ فى طفرة لم يسبق لها مثيل .

كنا نواجه التصاعد الخطر لقضية الجنوب ، وخاصة بعد أحداث شهدتها يوغنـــدا .

كنا نواجه متغيرات الأوضاع فى المنطقة العربية وخاصة بعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر فى ليبيا ، كنا طلاب تكامل ، وكانوا طلاب وحدة شاملة ، وبدأ الاحتكاك بالحوار ، لينتهى بعد ذلك بالصدام .

كنا نواجه التزاماتنا بالنسبة لمصر ، كعمق استراتيجى لها ، كان علينا أن نعد القواعد الجوية ، ومنشآت التعليم العسكرية .

كان علينا أن نواجه أعباء الانتقال المفاجىء ، من العقيدة الغربية إلى العقيدة الشرقية ، بالنسبة للقوات المسلحة كخطوة ممهدة لاستيعاب الأسلحة السوفيتية .

وفى ظل ذلك كله ، لم يكن الحسم متاحاً ، كان يعنى شرخاً فى بناء لم يكتمل ، كان يعنى هزة فى كيان لم يتوافر له الاستقرار ، وكان الصبر هو البديل . . مرير نعم . . ومتى كان الصبر بغير مرارة ؟

وفى الشارع كانت الصورة قاتمة . . كانت المواكب تهدر ، كانت الجماهير تهتف ، إلا أنها كانت جماهير محصورة بقيادات

مفروضة ، قيادات محترفة برزت على السطح ، تتصدى لقيادة الجماهير فى كل المواكب وفى كل التجمعات . قيادات تلوك شعارات لا تفهمها ، وتلوح برايات لا نقرها ، قيادات تفرض نفسها لتخاطب الجماهير باسمنا ، بل كانت فى بعض الأحيان تزاحمنا لتقول كلمة أو تلقى خطاباً ، ولقد استهدفت بهذا كله أن تجسد الوهم ، الوهم أنها تشارك فى السلطة بل إنها هى السلطة ، ورغم ظروف ذكرتها كان من الطبيعى أن أقاوم .

نبهت وحذرت من تلك الظواهر الشاذة ، رفضت حضور تجمعات علمت سلفاً بأن قيادات الشيوعيين تخطط لحضورها .

رفضت محاولات الاتصال بى من جانب قيادات الشيوعيين رغم الإلحاح والتوسط والأجاويد .

تعرضت لمحنة المفاجأة حين استيقظت من نوم قصير لأجده بجانبى فى منزل صديق ، وكان هذا هو لقاؤنا الثانى بعد لقائنا الأول ليلة الزحف فى ذكرى مولد الهدى ، ورغم محنة الصدمة من تدبير الصديق ووقع المفاجأة ، فلقد رفضت الحوار معه باعتباره ممثلا للحزب الشيوعى السودانى ، وكان إصرارى أن قرارنا لا يتجزأ ، لقد صدر قرار بحل الأحزاب كل الأحزاب فلا وجود شرعى لها ، ولا وجود شرعى لمن يزعم أنه يمثل إحداها ، وخرج يومها ، لتبدأ حملة من التعريض استهدفت شخصى ، تعرضت

لسلوكى ، تناولت مستوى ذكائى وتفكيرى ، تجاوزت بعد ذلك شخصى إلى القوات المسلحة ، حديثاً كاذباً عن امتيازاتها ، وتعريضاً بأفرادها وإنكاراً لدورها فى قيادة مسيرة التغيير ، وفى الجانب الآخر كانت الأمور فى مجلس الوزراء تندفع على طريق الخطر .

استحال التعاون بين الوزراء ، تحولت الاجتماعات إلى مناظرات فكرية ، تحولت المشروعات إلى حوارات عقائدية انكمش البعض بلا فاعلية ، وتمدد البعض بما يفوق حجمه وإنتاجه وإمكانياته ، ومن اخترناه كان قد أعلن انحيازه وقع صريع الصوت العالى داخل المجلس والصوت الداوى فى الشارع وابتلعه الوهم فظن الأكذوبة حقيقة وأن الشيوعيين هم السلطة ، أو على الأقل من أقوى ركائزها .

هكذا تورط فى تصريح أثناء زيارة رسمية لألمانيا الشرقية ، وتولى وزير الإعلام فى ذلك الوقت إذاعة التصريح على رأس كل ساعة ، وكأنه خبر وصول أول سودانى إلى القمر .

وقتها تراجعت كل مبررات الصبر ، ولم يكن هناك مفر من الحسم والحسم الناجع ، على الفور أصدرت بياناً باسمى أؤكد فيه أن ما صرح به الرجل لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وأن الثورة قوية بالجماهير كل الجماهير وهى جماهير السودان الوفية أولا وأخيراً . وأن الشيوعيين لا يمثلون قوة ، ولا يسندون سلطة ، وقبل ذلك كنت قد وصلت إلى القرار ولقد حان موعده .

كان من الضرورى أن نتجاوز ما التزمنا به يوم الزحف ليلة مولد الهدى ، فلا مناص من أن أتولى السلطة التنفيذية لأضع حداً للازدواج الخطر .

وعاد الرجل من رحلته ، لأعلن إعادة تشكيل الوزارة برئاستى وعضوية أعضاء تجمعنا ، مع عدد من أصحاب الكفاءة والخبرة .

وبهذا انتهى الازدواج فى السلطة ، ليتفجر الصراع داخلها .

وكانت تلك بداية قصة الغدر .

[illegible]

والمصريين الشائع في الشارع ، وابتلعه الرجل فظن الأكذوبة حقيقة وأن الشيوعيين هم السلطة ، أو على الأقل من أقوى ركائزها .

هكذا تورط في تصريح أثناء زيارة رسمية لألمانيا الشرقية ، وتولى وزير الإعلام في ذلك الوقت إذاعة التصريح على رأس كل ساعة ، وكأنه خبر وعنوان أول سودان إلى النصر .

ولما راجعت كل مبررات التغيير ، ولم يكن هناك مفر من الحسم والحسم الناجح ، على الفور أصدرت بياناً باسمي أؤكد فيه أن ما صرح به الرجل لا يمكن أن يكون صحيحاً ، وأن الثورة قوية بالملايين كل الملايين وهي جماهير السودان الوفية أولاً وأخيراً وأن الشيوعيين لا يمثلون قوة ، ولا يستحقون سلطة ، وقبل ذلك كنت قد وصلت إلى القرار والتصحيح له موعده .

الفصل الثالث

قصة الغدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ
لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ
لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ
عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

*

قصة الغدر

كان حسم الازدواج فى السلطة ، بداية طريق ظننته طريق الاستقرار ، إلا أنه كان نذير العاصفة .

أدرك الشيوعيون أنها خاتمة المطاف لمهزلة إيهام الجماهير بأنهم يشاركون فى السلطة أو أنهم هم السلطة ، فقرروا أن يخوضوا معركة النهاية حتى النهاية .

لم يكن القرار سهلا ، فقد أسفر عن انقسام حاد بين صفوفهم ، انحاز بعضهم إلى السلطة ، إلى حد التخلى عن انتمائه الحزبى ، واختار بعضهم المضى فى طريق العداء وفى إطار هدف معلن هو إسقاط السلطة .

إسقاط السلطة ولكن من يكون البديل ؟ سؤال طرحته على نفسى غير مرة وأنا أتابع نشاطاتهم العدائية ومنشوراتهم الاستفزازية وتسللهم داخل النقابات والتجمعات .

هم من الناحية العددية لا يتعدون المئات ، ذلك إذا استثنينا عناصر يستهويها الصوت العالى ، وتظن أنها تراهن على الجواد الرابح فتساير الزبد ، فإذا ما تكشف لها ضآلة حجمه ، فإنها تتراجع وتتركه يواجه مصيره منفرداً .

هكذا عاش الحزب الشيوعى السودانى مرحلة تضخم عضويته بعد ثورة أكتوبر ، وهكذا تقلص مع بوادر الهجوم عليه من جانب السلطة الحاكمة ، وهكذا طرد ممثلوه فى الجمعية التأسيسية بأغلبية كاسحة ، وهكذا صدر قرار حله دون أدنى معارضة شعبية لها وزنها ، وكان تعليق رئيس الوزراء وقتها على قرار الحل بأنه مجرد بيان للناس ، وكان يعنى أن الحزب الشيوعى لا وجود له فى الواقع ، وأن قرار الحل كان توضيحاً لهذه الحقيقة .

كيف يمكن إذن أن يرفع شعار إسقاط السلطة ؟

فلا هو قادر على تحقيق هذا الشعار ، ولا هو راغب نظرياً على الأقل فى عودة القيادات التقليدية وخاصة بعد أن تورط فى مساندة السلطة يوم واجهت تلك القيادات .

ارتفع شعار إسقاط السلطة من جانب الحزب الشيوعى السودانى ، وانفجر الخلاف داخل السلطة ولحساب الحزب الشيوعى السودانى .

لم يعد الثلاثة داخل قيادة تجمعنا يتسترون على أفكارهم ، مارسوا أسلوب المعارضة للمعارضة حتى داخل مجلس الوزراء ، استقطبوا

بعض أعضائه إلا أنهم فشلوا فى أن يكونوا أغلبية ، اتسمت تصرفاتهم بالرعونة وبدأت مخططات الحزب تأخذ طريقها إلى التنفيذ . كان المطلوب رفع درجة المواجهة بين السلطة والقيادات التقليدية لإنهاك السلطة من ناحية وللإجهاز على تلك القيادات من ناحية أخرى .

أبلغ واحد منهم ، وكان مسئولا عن الأمن الداخلى عن اكتشاف مؤامرة كبرى ، وعن كميات من الأسلحة والمتفجرات وقائمة بأسماء مرشحة للاغتيال ، مع أدلة سافرة على أن المخطط والممول واحد من شباب القيادات التقليدية . وكان طلبه القبض عليه فوراً ومحاكمته تمهيداً لإعدامه . طالبته بالتروى ، إلا أنه أسرع إلى الإذاعة والتلفزيون ليعلن أبعاد المؤامرة المزعومة ، وقتها توليت الأمر بنفسى فحصت الأسلحة والمتفجرات وكانت أسلحة شرقية مما لا يمكن أن تتوفر عند هذا القيادى بالذات نظراً لموقفه المعادى للمعسكر الشرقى وبصورة سافرة فى ذلك الوقت ، كما أن المتفجرات التى ضبطها من المستحيل الحصول عليها إلا من مصادرها الأصلية ، وفيها أسلحة خداعية فى شكل أقلام مما تستخدمه أجهزة المخابرات فى دولة المنشأ ، كما أن الوثائق التى تم ضبطها كأنها قد وضعت عمداً ليسهل اكتشافها ، فلقد بدت وكأنها مرفقة بالأسلحة والمتفجرات بالإضافة إلى أنها عبارة عن تعليمات فى شكل معلومات تفصيلية عن صاحبها .

ثم صدرت قرارات التأميم والمصادرة .

كان المطلوب فى إطار التوجيهات التى صدرت ،هو إجراء دراسات مفصلة عن كل الحالات التى يمكن أن تخضع للمصادرة والتأميم ، على أن يكون الهــدف هو سودنة الاقتصاد السودانى بما يدعم القطاع العام ولا يمس القطاع الخاص إلا فى حالات محدودة تتعلق بالمصلحة القومية العليا .

تحدد لإعلان القرار مناسبة قوميه ، وتلكأت الدراسات ، وقبل ساعات من الموعد المقرر ، جرى إعلانها فى شكــل قرارات وبصور متعجلة ، وكان لا مفر من تنفيذ قرارات أعلنت .

شارك الراحل عبد الناصر المناسبة القومية التى شهدت إعلان بعض هذه القرارات ، وكان رحمه الله أول المصفقين لقرار تأميم بنك مصر فى السودان ، إلا أننى لم أكن راضياً عن قرارات أخرى صدرت ، منها مصادرة منازل وتأميم مطاعم والاستيلاء على ورش ومتاجر ، منها مصادرة جزئية لبعض المرافق التى لا يمكن أن تتجزأ نشاطاتها ، منها تأميم توكيلات تجارية لأنشطة اقتصادية محدودة من العبث أن تتولى الدولة إدارتها .

ثم مبدأ التعويض وعلى أساس القيمة الدفترية ، وكان ذلك يعنى خسارة وظلم ، خسارة لبعض من تضرروا من هذه القرارات ، فلم تكن القيمة الدفترية تعادل القيمة الحقيقية لمصالحهم ، وظلم للدولة لأنها تحملت عبء التعويض وعبء الإدارة فى وقت لم تكن تملك فيه الكوادر القادرة على التشغيل ، ثم كانت مضاعفات التطبيق .

زيادة فى العمالة ، عجز عن تحقيق التوازن الاقتصادى فى تلك المنشآت ، بحيث زادت ومنذ الشهور الأولى ميزانية المصروفات عن حجم العائد :

ارتباك فى أعمال المنشآت التى جرت مصادرتها أو تأميمها جزئياً .

ولقد كان وراء ذلك كله ، تكتل ضم الثلاثة من داخل تجمعنا مع بعض الوزراء الذين نجحوا فى تجنيدهم ، وكان الهدف من هذه المؤامرة ثلاثياً :

* إحجام رأس المال المحلى والأجنبى عن المساهمة فى تنفيذ مخططات التنمية .

* إغلاق كل المنافذ المتاحة للبلاد للتعامل مع الدول الغربية أو العربية .

* ربط الاقتصاد السودانى بصورة كاملة مع المعسكر الشرقى باعتباره المنفذ الوحيد الباقى .

وكانت تلك خطوة على طريق تحقيق الشعار المرفوع شعار إسقاط النظام .

ثم كانت التحول الخطر .

انتقل الثلاثة من مواقع المشاركة إلى مواقع المعارضة ، ليس داخل تجمعنا ولا فى مجلس الوزراء فحسب ، وإنما معارضة فى الشارع وبنفس أسلوب الحزب الشيوعى وبوسائله ، بالمنشورات .

ولعلها المرة الأولى والأخيرة فى تاريخ العالم الذى يصدر فيها وزير مسئول عن الأمن ، منشوراً جماهيرياً يهاجم فيه السلطة ، يكيل لها الاتهامات بأنها باعت البلاد وتورطت فى مغامرات غير مأمونة .

تحدث فى بيانه للناس ، عن وحدة رباعية تضم السودان وسوريا وليبيا ومصر ، رغم أنه يعرف بحكم المشاركة بأننا عارضنا أى اتجاه لإشراك السودان فى وحدة نرى أنه لم يحن حينها ، أعلنا لكل الأطراف أن طريقنا لتحقيق الوحدة طويل ، ينبغى أن يمر أولا بتحقيق الوحدة الوطنية فى السودان ، وبناء الاقتصاد السودانى ، وقيام المؤسسات السياسية والدستورية ، واستكمال بناء القوات المسلحة ، ثم بعد ذلك الرجوع إلى الشعب فى استفتاء مباشر ليقول رأية فى قضية الوحدة **يقبلها أو يرفضها ، فله وحده الخيار.**

أوضحنا لكل الأطراف أننا مع التكامل الاقتصادى بما يحقق مصلحة كل الأطراف ، أننا مع التشاور السياسى بما لا يتعارض مع سيادتنا وبما لا يمس سيادتنا ، كان مسئول الأمن صاحب البيان يعرف أن موقف السودان قد فجر بوادر الخلاف مع ليبيا الفاتح من سبتمبر ، وأننى فى قمة القاهرة الرباعية كنت واضحاً وصريحاً ، وأننى غادرت القاهرة إلى موسكو ، فيما توجه السادات والأسد والقذافى إلى بنغازى ليعلنوا هناك وحدة ثلاثية ، وليست رباعية كما يدعى .

ورغم أنه يعرف ، فإنه لم يكن يملك إلا أن يساند ما يروجه الحزب

الشيوعى السودانى ، فى إطار مخططه لإسقاط النظام .

وهنا كان لابد من وقفة .

صدرت قرارات نوفمبر سنة ١٩٧٠ بإقصاء الثلاثة ، صدر القرار بأغلبية أعضاء تجمعنا ، وبعدها كنا وفاءاً على العهد أن نلتزم بما سبق الاتفاق عليه أن يحسم الخلاف التصويت .

أن يلتزم من يريد برأى الأغلبية ، وإن لم يشأ فله حق الانسحاب ، كما أن للأغلبية حقها فى إعفائه وله فى الحالتين كل مخصصاته بما يحفظ له الحياة الكريمة ، وقبل ذلك أن تتواصل علاقاتنا الإنسانية كإخوة لا ينبغى أن يفسد خلاف الرأى ما بينهم من روابط . . وافترقنا على وفاق .

ومرت أسابيع .

استأذن أحدهم للسفر إلى الخارج للعلاج ، فأذنت له متمنياً له اكتمال العافية ، واستأذن الثانى للسفر للترويح ، فأذنت له متمنياً سلامة العودة .

وبقى ثالثهم ، ولقد أثارت تحركاته واتصالاته الشكوك . وجاءنى شاكياً من رقابة تتابعه وكأنه موضع شكوك ، وظننته مخلصاً فيما أظهره من ألم لمجرد الشك فيه ، وأمرت برفع الرقابة عنه ، وودعنى وخرج ولم أره بعد ذلك إلا فى ذلك اليوم من شهر يوليو الإثنين التاسع عشر منه سنة ١٩٧١ ، رأيته وأنا قيد القهر فى أحد غرف قصر

الشعب ، وهو أمامى فى ثياب عسكرية ، تتلاعب أصابعه بسلاح يشهره ، كنت جالساً فى مواجهة قامته الطويلة وطال بيننا صمت كئيب ، استدار بعده ليخرج ، ليسمع منى كلمة واحدة ، هى : **الحمد لله.**

الحمد لله . . نعم فمن غيره يكون له الحمد فى السراء والضراء ، ومن غيره يكون عنده عدل الجزاء فى الآخرة والدنيا ، ومن غيره يكون له القصاص ، من كل غدار لئيم .

وخلف باب مغلق ، لم تكن هناك سوى رحمة الله ، أنزل السكينة على القلب وزودنى بيقين الإيمان ، وعلى مدى ساعات فيما بعد الغروب حتى الفجر ، تتابعت أحداث وصور كان أبعدها ما جرى منذ ساعات .

رأيت نفسى طفلا ينتفض بالغضب ، وهو يرى شموخ أبيه يهتز أمام المفتش الإنجليزى .

رأيت نفسى يافعاً ، يلوك الفقر كالملايين ، يبيع الخضر فيما بعد ساعات الدراسة ، ويخيط جوالات القطن لقاء مليم واحد عن كل جوال فى العطلة الصيفية ، رأيت نفسى طالباً أشارك الجماهير انتفاضات التمرد ضد الاستعمار فى مظاهرات الخرطوم وأم درمان الشهيرة وأدرك فيما يشبه الحدس بأن المستقبل للقوى الحديثة ، العمال والمثقفين ، طلائع تصدت للاستعمار بينما انكفأت قيادات وأسماء ورموز تهادنه .

رأيت نفسى ضابطاً يملأه الحماس فور التمزج من الكلية الحربية وهو يواجه ضابطاً رفيع الرتبة يسدى له النصح بأن يكون الكتاب رفيقه فى ليالى الوحدة فى المعسكرات والخيام وحتى على رمال الصحراء .

رأيت نفسى راكضاً أتقدم صفاً من الجنود فى طابور الرياضة يملأ الغضب نفسى ، من نظرة رأيت فيها تحدياً وكأننى لن أستطيع الصمود ، فأنا ابن المدينة المترفة ، ومع ذلك ركضت وركضت دون أن ألتفت خلفى إلى أن نبهنى صوت يطالبنى بالتوقف فلم يعد فى الطابور سواى ، فلقد تخلف الكل تعباً على طول الطريق ، يومها تعلمت أول دروس القيادة ، تعلمتها من نظرات الإعجاب ومشاعر التقدير من الجنود ، وعلمت أن القائد الناجح ، **ينبغى أن يكون فى المقدمة دائماً ، آخر من ينام وأول من يستيقظ ، أول من يتقدم وآخر من يتخلف .**

رأيت نفسى على شواطىء قبرص ، وثلوج ألمانيا الغربية فى دورات تدريبية كنت أرى أنها مضيعة للوقت ، فلن أحارب يوماً إلا فى الصحارى الجافة أو الغابات الحارة ، تلك طبيعة الأرض والمناخ فى بلادى والذى من أجل الدفاع عنها وحدها سوف أشهر السلاح .

رأيت نفسى متطلعاً للالتحاق بالقوات الجوية وكيف تحقق الأمل (وخبا) قبل أن يرى النور ، يوم أن التحقت بدورة تدريبية فى قاعدة جوية ببلبيس بجمهورية مصر فى مطلع الاستقلال ، وكيف

تحول التدريب إلى مواجهة سياسية خضتها وحدى ودفعت ثمنها وحدى ، حين لاحظت تراخياً فى تدريب السودانيين كرد فعل لإعلان السودان لاستقلاله .

ورغم أن ما حدث قد لا يكون سياسة دولة وأنه مجرد تصرفات فردية من جانب المدرسين إلا أننى اخترت المواجهة ، واجهت مدكور أبو العز ، وصدقى محمود ، وحسنى مبارك وكان يومها مدرباً فى القاعدة ، وعدت إلى السودان غاضباً ، عدت وحدى وتخلف رفاق الدفعة ، ومنهم من استشهد فى حوادث الطائرات ، ومن بينهم من استشهد تحت أعواد المشانق . . هل جاء دورى . . ؟

ورأيت نفسى ثائراً له ألف قضية ، يوم تدخلت القيادة العامة فى صلاحياتى ، فأعادت تعيين جنود طردتهم من الخدمة لسوء السلوك ، يوم واجهت الإهمال المفزع للجنود فى الجنوب حيث لا كساء ولا غذاء .

يوم تحديت الجميع مؤكداً بأنه لا أمن بغير استقرار ، وأعدت نبض الحياة فى توريت ، ليستقر الأمن بعدها .

رأيت نفسى طريداً من القوات المسلحة ، مصراً على الرجوع إليها بعد اتهامات ظالمة .

رأيت نفسى على باب القائد العام متظلماً من عبث الإدارة ، حينما أهملت إبلاغى بإشارة رسمية بأنه قد تمت ترقيتى إلى رتبة أعلى ،

ولم أكن أبغى من وراء تظلمى سوى لفت الأنظار إلى مدى الخلل الذى كانت تعيشه القوات المسلحة .

رأيت نفسى على رأس قوة ضاربة ، استملتها رغم قيادتها حتى لا تتحرك بالقهر ضد ثوار أكتوبر .

رأيت نفسى محاصراً للقصر ، حتى تم إعلان حل المجلس الأعلى ، ومسيطراً على العاصمة ، حتى تم تشكيل وزارة أكتوبر الأولى .

رأيت نفسى معتقلا بعد انتصار أكتوبر ، لأن الشيوعيين كانوا يرون فى وجودى خطراً على مخططاتهم .

واستعادت أذنى هدير الجماهير ليلة المتاريس العظيمة ، تمارس دورها حتى تم الإفراج عنى .

رأيت نفسى فى طائرة مروحية فى الطريق من كسلا إلى الخرطوم ، متهماً بتدبير انقلاب مزعوم قاده ملازم حديث التخرج .

رأيت نفسى وأنا على أعتاب عرس ، وقد فقدت الأب والأم معاً فى حادث حركة مشئوم .

رأيت نفسى فى الأسابيع الأولى بعد استلام السلطة وقد حاصرتنى الأحداث أتلقى خبر مصرع أحب الناس إلى بعد أبى . . وأمى ، خال عزيز ، اندفع من مدنى إلى الخرطوم مدفوعاً باللهفة على شخصى بعد أن ترامت إليه إشاعات أزعجته ، اندفع إلى الخرطوم لكنه لم يصلها ، لأنه فى الطريق لاقى مصرعه .

رأيت نفسى فى صحارى السودان وبواديه ، أخوض معركة العمر معركة العطش .

رأيت نفسى فى قرى وسفوح وقمم يظن الناس فيها ، أن الحكم فى السودان ما زال للأتراك .

رأيت نفسى أقارن ما استطعت تحقيقه وما تطلعت إليه . . فأجد المقارنة ظالمة ، ولكننى مع هذا حاولت . . اللهم فاشهد .

وعند الفجر صليت الفجر ، بعد أن تيممت ، ذلك أن الماء كان بعيداً ، كان دونه باب وحارس وسلاح مشهور وقهر وغدر ، وبعد الصلاة أغمضت عيونى ، واستغرقنى نوم عميق للمرة الأولى ومنذ شهور .

ما هو اليقين ؟ . . كيف تصفو النفس للتسامى رغم دواعى القلق والإشفاق ؟ كيف يتسع الصدر لتباشير كالإلهام بأن كربه عابر ، وضيقه زائل ، وأنه بعد العسر يسرا .

كيف يتسنى لإطلالة الفجر أن تقتحم الظلام رغم قناعة بأن ليل الظلم طويل ؟ . .

هو الإيمان بالله ، له الأمر ، ولله العزة ، وإليه المصير .

تشابهت الساعات بغير ملل ، توالت الأيام بغير ضيق ، وأطل

صبح الخميس ، وفى ضحاه تناهت إلى السمع أصداء ضجة ، شىء كالهدير يستحيل إدراك تفاصيله ، وإن كان ينبىء عن حركة غير مألوفة قياساً لما سبق هذا اليوم من أيام .

قرب الظهر ، فتح الحارس الباب وترك طعاماً ، وتطوع بالحديث عن تجمع جماهيرى شهدته ساحة القصر صباح اليوم .

تجمع جماهيرى ! ! لم يزد الرجل ، وعاودنى القلق القديم ، يوم تعجلت مواكب الجماهير تعلن المساندة ، كيف استجابت لهم الجماهير بهذه السرعة . لقد انتظرنا أسبوعاً ، من الخامس والعشرين من مايو حتى الثانى من يونيو ، قبل أن تتبلور مشاعر الجماهير بصورة مؤكدة .

وما هى إلا ساعة وبعض الساعة حتى عاد الهدير ، لم يكن هديراً هذه المرة كانت طلقات مدافع وأزيز رصاص وهتافات جموع . هتافات أكاد أسمعها ، ولكن لماذا تتداخل مع صوت الرصاص ؟ بل كيف يمكن أن تجتمع هتافات الجماهير ، مع ذلك الهدير الذى أسمعه الآن واضحاً ، إنه زحف جنازير دبابات على أرض الشارع ، طلقات الرصاص تتوالى ، أصوات مدافع الدبابات تدوى ، ومع ذلك فهتافات الجماهير متواصلة ، وهى هتافات لا تعكس فزعاً ، ليست صراخاً ولا أنيناً ، هتافات لها إيقاع متوازن يتكرر بنفس مساحة الصوت وفى مدى زمنى متطابق .

وانفتح الباب فجأة ، واقتحمت مع فتحة الباب أصداء هتافات الجماهير واضحة . . عائد عائد يا نميرى .

يا إله السموات والأرض . . الشكر لك . . لم يدر حوار بينى وبين حارس الباب المفزوع ، أزحته من طريق ، وعبر ردهات القصر كان صدى الهتافات يتداخل مع طلقات الرصاص وأزيز حركة متوازية لدبابات وكأنها تناور ، ثم طلقات عميقة ، وفيما يشبه الإلهام لم أتجه لمداخل القصر ، عبر سور جانبى وفى قفزة واحدة كنت أطل على الشارع المائج ، وبقفزة تالية كنت فى رحاب الجماهير حافى القدمين فى جلباب أبيض ، حاسر الرأس ، ثم أين أنا ؟ فوق أكتاف الجماهير مئات ، آلاف ، عشرات الآلاف . . لا أدرى .

تحول الهتاف إلى صراخ ، تحولت إرادة الجماهير من صيحة وشعار إلى حقيقة وواقع ، منذ لحظات ، عائد عائد يا نميرى ، وبعد لحظات ها هو نميرى معهم ، فى رحابهم ، فوق أكتافهم ، أياد تصافح ، سواعد تعانق ، ولقد تحول الهتاف إلى أهزوجة فيها كل نشوة النصر لشعب أراد ، فكان له كل ما يريد .

ولكن أنا . . أين أنا ؟

تلك لحظات لا يمكن أن يستشعر فيها الإنسان وجوده ، تلك لحظات ينعدم فيها الإحساس بالزمان والمكان ، بل وتنمحى حتى الإرادة الفاعلة ، من أعناق الجماهير ، إلى سيارة مواطن ، ومن

سيارة مواطن إلى مصفحة عابرة ، ومن مصفحة عابرة إلى معسكر الشجرة إلى دار الإذاعة .

وقد وجدت نفسى فى ثياب جندى .

من صاغ الكلمات على لسانى ؟ ، صاغها وفاء الشعب ، ذلك الشعب الذى ظننت منذ ساعات أنه تعجل فى تأييد الطغاة بينما كان تعجله للقصاص لى ، ما أظلمنى وما أروعه . لقد أعطيته يوماً حياتى ، ولكم أتمنى الآن أن يكون لى ألف حياة لأهبها له بغير تردد .

فى معسكر الشجرة ، توالت بعد ذلك الأنباء الحزينة ، مذبحة فى قصر الضيافة راح ضحيتها عشرات من ضباطنا الأحرار ، إغتالهم الغدر وهم فى قبضته ، قتلهم الجبن مدفوعاً بحقد الأخساء ، ولكنها ساعة للحسم وليست ساعة للأحزان ، سوف يتسع الوقت بعد ذلك للدموع ، ولكن الآن فى هذه اللحظة ، ينبغى أن يتوقف نزيف الدم ، أن لا نسمح بالمجـازر أن تستمر ، وأن لا نسمح بنزعات الإنتقام أن تطل برأسها .

وحتى هذه اللحظة لم أكن قد استوعبت بعد تفاصيل ما حدث ، ولكننى كنت أدرك أن الوحش الجريح فى ساعات يأسه ، لا يملك إلا أن يواصل هجومه ، وأن المنتصر فى ساعات نشوته قد يندفع إلى ما يمكن أن يندم عليه .

ولقد كان ضرورياً محاصرة الاحتمالين ، وقد تم ذلك بنجاح ، ثم بجهود مذهلة جمع السلاح واعتقال المطلوبين ومطاردة المسلحين والإعلان عن محاكمات ميدانية عاجلة ؛ وكان إعلان هذا القرار ضرورة قاهرة . . لماذا ؟

لأن الإعلان عن محاكمات ، كان يعنى عودة سريعة للاحتكام للقانون بعد غياب كان القتل فيه مباحاً بالجملة ، كانت السلطة الشرعية قيد القهر ، فيما كان القهر يمارس أحقاده دون اعتبار لأى قانون ، كان هناك جماهير ثائرة تعرف أعداءها ومن الممكن أن تتعرف عليهم ، فإذا أخذت القانون بيدها ، فأى مذابح ، وكيف يمكن تبين الجانى من البرىء ، بل وكيف يمكن تقنين عقوبات تصدرها وتنفذها جماهير ثائرة ، لا تستطيع أن تفرق بين من خطط ومن نفذ ومن شارك ومن ساند ومن تورط أيضاً .

ثم كانت الحالة النفسية للجنود والضباط ، فاجأهم الغدر وهم فى غفلة الطمأنينة ، وحاصرهم القهر ومعظمهم بعيد عن وحدته وبعيد عن سلاحه ، ثم أن لهم شهداء سقطوا ، لم يسقطوا فى مواجهة ، لم يستشهدوا فى ساحة صدام ، وإنما فاجأهم القتل الجبان وهم فى حماه حتى ولو كانوا فى أسره .

ورغم ثقل الأحداث وتتابعها ، ورغم مشاعر الأحزان والأسى والألم لمن رحلوا من رفاق الدرب وأصدقاء العمر ، فلقد كان فى خاطر أندونيسيا سوهارتو ، حيث قتلت الملايين آلاف الشيوعيين ،

وحيث طاردتهم الجماهير حتى القبر ، ولم أكن أريد أن أكون سوهارتو ، ولم أكن أتحمل أن يكون السودان ، أندونسيا جديدة .

وبدأت المحاكمات ، واتضحت الحقائق ، حقائق كخيال ، بعضها رفضت أن أصدقه ومازلت أرفض تصديقه رغم مرور السنوات .

رفض جاويش منهم أن يجيب على أسئلة المحققين قبل أن يواجهنى ، وعندها تولى هو السؤال ، وتوليت أنا الإجابة .

قال : فلان ذلك الذى تزعم الحركة هنا تعرفه ؟

وأقول : نعم .

فيقول : ألم تكن بشخصك هنا منذ أسابيع تحتفل بترقيته ترقية استثنائية ، ولقد سمعتك أذناى وأنت تشيد به وبكفاءته ووطنيته ؟

وأوافقه على كل ما قال ، ويعود فيسألنى . . لماذا تلومنى إذن ، حين صدقت زعمه بأنه يقودنا لتخليصك من مؤامرة منكرة ، صدقت زعمه كما صدقه معى العشرات ، توزعنا على الكبارى وانتشرنا فى الطرقات وعندما ثبتت الحقيقة ، لم يكن أمامى سوى العودة لبيتى ، ولقد عدت ولقد جاءوا بى إلى هنا من هناك من شاهدنى يوم التحرك المشئوم .

وأطلق سراحه ، فلقد كان مثلى ضحية الغدر اللئيم .

ثم كان الذى تولى قيادة الحرس الجمهورى ، كان من أهل الثقة لو صح التعبير ، وكثيراً ما زارنى فى بيتى وفى مكتبى ، يبدى شكوكاً فى ثلاثة من الزملاء هم أنفسهم الذين تولوا تدبير وتنفيذ المؤامرة ، كانت شكوكه حول ميولهم الشيوعية واتصالاتهم المريبة ، وكان يضيف فى كل مرة ، أن الشيوعية إلحاد ، والإلحاد إنكار للحق ، ومن ينكر الحق فلا أمان له ، ولا أمل فيه .

ولقد لاحظت أن هناك صراعاً خفياً بينه وبين جهاز الأمن العسكرى ، كانت طلباته لتدعيم قواته تثير الشكوك وخاصة أنها قوة بطبيعة تشكيلها لا تحتاج إلى تسليح ثقيل ، كان يبرر طلبه بأنه يريد أن يشكل قوة من الممكن أن توازن أى قوة أخرى معادية ، وتوسط عندى . . فاستجبت ، ولقد كان هو نفسه الذى تولى مع قيادة المؤامرة تدبير المؤامرة مع قائد المؤامرة .

هو وحده الذى وفر له مأوى فى مأمن يستحيل أن يخطر على بال بشر . . لقد آواه فى القصر .

ثم ذلك الصديق الذى شاركنى حياتى منذ طفولتنا المبكرة ، بلغت صداقتنا حداً ارتفع فيه كل تكليف ، كان بيته بيتى ، وبيتى بيته ، يدخله فى أى وقت يشاء كان دولاب ملابسى دولاباً احتياطيا له إذا ما اضطرته الظروف للتغيب عن منزله لدواعى العمل ، وللحق كان خلال الشهور التى سبقت المؤامرة ، يواصل الليل والنهار وهو يعاوننى كمستشار اقتصادى ، كنت أجبره على الراحة فى بعض الأحيان ، وكنت آمره بالنوم لأنه يصر على مواصلة السهر لليالى

متواصلة ، ومع هذا فلقد كان شريكاً أصيلا فى المؤامرة ، وعندما سألته . كيف ؟ كانت إجابته . . إنه قرار الحزب ، وقرار الحزب فوق كل اعتبار .

وعندما سألته ، لحساب من كان يعمل معى إذن ؟ كانت الإجابة ، بأنه كان يعمل بتكليف من الحزب ولحسابه أيضاً .

ثم سلسلة من الوقائع كالخيال .

منها أن الثلاثة ، كانوا قد تبنوا داخل قيادة تجمعنا ، فكرة التوسع فى القوات المسلحة ، وطلبوا أن تكون البداية مزدوجة ، التوسع فى طلب السلاح من الاتحاد السوفيتى ، ثم التوسع فى قبول أعداد من الشباب للكلية الحربية ، بحجة أن السلاح الجديد يتطلب قيادات صغرى ، تستطيع بثقافتها أن تستوعبه أولا ، ثم تتولى تدريب الجنود عليه بعد ذلك .

وما زلت حتى اليوم لا أكاد أصل إلى يقين بالنسبة لموقف الاتحاد السوفيتى من قضية التسليح وسبب اندفاعه فى الاستجابه لكل ما طلبناه ، فى وقت كانت فيه مصر عبد الناصر ، ثم مصر فى عهد السادات ، كانت تجأر بالشكوى من تباطؤ الاتحاد السوفيتى فى إمدادها بالسلاح وهى تواجه عدواً يحتل أجزاء من أراضيها .

هل كان الاتحاد السوفيتى يريد أن يوطد علاقاته مع النظام الجديد فى السودان ، ولذلك أسرف فى العطاء ؟ أم كان الاتحاد السوفيتى

يدعم وجهة نظر الثلاثة ومن ورائهم الحزب الشيوعى السودانى لغرض مرسوم ؟

ولقد حدث هذا بالفعل ، ووافقنا على قبول دفعات جديدة للكلية الحربية ، وتولى أحد الثلاثة رئاسة لجان المعاينة والقبول ، ولقد اكتشفنا ولكن بعد فوات الأوان أن بعضاً من المقبولين كانوا كوادر فى الحزب الشيوعى السودانى ، وأن منهم من كان موظفاً وعاملا وحرفياً ، وأنه قد جرت تجاوزات صارخة بالنسبة للمؤهل الدراسى المطلوب .

ولقد كان هؤلاء ، هم طلائع التحرك يوم المؤامرة . بل إن منهم من تولى تصفية الضباط فى مجزرة بيت الضيافة .

ثم لماذا مارس الاتحاد السوفيتى بعد ذلك حملة الضغط المضادة ، حين أدى امتناعه عن تزويد السودان بقطع الغيار لأسلحته ومعداته وطائراته إلى أن تحولت جميعاً إلى أكوام من الحديد .

هل هذا هو الغضب من نتائج المؤامرة والتى أنهت أسطورة أكبر حزب شيوعى فى المنطقة ، أم هو حقد الفاشلين .

يبقى بعد قصة الغدر سماحة السودانيين ، مضت شهور وتوالت قرارات العفو عن أبطال المؤامرة ، اختزلنا أحكاماً بالسنين إلى شهور .

حتى رئيس الوزراء المقترح ، للحكومة الشيوعية التى لم تشكل ،

تم الإفراج عنه صحياً ، بل أرسل للعلاج فى الخارج ، وما زال حتى الآن هناك ، وغيره الكثيرون .

غفلة تلك أم سماحة ؟

بل ذلك هو ما تعلمناه من الرسول الكريم حيث صيحته لكفار قريش يوم الفتح .

« إذهبوا فأنتم الطلقاء »

* * *

لقد مرت حتى الآن سنوات على المؤامرة الشيوعية وما زالت هناك أسئلة بغير إجابة ، منها موقف الاتحاد السوفيتى من المؤامرة والمتآمرين .

كان ظاهرياً ضد الجناح المعارض للسلطة ، وكان واقعياً دائم الاتصال بهم . . هل كان يريد أن يحتفظ بكل الخيوط ، أم كان يشارك فى خطة للتمويه ، ذلك أنه ومازال من المستحيل تصور تحرك شيوعى للاستيلاء على السلطة ، دون أن يبارك الاتحاد السوفيتى الخطوة قبل الألف الممهدة لتحقيق هذا الهدف ، ثم لماذا تجاوز الاتحاد السوفيتى كل الأعراف الدبلوماسية حين رفض منح تأشيرة دخول لوزير الدفاع والذى كان قد حصل على دعوة رسمية لزيارة الاتحاد السوفيتى فى موعد سبق تحديده قبل المؤامرة بأكثر من ثلاثة شهور .

لماذا ماطل فى منح وزير الدفاع تأشيرة الدخول فى الخرطوم ، ووعد بمنحها فى بلجراد ، ثم أجل منحها إلى حين وصول الوزير إلى لندن ، وفى الطريق مــا بين بلجراد والخرطوم ، تمت المؤامرة فى الخرطوم .

• • • • •

الفصل الرابع

ثم كان الطريق

لماذا ماطل في منح وزير القطاع تأشيرة الدخول إلى الخرطوم ، ووعد بمنحها في بلجراد ، ثم أجل منحها إلى حين وصول الوزير إلى لندن ، وفي الطريق متنقلاً بين بلجراد والخرطوم ، تمت المؤامرة في الخرطوم .

* * * * *

[illegible]

[illegible]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ
نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى
ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ
وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

ثم كان الطريق

كانت نهاية الغدر بداية .

بداية تجاوزت ما قبلها ، حتى ما كان يوم الزحف ليلة ذكرى مولد الهدى ، كانت المطامح نبيلة ، وكان الدرب فى وضوح اليقين .

الأهداف تبلورت فى دراسات .

والخطوات تحددت فى دقة .

والمراحل ما المراحل . . ؟ سوف نقتحم الداء فى مكمنه ، ولن يطول بنا الانتظار ليرفع راية التسليم ، فها هو المطلوب قد تحقق .

الناس تعيش فى فرقة وهى تدرك أبعادها ومضاعفاتها وتئن من ثقلها الضاغط على حاضرها ومستقبلها .

الناس هم الحكم :

تمتلئ مجالسهم بكل ما يمتلئ به الصدر من آلام يتحدثون عن الطائفية

يتحدثون عن الحزبية ، يتحدثون عن لعبة الكراسى الوزارية ، والبرلمانية ، يتحدثون عن المطامع والصفقات والمناورات التى تقيم حكومة وتسقط حكومة بين ليلة وضحاها ، يتحدثون عن ضغوط من الخارج وتحالفات من الداخل ونفوذ أجنبى يبسط ظله الأسود وتتضح بصماته وراء كل خلاف أو ائتلاف ، يتحدثون عما يسمعونه بفرق الكبار وهم لا يفهمون منه شيئاً .

حديث عن القومية وحديث عن الأممية ، وحديث عن الارتباط بالشرق أو الارتباط بالغرب ، وعن دورهم فى تحقيق التوازن الدولى ومكانهم الحالى فى مشاريع ملأ الفراغ فى المنطقة ، يتحدثون عما يسمعون ويقارنون حياتهم .

هم ينتمون لوطن تحددت حدوده السياسية ، من نمولى إلى حلفا ، ومن الجنينه إلى البحر الأحمر ، ولكن ماذا يجرى وراء تلك الحدود ؟ هل اتحدت مشاعرهم ، هل تداخلت صفوفهم ، هل توحدت كلمتهم على هدف بناء هذا الكيان الشامخ العملاق ؟

هم يودعون فى كل يوم شهيدا من الجنوب ومن الشمال ، وكلاهما ضحية ، فمن هو العدو ؟

الشهيد والشهيد يظللهم علم واحد ، وينتمون لكيان واحد ، ولكنهم يتواجهون ويسقطون ، فكيف يستقيم هذا المنطق مع وحدة الوطن ووحدة التراب ووحدة المصير ؟

يتحدثون فى الجنوب عن الشمال بحسرة .

ويتحدثون فى الشمال عن الجنوب بأسى .

ويتذكرون الاستعمار حينما فرض سياسة المناطق المقفولة ، كان الطريق بينهما مغلقاً بإرادة الأجنبى القاهر ، كان الاتصال بينهما محرماً لأن الاستعمار أراد وكان يملك أن يحقق إرادته ، والآن وقد رحل الاستعمار وتحررت الإرادة ، من الذى أغلق الطريق بالدم والنار وأحال شوق اللقاء بين إخوة إلى صدام دامى أرهق الأيـــام والشهور والسنين ، وكأنه يستمد وجوده من براكين أحقاد لا تفنى .

أعلن الاستقلال ، فبدأ النزيف القاتل ، وتوالت حكومات ما بعد الاستقلال ، والنار هى النار لا تزيد إلا اشتعالا .

انشغل به الناس ، فلما أزمن ، أدمن الناس المرارة ، كمن يصبر على الداء فى جسد موعود بالهلاك .

فى البداية ، كانت قضية الجنوب تتصدر برامج الحكومات حين تقبل وحين يأفل نجمها وفى معظم الحالات بعد شهور أو أسابيع ، وكان الناس يقارنون حماسة البداية واهتمامات النهاية ، فيجدون دوماً أن الجنوب كان هو القضية فى الساعات الأولى فحسب فى عمر الحكومة ، وأن ساعتها الثانية حتى ساعتها الأخيرة ، كان الجنوب يغيب من ذاكرتها المرهفة فلا تتذكره إلا إذا عادت من جديد .

والمعارضة ، وكانت دائماً هى حكومة الأمس أو حكومة الغد ،

كان الجنوب شاغلها ، تناقش تفاصيل القضية ، تقترح الحلول وتحدد الخطوات ، تجرى اتصالات ، تقيم مؤتمرات ، وتظل شعلة حماس حتى يحين الحين ويأتى دورها لتأخذ مكانها الموقوت وتقبض على زمام السلطة ، وقتها تنسى كل ما وعدت وتتجاهل كل ما قطعته على نفسها من عهود ، ولأن الناس هم الناس ، لا تتغير جلودهم باختلاف مواقعهم ، فلقد أدت دورة الحماس وخمود الحماس ، والوعود ونكص الوعود ، إلى يأس الجميع من تحرك جدى تقوم به حكومة أى حكومة لوضع حل كامل لقضية النار والدم .

وأجهزة الإعلام . . ماذا قدمت . ؟

كان لهب الصراع الساخن فى العاصمة بين الأحزاب يغنيها عن أية إثارة يمكن أن تجدها فى دراما الدم المنزوف فى الجنوب ، تشاغلت عن قضية الوطن إلى قضية الدولة ، وانشغلت عن قضية الوحدة بقضايا الانقسام .

كان الناس هم الحكم :

فقد كانوا فى مجالسهم يتحدثون عن أن جرح الجنوب ليس جرحاً كاملاً ، وإنما هو مقدمات لجراح أفدح .

هم يذكرون الجدود .

فاتصال الأنساب وتتابع الأجيال ، ليست أوصال الـدم تحملها

العروق ، هى ذلك التيار المتصل الذى تتوارثه الأجيال ، فتنتقل عبره القيم والأفكار والتاريخ .

تاريخ أجدادهم ، هو مجـــد حاضرهم عبره يقارنون الحاضر بالماضى ، وعبره يقيسون قدرتهم على صنع المستقبل ، وجدودهم هم من جاهدوا فى كررى وشيكان ، فى سنكات وقباب ، فى دارفور وكردفان وبحر الغزال ومديرية خط الاستواء ، أجدادهم هم الذين أسقطوا مر تكريف فى الشرق ، فى نفس اليوم الذى اندحرت فيه حملة هكس فى الغرب .

أجدادهم هم بناة القومية السودانية والذين صاغوا بالدم والتضحيات والمبادرة والقناعة والإيمان وحدة الأمة السودانية .

أجدادهم هم هؤلاء ، فأين ماضيهم من حاضرهم . . ؟ أين من يعيشون فى ظله فرقة ، مما عاشه السلف العظيم من صياغة للوحدة ودفاع عن الوحدة وتأكيد للتواصل والتكامل والتجانس للكيان السودانى الواحد من الشرق للجنوب ، من الغرب للشمال .

لقد توحد جدودهم حول فكرة جسدها بطل ، وتفرقوا بغير ما هدف حينما فرقت المطامع قيادتهم .

كان الناس هم الحكم :

لأنهم أدركوا أن للداء ألف علة ، فصراعات القيادات أصبحت صراعات طوائف ، ثم أصبحت صراعات مناطق ، ثم أفرزت بؤراً

تتفجر منها مخاطر الانفصام ، فلم تكن الطائفية اجتهادات فكر يتفاعل بالحوار ، وإنما تحولت إلى مناطق نفوذ تتسع بأتباعها وتنفصم بأتباعها ، فيلتقى الناس على مواجهات وصراع ، ولأن الطائفية بالأتباع لا الفكر ، فإن الأتباع فى مناطقهم ، يتواجهون مع الأتباع ومناطقهم ، فتطعمت الطائفية بالإقليمية ، وتفرع منها وصب فيها ما يعززها من اختلافات العروق ، ولأن الأحزاب كانت واجهة للطوائف فإنها كانت طرفاً فى كل صراع ، بل محركاً لكل صراع ، وهكذا أضيف البعد السياسى ليبرر النزعة الإقليمية وتدعمها النزعة العرقية وتعيش عليها .

كان الناس هم الحكم :

لأنهم فى مجالسهم كانوا يلمسون وقــود الفتنة ينساب من منابع التخلف ليزداد اشتعالا بالإهمال .

حكومات ما بعد الاستقلال تتوالى ، والفوارق بين المدن والأقاليم تتسع ، والناس فى بعض المناطق جوعى ، والناس فى بعض المناطق عطشى ، والناس فى بعض المناطق تخلفت الحياة بهم إلى ما كان قبل التاريخ الإنسانى المكتوب ، ولأن المدن كانت واجهــات زائفة لواقع ظالم ، فقد انجذب المحرومون إليهــا بغير سند ، فما وجدوا فيها غير الظلم والفاقة .

وهكذا عاشت الأقاليم بسكانها ظلم التخلف ، وعاشت الأقاليم بمشاعرها مظالم من هاجر منها وارتد إليها وهو لا يشعر بأمان الانتماء إليها .

كان الناس هم الحكم

وهم يتابعون إيقاع الزمن يصنع التقدم على مرأى العين والأذن منهم ، يقوم السد العالى فى مصر ، تنبت الأرض فيها آلاف المصانع ، وبلادهم ومصر كانوا مع الاستقلال على موعد واحد ، بل إن الاستقلال كأجنبى يرحل ، إنما سبق فى بلادهم مصر بشهور وشهور ، ومع ذلك فلا طريقاً معبداً واحداً ، ولا مشروعاً إنتاجياً له قيمة ، لا زراعة تطورت ، ولا صناعة قامت ، إلا مصنعاً للكرتون فى الشرق لا ينتج ،ومصانع لتعليب الفواكه فى الجنوب والشمال لا تعطى ، ومصنعاً لمنتجات الألبان فى الغرب ثبت فشله قبل أن تفتح أبوابه .

مصنعان للسكر بطاقة إنتاجية محدودة ، هما عطاء كل سنوات الاستقلال ، منذ أن ارتفعت الراية قبل ما يقارب العشرين عاماً ، وحتى حينما لاحت فى الأفق بوارق أمل بإنجاز له قيمة ، تدخلت المزايدات تغتال الأمل ، تقدمت دولة أجنبية بمشروع إنشاء طريق ، فترنح المشروع سبع سنوات طويلة ، حين صوره البعض قاعدة لهبوط طائرات أجنبية ، واستكان الضعف لذلك التصور المشبوه وظل مشروع الطريق مشروعاً ، أنجز بعضه وبقى أغلبه ، وعلا الصدأ معدات تراكمت لإنشائه .

وبين المزايدة والضعف ، أفلتت فرصة نادرة كان من الممكن أن يسبق بها السودان غيره فى مجالات الاتصالات .

مشروع لبناء محطة أرضية للأقمار الصناعية ، تبخر تحت ضغوط المزايدة ، وتوارى خجلا من ضعف الحكومات ، صوره البعض

وكرا للتجسس ، ورأى فيه البعض ترفا لا يطاق ، وضاعت على الناس سنوات ، فى بلد شريان الحياة فيه كل ما يمكن أن يسهل الانتقال والاتصال .

كان الناس هم الحكم

وقـد ضاقوا بقهر يتخفى بضلالة الليبراليـة ، بزيف يتستر بثوب الديمقراطية ، هم يعرفون اللعبة وهم يتابعونها بغير مبالاة ، أصوات يشتريها المال ، وأصوات يشتريها التضليل ، وأصوات يشتريها ما هو أخطر ، نزعات عنصرية وقبلية وطائفية وإقليمية ، وكأن موسم الانتخابات هو موسم إعلان الحرب بين الناس .

حكومات تشرف على الانتخابات ، وهدفها الأول والأخير أن تبقى .

أحزاب تخوض الانتخابات وهى لا ترى فيها إلا وسيلة لغاية ، وبين المتشبثين والمتربصين ، كـانت مواسم الانتخابات مسرحاً تتنوع عليه المشاهد .

قرى تتدفق عليها الأخشاب والأنابيب وقليل القليل من مواد البناء ، دليل لا يقبل الشك ، على أن الحكومة على وشك البدء فى حفر البئر وبناء المدرسة وإقامـة المستشفى ، وهى لا تستطيع أن تحدد موعد البداية كما أنها لا تضمن اكتمال التنفيذ ، فالانتخابات على الأبواب ، وخلف الأبواب أحزاب تتربص بقريتهم ، فهى أحزاب منحازة لقرى أخـرى ومناطق أخرى تدعى أنها أولى بالبئر والمدرسة

والمستشفى ، والأمر فى البداية والنهاية لهم ، وموعدهم مع صناديق الانتخابات قريب .

ما يثير الألم فى الناس أن الوعود باطلة ، كما أن نتائجها خطيرة .

هى تصوير لحق الناس وكأنه منحة ، وهو تهديد سافر للناس فى أمس احتياجاتهم ، وهو تحريض للناس ضد الناس ، قرية أخذت وقرية متأهبة للانقضاض عليها ، منطقة نالت ، ومنطقة موعودة بانتزاعه منها .

ثم إن الناس قد عرفت بالتجربة أن المشهد الهازل هو مشهد هازل من بدايته لنهايته ، فالأيام تجرى والانتخابات تجرى والنتائج تعلن ، وحكومة تبقى أو حكومة تأتى ، والأخشاب والأنابيب والقليل من مواد البناء تبقى فى أماكنها ، لا يضاف إليها ، وإنما يأخذ منها الزمن والإهمال لتبقى بقاياها دليل على أن الخديعة لا تثمر إلا الخداع ، وإذا كانت الحكومة بما تملك تستطيع أن تخدع ، فإن المعارضة بما لا تملك تستطيع أن تبيع الوعود ، وعود تصل إلى بناء جسر يعبر البحر من بورسودان إلى جـــدة ، فهل يجدى بعد ذلك ضرب الأمثال . ؟

كان الناس هم الحكم

لأنهم ضاقوا بخلاف كل يوم ، وائتلاف كل ساعة ، ومزايدات كل طامع ، وهم لا يشهدون إلا شعارات تصادمها شعارات .

لأنهم تمردوا على واقع بلادهم المرير ، كيان يتصل بأفريقيا والعالم

العربى ، كيان ينفرد بتنوع الثقافات فيه ، كيان يتميز بأنه الأكبر والأقدر على الإسهام الفعال فى قضايا القارة والعالم العربى والساحة الدولية ، ومع ذلك وبعجز الصراعات داخله ، اصطلح العالم على تسميته **برجل أفريقيا المريض** .

* * *

ولئن كان ذلك هو وعى الناس بما يعيشون . . فما أسهل الطريق لاقتلاع الداء من جذور الجذور .

يكفى أن يعلو صوت الوحدة على صوت الفرقة ، يكفى أن يعلو صوت الحكمة على أصوات المزايدة ، يكفى أن نتجه فوراً إلى ساحة البناء .

كان ذلك هو مبعث الأمل ، يوم الزحف ليلة ذكرى مولد الهدى ، ولكننا وعلى مشارف الطريق ، كنا أبعد ما نكون عن الطريق .

* * *

كان (التحليل العلمى) قد انتهى من تصنيفنا ومنذ يومنا الأول ، كبرجوازية صغيرة مترددة غير قادرة على تحديد انحيازها الطبقى ، فهى بطبيعة تكوينها انتهازية الفكر والمنهج .

كان (التحليل العلمى) قد صدمه وجودنا ومنذ يومنا الأول ، على أساس أن ما أقدمنا عليه إنما هو تجاوز للمراحل أو هو حسب

التعبير المتداول بين أصحابه ، حرق للمراحل ، فقد فاجأنا التجربة الثورية قبل نضجها ، وأسهمنا مدفوعين (كعملاء) فى دفع مسيرة الثورة الحقيقية إلى الوراء ، أو أننا اندفعنا (كغافلين) نتحدى التطور الحتمى للتاريخ ، وسواء كنا عملاء أو غافلين ، فلقد أصبحنا حقيقة واقعة ينبغى التعامل معها لتحقيق أهداف وأهداف بديلة (تكتيك) متغيرة وفى إطار (استراتيجية) ثابتة .

كانت (الاستراتيجية) بالطبع هى الاستيلاء على السلطة ، وكان (التكتيك) متعدد الأوجه ، وكان لهم بيننا من يعرفون ولا نعرف أنهم يرتبطون بهم فكرياً وعقائدياً وتنظيمياً ، وهؤلاء ملتزمون بالطبع بالاستراتيجية ، كما أنهم مكلفون بوجه أو آخر من أوجه (التكتيك) .

وبدأت محاولات الاحتواء وفشلت ، وانتهت إلى ما انتهت إليه ، إلا أنه وفى خط مواز لمحاولة الاحتواء ، كان يجرى تنفيذ مخطط خبيث يستهدف أن نكون رأس رمح للصدام مع القوى التقليدية ، صدام من المحتم أن تكون نتائجه حسب التحليل العلمى ، وهو إنهاك القوى التقليدية وإنهاكنا ، بحيث ينتهى الأمر ، وقد خلت الساحة من كل القوى التى يمكن أن تعرقل استيلاءهم على السلطة . وبهذا يتحقق بنا الدور الذى يحتفظون به دائماً (للمغفل النافع) . أن يكون منه الجهد وعليه الغرم ولهم الغنيمة .

ولهذا فإنه وبجهد غيرهم ومهما كانت تضحياته والتى تصل إلى إنهاء وجوده ، فتخلو الساحة لهم ، من كل ما يمكن أن يوازن ثقلهم

الحقيق المحدود والمحدود للغاية ، وفى تلك الحالة فليسقط (الجمود الفكرى) ، وليسقط (حفظة النصوص) ، ولتسقط (اليسارية الطفولية) ، ويسقط مع هؤلاء جميعاً كل ما يلوكونه حول ضرورة نضج التجربة الثورية ، وعدم تجاوز المراحل والصبر الطويل الطويل على التطور الطبيعى والبطء للمجتمع حتى يصل إلى غايته ، بتبلور الطبقات ، ثم صراع الطبقات ثم حتمية النصر (للبروليتاريا) والتى قد تجىء وقد لا تجىء لظروف محلية وإقليمية ودولية ، ورواسب غيبية وقدرة غير محدودة للطبقات المستغلة ، واستكانة موروثة من جانب الطبقة المقهورة ، بالإضافة إلى أن النمو الطبقى لن يسير فى الخط المطلوب ، فالبنية الاقتصادية غير قادرة على المدى المنظور ، لتحمل قاعدة صناعية ضخمة ، وإنما هى مؤهلة موضوعياً للزراعة ، إذن فهم سيواجهون الإقطاع ولن يواجهوا الرأسمالية ، لن تكون القاعدة الأكبر للعمال وإنما للمزارعين ، وهم ما يعرفون من (التراث) أن حسهم الثورى ليس فى مستوى المطلوب ، كما أنهم هم (الكولاك) الذين حاولوا عرقلة مسيرة الثورة الأم ، فسحقتهم الثورة الأم ، وقتلت منهم عشرات الآلاف .

وعلى هذا الطريق تحركوا منذ تحركنا ليلة ذكرى مولد الهدى ، وفى إطار مخطط لا ينقصه الذكاء .

حرضوا القيادات التقليدية على التمرد ، تحت شعار استعادة الديمقراطية الليبرالية بحسبانها ساحة كانوا يتنفسون فيها وتوفر لهم قدراً من الحركة يتناسب مع حجمهم الذى يعترفون أنه محدود .

ثم تحركوا من خلال عناصرهم المدسوسة علينا ، بتضخيم خطر القيادات التقليدية ، ثم استفزازها ودفعها للصدام .

وفى الوقت الذى كانت منشوراتهم تهاجم النظام الجديد وتحليلاتهم تتنبأ بسقوطه ونداءاتهم الساخرة تدعو للانقضاض عليه ، وكانت راياتهم الحمراء تتصدر مواكبنا ، كانت شعاراتهم الجوفاء وتعبيراتهم المعروفة تنسب إلينا ، وهكذا ظهرنا كأننا نريدهم وهم لا يريدون ، وأننا نزايد عليهم وهم المتحفظون ، وكأننا نندفع فى طريق هو طريقهم ، ولكنهم يرون أن ذلك فى غير (زمانه) إنما هو طريق التهور والجنون .

ولهذا فسرعان ما ظنت القيادات التقليدية أنها تستطيع تحالفاً معهم أو حتى حياداً من جانبهم ، أن تصفى حساباتها معنا قبل أن يستفحل الخطر ، وتتحول أهدافنا إلى حقيقة واقعة ، تقتلع نفوذها إلى الأبد . هكذا تسارعت القيادات التقليدية ، **فهاجمت ودافعنا .**

ومع استقرار الأمر لنا رغم الهجمة ، فإن شعار تلك الفئة قد تزايد ، فها نحن قد حققنا لها هدفها وخلت الساحة من خصم عنيد .

هكذا خططوا ، هكذا نفذوا ، هكذا كان الغدر مخططاً ومدروساً ، وبين التصدى للمؤامرات والمناورات وتكتل كل القوى والتصدى لهجماتها وتصفية الغريب فينا ثم الغدر ، كان وقتاً ثميناً قد مضى دون أن نتقدم خطوة واحدة على طريق تحقيق أهدافنا ، باستثناء

ما أعلناه من عزم على معالجة قضية الجنوب على أسس جديدة وما عدا ذلك فلقد كان الناس أسبق .

وعدناهم فشيدوا المدارس والمستشفيات والمرافق ، تبرعوا بما ليس فائضاً عن حاجاتهم ، أسهموا بما يفوق قدراتهم وطاقاتهم ، وانتظروا منا بعد ذلك خطوات تلاحق خطاهم إلا أننا فى مخاض البداية كنا لا نزال على مشارف الطريق .

* * *

وفى الجانب الآخر كان تجمعنا محكوماً بما اتفقنا عليه قبل الزحف ليلة ذكرى مولد الهدى ، أن يخضع ما لا يتفق عليه إجماعنا للأغلبية وبالتصويت .

أما قيادة التجمع ، فلقد كانت قيادة لاجتماعاته ، وليست صياغة لقراراته ، ليس لها إلا صوت واحد هو صوت صاحبها ، ولقد كان نظرياً هو صاحب الصوت المرجح فى حالة تعادل عدد المؤيدين والمعارضين لأى قرار ، إلا أن ذلك عملياً لم يكن وارداً ، فأعضاء التجمع بقيادتهم تسعة ، الأمر الذى يستحيل معه حتى فى حالة الانقسام الحاد إلا أن يكون خمسة فى جانب ، وأربعة فى جانب آخر ، فليس فينا كبشر من يقبل القسمة .

كانت الأغلبية تقرر ، وكانت الأقلية ترضخ ولو كانت القيادة قد صوتت معهم ، ولقد كان ذلك مقبولا ومرضياً فى الأسابيع

الأولى ومهام التجمع لم تكن مهاماً تنفيذية وإنما هى تخطيطية ، يتولى مجلس الوزراء تنفيذها ، إلا أن الأمور جرت بعد ذلك إلى منحدر سحيق .

كان من انضم إلينا ، وهو ينتمى بولائه وفكره لغيرنا ينجح فى بعض الأحيان فى استقطاب رأى الأغلبية لا لسلامة منطقه ، وإنما بفعل تأثير مخطط يمارس فى الخارج ، لينعكس فى الداخل حيث نجتمع .

كان هناك من ينقل من الداخل إلى الخارج تفاصيل ما سيطرح على تجمعنا ، فيتخذ بشأنه ودائماً قرارات التطرف ، حيث يتبناها من هو مدسوس علينا ، ولضمان إجازتها فلابد من استقطاب الأغلبية ، ليس بالحوار والنقاش وإنما عن طريق مخطط ومدروس .

تبدأ بشعارات ترفعها تجمعات وتنظيمات فى الخارج وهى شعارات تتفق مع القرار المطلوب .

تبدأ بمواكب وتظاهرات تندس وسط الناس ، وتعلو أصواتها وفى تنظيم محكم ، فتبدو وكأنها تعبير عن رأى كل الناس فيما ينبغى عمله وفيما ينبغى أن ينتهى إليه القرار .

ولقد كان لهذا تأثيره بالطبع على الأغلبية داخل تجمعنا ، ورغم أن هذه الظاهرة تكررت ، إلا أن الانتباه لها لم يأت إلا متأخراً ، ولقد كان ذلك وراء خروج من اندس علينا وانضم إلى تجمعنا .

وقد تداخلت هذه المرحلة مع مرحلة أخرى شاركنا فيها السلطة

التنفيذية ، بعد إعلان من أعلن أن ما قمنا به لم يكن ليقوم لولا فئة لها فكرها وعقيدتها ونضالها أيضاً ، ولقد صرح ما صرح به فى إحدى العواصم الأوروبية الشرقية لو تذكرون ؟

فى تلك المرحلة التى شاركنا فيها السلطة التنفيذية ، لم يكن هناك مجال لجماعية القرار فيما يتخذ تنفيذه ، كانت الأغلبية تتخذ القرار ، إلا أن تنفيذه كان مسئولية من يتولى تنفيذه ، ولأن أسلوب التنفيذ هو الذى يحدد الهدف ، فقد أحاط بكل منا سيل من الضغوط ومن جانب نفس الفئة وبذات التخطيط .

استخدموا العلاقات الشخصية ، استخدموا ضغوط التجمعات الفئوية والمهنية ، استخدموا الصوت العالى فى المواكب والمسيرات ، وللحق فلقد تأثر الجميع بهذا الأسلوب المدروس للضغط مع اختلاف الدرجة ، ولقد كان ذلك كله مبرراً ــ لطبيعة الظروف التى تشكل فيها تجمعنا ، جماعية القيادة ، وهى قيادة محدودة يسهل التأثير فيها ، عن طريق استقطاب الأغلبية بمختلف الوسائل ، غياب سلطة متابعة التنفيذ لنفس السبب ، عدم قابلية القرار للمراجعة من جانب أى سلطة .

إلى أن كان يوم الغدر . . يوم النصر وكانت لى وقفة .

اختلف منظور الرؤية بينى وبين الناس من حولى وكأنها تلك

الساعات ، من عصر الإثنين إلى عصر الخميس كانت فيصلا بين ما كنت أظنه وبين قناعات جديدة .

كان الظن قبل الإثنين وقبل أن تصل أمواج التآمر إلى شواطىء الغدر ، يكفى أن تكون قناعة الناس هى التى تدفع أية قيادة لتحمل المسئولية ، فإذا بمطامحها والتى هى بلورة لقناعة الناس ، قد أصبحت واقعاً وحقيقة ، إلا أن يوم الخميس كان فجراً جديداً .

كانت الجماهير التى بادرت بغير قيادة لتستعيد قيادتها قد أرست فى وجـــدانى قناعات جديدة ، إنه لا يكفى لتحقيق المطامح ومهما كان نبل المطامح ولو كانت هى قناعات الناس جميعاً ، وإنما تتحقق كل الأهداف ومهما كانت مصاعبها بمشاركة الناس جميعاً ، فما كان قبل الغدر إنما كان مطامح أجمع الناس عليها ، وأهدافاً آمن الناس بها ، وغايات طالما تطلعوا إليها ، كانت مساندة الناس فى البداية إذن ناتجة من تطابق فى الهدف ، ولكن ماهى الوسائل المطلوبة لتحقيقه . . ؟

هل تتمثل فى طليعة تعبر عن تطلعات الناس بحيث تكون هى البديل الذى يغنى عن مشاركة الناس فيما تقرر ، وفيما تنفذ ، وفيما تتابع ؟ لو كان ذلك صحيحاً لما جرى ما جرى ، اختلفت الطليعة باختلاف الولاء ، فما احتكمت إلا لنفسها .

جانب منهم احتكم إلى الإجماع ، وجانب منهم خرج على

الإجماع واختار التآمر طريقه وسبيله ، ولو كان الناس بينهم ، لكان إجماع الناس هو مرفأ الأمان ضد الغدر والتآمر .

يوم أن اندحر الغدر ، من الذى حقق الانتصار عليه ، هل هى الطليعة التى فاجأها الغدر ، فإذا بها فى قبضته لا تملك من أمرها شيئاً ؟ أم كانوا هم الناس وبغير قيادة ، هم الذين استعادوا طليعتهم ؟

يومها ، ربما على أسوار القصر ، يومها ، ربما فى حمى الناس ، يومها كانت القناعة بأن إجماع الناس وحده هو السبيل المتاح والطريق الأوحد والخيار الذى يتراجع أمامه كل اختيار .

كان من حولى ، من يرون أن ما حدث ، إنما هو تفويض من الناس وبمحض إرادتهم لتكون السلطات كل السلطات لى وحدى لأقود خطاهم على طريق تحقيق أهدافهم ، وكانت قناعتى ، أن ما حدث إنما هو تأكيد بأن السلطة كل السلطة إنما هى سلطة الناس ، هى لهم يوم انتزعوها من القهر ، وما أنا إلا رمزاً أرادوه تجسيداً لتلك الإرادة .

كان من حولى يرون أن ما حدث وبغض النظر عن نتائجه ، إنما يعنى أنه رغم تركيز السلطات ، فلقد كان الخطر يمشى فى ركاب الحذر حتى تفجر وإنه مع الظروف الجديدة ، فإن ساحات أوسع من الخطر سوف تطل برأسها من جديد .

منها ساحة دولية انفتح جانب منها بالعداء للسودان لأن فى السودان

شعباً أفسد فى الدقيقة الأولى عهداً أرادته قانياً بلون الدم ، فإذا به يسترد عهده ليكون أبيض بلون الصفاء ، وليس غير لون الدم راية لبسط نفوذهم فى منطقة يقع السودان فى موقع القلب منها .

وأقول : ذلك أدعى لأن تكون السلطة للناس ، فما لم يستطع أن يوفره فرد من ضمان الأمان لشخصه ، فإنه ومهما كانت السلطات له ، سوف يعجز عن توفير الأمان لقومه ، وإذا ما حرك الناس للانتصار لقيادتهم دافع ولاء ، فإن نفس الناس ، سيتحركون للانتصار لأنفسهم بدوافع الوفـــاء .

كان من حولى يرون أن مساحة من الزمن مطلوبة بين ما جرى وبعده أية خطوات لدعوة الناس لتشارك .

فإن إجابتى كانت واضحة وقاطعة ، بل الآن وفوراً ، ولقد راجعونى فى أمر استفتاء الناس فى أمر قيادتهم باعتبار أن نتائجه ومهما كانت فإنها ستظل دون ما حدث ، وأن كلمة مسموعة يصوغها الإجماع تقول نعم ولو بلغت عنان السماء ، ستكون دون الإجماع ، الذى تحدى القهر وبذل الروح والدم فى سبيل استعادة قيادته .

وأواجه هذا المنطق بما يستحقه ، فما بذله الناس يفرض ضرورة الرجوع إليهم ، ليؤكدوا العمل بالقول ، وإن كان فى غير ظروفهم ، يؤكدون القول بالعمل ، ثم من ذلك الذى يمكن أن يقرر للناس ونيابة عنهم ، حتى لو كان دليله بطولاتهم ، أليس هناك احتمال مهما ضعف ، أن تكون مبادرة الناس ولو أقل القليل منها ،

كان رفضاً لمن غدر ، بأكثر منه تمسكاً بمن وقع فى أسره .

أليس من حق الناس وحق ، أن تتاح لهم فرصة الاختيار ليختاروا ، يكون لى فرصة اليقين فأتأكد .

وكان الاستفتاء على تولى أمر الناس .

قبل ذلك مباشرة ، أطلت من جديد بوادر أزمة .

اتجه بعض أصحاب الغرض ، إلى أشقاء وإخوة ليقولوا لهم إذا لم يكن هناك بد من الرجوع للناس ، فلايرجع إليهم وحده . يرجع إليهم معه واحد منكم ، حتى يكتسب بالإجماع شرعية كشرعيته ، وصلاحيات كصلاحيته ، ذلك هو الضمان حتى لا تغيب شمسكم بعد أن يستعين على أمور الناس بالناس فلا يرجع إليكم ، ولا يأخذ بما قد ترون .

ولقد كانوا أشقاء وفاء فرفضوا ، واستمعت منهم إلى ما استمعوا إليه ، وكانت تلك فرصة وقبل فوات الأوان لتوضيح معالم الطريق الجديد .

كانت رؤيتى ، أن الغد ليس كالأمس ، وأن الرجوع إلى الناس ، لا يعنى انفراداً بسلطة ، لا لفرد ولا لمجموعة من الأفراد ، وأن كلمة الناس لو جاءت نعم ، فإنها ستكون نعم لسلطة المؤسسات خطوة على طريق سلطة الناس جميعاً فى مرحلة لا أراها منذ الآن بعيدة ، وأن من يجمع عليه الناس ، ليس فرداً بقدر ما هو رمز ، رمز لوحدة الناس وإرادتهم ، وهى وحدة وإرادة تتأكد عبر مؤسسات دستورية

وسياسية وأخرى تنفيذية ، وأن الغد ليس كالأمس ولا يمكن أن يكون .

ليس هناك مجال للاختلاف فى إطار المؤسسات ، فلا خلاف بين المؤسسات إلا وهى فى مرحلة انهيارها ، ليس هناك انفراد بقرار ، ولا اجتهاد برأى مهما كان موقع صاحبه ومهما كان من بريق دور تاريخى تشرف بالقيام به .

وكما كانوا وفاءاً ، كانوا تفهماً وقبولا .

إلا أن التجربة سرعان ما هزت اليقين ، قال الناس كلمتهم ، وعبرها قامت المؤسسات ، تشكل مجلس جديد للوزراء ، ثم انتخاب مجلس شعب تأسيسى ، مهمته الأولى وضع الدستور الدائم للبلاد ، تشكلت لجنة تمهيدية لوضع تصور لقيام تنظيم سياسى شامل . . وبدأت العجلة تدور . . ومعها بدأت تجاوزات الأشقاء .

نبهت وراجعت .

حذرت وأنذرت .

واستعنت بعبر ما كان ليكون هادياً لما ينبغى أن يكون ، كانوا جميعاً قد احتلوا مواقع مع غيرهم ، حيث يحكم عمل الجميع القانون ، بما يمنع التداخل ، وبما يمنع التضارب .

وفى صباح باكر ، قبل أن يكتمل شروق الشمس وتدب فى

الأرض الحياة ، كان واحد منهم على بابى ، دهشت لمقدمه ، ثم عجبت لما يقوله ، ثم غضبت لما يطلبه .

بدأ الحديث بمسئولية الجميع وخاصة هؤلاء الذين تحملوا مخاض البداية ، وتحدث مطولا عن المبادىء والأهداف واستفاض فى الحديث عن العالم الواسع ، الذى نعيش فيه وكيف يختلط الخبيث بالطيب ، وأن من يحكم عالمنا المعاصر إنما هى شبكة مخابرات عالمية ، لها عملاؤها فى كل الدول وفى كل المواقع ، حتى مواقع المسئولية الكبرى ، ولأننى لم أفهم ، فقد استفسرت عما يقصد ، تردد ثم أشار إلى أسماء اثنين من الوزراء زملائه ، مؤكداً تأكده من معلومات مؤكدة بأنهما عملاء لشبكة المخابرات العالمية ذات الشهرة الواسعة ، ثم طلب بعد ذلك إعفاءهما من تحمل المسئولية معاً .

كان الاتهام بغير دليل غير ما سمع ، ويعلم الله ممن سمع وما هى أهدافه وأغراضه فيما نقل إليه .

وكان الطلب تجاوزاً لما اتفقنا عليه قبل أن يقول الناس كلمتهم ثم خروجاً على ما أجمع الناس ، عندما حددوا مسئولية المسئول أمامهم ، وكانت تلك عودة لما كان قبل الغدر حيث كانت الصلاحيات متوازية والاختصاصات متداخلة .

وأعدت عليه هذا كله ، وسألته قاصداً أن يحدد موقفه مما طلب بعد أن سمع منى ما سمع ، وحين أصر على مطلبه ، لم يكن هناك مفر من إعفائه هو من تحمل المسئولية .

هل كان هذا هو السبيل الوحيد .

نعم . . رغم تعدد الخيارات ، كان هناك إمكانية إقناعه ببطلان ما سمع ، كان هناك إمكانية تجاهل طلبه أو المساومة والتسويف فيه ، كان من الممكن الاستعانة بالأقربين إليه ، كان متاحاً رفض طلبه مع استمراره فى تحمل المسئولية ، إلا أن ذلك لم يكن متاحاً إذ كنت حريصاً على إقرار المبدأ ، كانت السابقة خطيرة بحسبانها عودة إلى أسلوب كانت الظروف تبرر وجوده ، وقد انتفت تلك الظروف بشرعية السلطة التى صاغها إجماع الناس . كان ما حدث يعنى أن حلقات جديدة بدأت تلتف حوله لتحقيق أغراضها أو ممارسة أحقادها على طريقه . كان ما حدث يعنى إسقاط كل المؤسسات بتجريدها من دورها فى المتابعة والحساب ، كان ذلك وفى مجمل الأمر ، إنما يعنى تمركز رهيب للسلطة فى فرد واحد ، هو الذى يفهم ، وهو الذى يصدر الأحكام .

كان الأمر فى جانب منه ، أن هناك داخل المؤسسة التنفيذية من لا يتوازى مع غيره داخلها ، وإنما يضع نفسه فى موقع الوصاية والحساب والعقاب ، على أساس دور كان ، وتاريخ مضى .

كان هذا يعنى ، وفى جانب منه ، الإقرار بازدواجية السلطة ، وتدرج المسئولية فى المستوى الواحد ، فهناك من هم بالتاريخ أعلى ، وهناك من هم الأدنى ، رغم توازى المسئوليات والصلاحيات والسلطات ، لهذا كان القرار بإعفائه .

وحينما تضامن معه بعض أشقائه وأشقائى ، أدركت وقتها ، أننى اتخذت القرار الصحيح .

وقد مضت سنوات قبل أن يعودوا ، ولكنهم عادوا وقد علمتهم التجربة ، أن الدور التاريخى أكبر من كل المواقع ، إلا أنه شرفاً وليس امتيازاً .

وعلى طريق ما بعد الغدر ، وسلطة الناس ، وعهد المؤسسات تتابعت الخطوات .

* * *

الناس . . كيف تتحول حقوقهم من شعارات إلى واقع ، كيف يتبلور وجودهم الفاعل داخل المؤسسات . . ؟ خطوة على طريق هدف آخر يكون فيه الناس هم المؤسسات .

كيف نصوغ وحدة الفكر فيهم ؟ وهل يكفى لتحقيق ذلك أن نكثف الدعوة للوحدة والدعاية لهـــا .

كيف يصون الناس وحدتهم ؟ . كيف يحمى الناس مكاسبهم ؟ كيف يعبر الناس عن مصالحهم ؟ . كيف يفرض الناس إرادتهم ؟ كيف يكون الناس رقباء على الناس فيما يخص أهـدافهم . . ؟

كان الدستور وثيقة لازمة من حيث هى ملزمة للحاكم والمحكوم .

كان مفترضاً فى الدستور أن يحدد السلطات والعلاقات فيما بينها ،

ومسئوليا ...

والاقتصادى ، ...

وتدرج المسئولية التنفيذية ... السياسية وأبعادها

وسلطات الرقابة ، ولقد تضمن الدستور هذا كله .

نص واحد افترضته وطلبت أن يخضع فى إطار الدستور لاستفتاء الناس عليه .

أن يحكم السودان لا مركزياً . .

وتفجرت عند البعض براكين الدهشة ، وانهالت الاعتراضات ، ساقها مسئولون وساقها أصدقاء ، وتناولتها بعض الأقلام فيما كتبت وتضمنتها رسائل شخصية ، قال أصحابها أنهم يبرئون بها ذمتهم أمام الله والتاريخ .

كانت الاعتراضات تتحدث عن طبيعة المرحلة التى تعيش فيها البلاد ، حيث عوامل الفرقة أكثر من عوامل التماسك ، وعوامل الإنقسام نشطة وفعالة ، فهناك التبلور الطائفى ، وهناك الانتماء الإقليمى الضيق ، وهناك الانتماءات العرقية المحدودة ، وهناك المصالح الاقتصادية التى تربط بعض المناطق بما يجاورها خارج الحدود بأكثر مما ترتبط بغيرها داخل البلاد ، وفى مثل هذه الظروف ، فإن المزيد من مركزية الحكم وعن طريق التنمية المركزية ، وعن طريق القرار الإدارى الذى يصدره المركز ، سوف ترتبط مختلف المناطق به وتتلاقى من خلاله .

وكنت أرى أن العكس هو الصحيح ، فالهيمنة المركزية على

عايشه من
احتكار الحكومة
المركزية لكل السلطة كان يعنى وفى ضوء إمكانياتها ، عجز الحكومة المركزية عن ممارسة السلطة إلا داخل دائرة ضيقة ، تبدأ بالعاصمة وتنتهى فيها ، وأنا أعنى بممارسة السلطة هنا معنى آخر غير فرض الضرائب وجبايتها ، الذى أعنيه ممارسة السلطة من حيث مسئوليتها فى توفير الخدمات للناس كل الناس وفى مختلف المناطق قرباً أو بعداً عن العاصمة ، ففى ظل ظروف يعيشها السودان ، حيث اتساع المساحة وصعوبة المواصلات والاتصالات مع شح الإمكانيات ، فإنه من المستحيل أن تمارس الحكومة المركزية دوراً إيجابياً ، هى على البعد من الناس فى مناطقهم ، فلا هى تستطيع أن تتعرف على مشاكلهم ، ولا هى تستطيع أن تحسم قضاياهم ، وهى لذات البعد عاجزة عن اكتشاف مواردهم وإمكانياتهم ، عاجزة عن التخطيط لاستثمار هذه الموارد ، وعاجزة بطبيعة الحال عن التطوير والتحديث .

إن لا مركزية الحكم لا تعنى غياب السلطة عن الأقاليم ، بل خلق أجهزة السلطة فى الأقاليم ومن الأقاليم ، وهى بهذا تكون أكثر قدرة على التعرف على المشاكل ، وأكثر قدرة على تخطيط وتنفيذ الحلول ، أكثر قدرة على اكتشاف الموارد ، وأكثر قدرة على استثمارها ، أكثر قدرة على الالتصاق بالواقع واستلهام مقدراته وطاقاته وتوظيفها لخدمة التحديث والتطوير .

إن مركزية الحكم وفى بلد كالسودان ، لا يعنى إلا وجوداً شكلياً

للسلط

البيئة المحد

أو النسب أو العر

إن تحقيق التماسك وتأكيد الانتماء والولاء لوطن واحد لن تحققه الشعارات ولن تحققه الدعاية ولن تحققه الدعوة ، وإنما يحققه التحديث والتطوير لكل المناطق وخاصة المتخلفة منها ، وذلك يقتضى قبل الإمكانيات وقبل الكفاءات تحقيق أكبر قدر من مرونة الحركة لمواجهة متطلبات التحديث والتطوير .

وأقول لمن يعترض أن لا مركزية الحكم لا تعنى غياب الوجود القومى فى الأقاليم ، وإنما يعنى الارتباط القومى بين كل الأقاليم ، وذلك من خلال تنشيط قدراتها الذاتية على تحمل مسئوليات البناء .

ثم يطرح مشروع الدستور على الناس فى استفتاء عام ، فيجاز أول دستور فى تاريخ السودان ومن بين نصوصه . . **حكم السودان لامركزياً .**

* * *

وبإقرار الدستور ، قامت مؤسسات تنفيذية ودستورية ، وفى ظله عدلت كل القوانين لتتمشى مع أحكامه ، ودخل السودان مرحلة بناء الدولة الحديثة .

ولكن ماذا بعد الدستور . . ؟ بل من يحمى الدستور ؟ تلك مسئولية

... الناس

... ر وحده ،

... رار .

كانت الخيارات المطروحة لتنظيم الناس عديدة ، إلا أن الخيار بين مختلف الخيارات كان مرتبطاً بظروف السودان وواقعه المميز ، ثم تطوره التاريخي في هذه المرحلة .

تعدد الأحزاب كان خياراً مرفوضاً دون أن يطرح ، هي تجربة عمدها الفشل مرتين على مدى أقل من عقدين من الزمان خلال الحكم الوطني ، وليس هناك حاجة للدخول في تجربة الفشل مرة ثالثة .

كما أن الأحزاب بمفهومها العلمي ، هي تعبير عن تطلعات اقتصادية واجتماعية لطبقة في مواجهة طبقات أخرى ، والسودان يعيش مرحلة التسيب الطبقي ، حيث تتداخل دخول الناس من خلال التكافل الاجتماعي من جهة ، ولعدم وجود اقطاع زراعي أو رأسمالية صناعية أو تجارية لها خطرها .

ووسائل الإنتاج وأهمها الأرض ، ليست هي ملكية عامة بل هي ملكية مشاعة ، فالأرض لمن يفلحها ، صيغة واقعية في السودان ، بل إن هناك دعوة والحاح وتشجيع من جانب الدولة أن يمتلك الناس الأرض باستزراعها .

وحتى
ولا هى ملكيه
لها وفى إطار علاقات إنتاج ...

الثروة الحيوانية ، مازالت حتى الآن قيمة اجتماعية أكثر منها قيمة اقتصادية ، فهى دلالة على المكانة بأكثر مما هى دليل على ثروة ، كما أنها توظف وفى المقام الأول وخاصة فى الجنوب ، كمهور للزواج .

فيما عدا ذلك فإن المشاريع الإنتاجية الكبرى هى ملكية عامة ، ومرافق الخدمات كلها تحت إشراف الدولة .

والقطاع الوسيط وهـــو النقل تملك الدولة أهم مرافقه ، السكـــة الحديد ، والنقل البحرى ، والنقل النهرى والجوى ، ليس هناك إذن ضرورة اقتصادية أو اجتماعية لوجود أحزاب تعبر عن مصالح طبقات بالمعنى العلمى لوظيفة الحزب ودوره .

إلا أن ذلك ليس السبب الوحيد ، السبب الأهم أن تاريخ الأحزاب فى السودان ، كان دائماً هو تاريخ تطلع الطائفية لإحكام قبضتها فى السيطرة والعودة بالناس إلى ما كان عليه الحال فى العصور الوسطى ، حيث تجتمع السلطة الزمنية والسلطة الدينية فى ظل مبدأ حق التفويض الإلهى ، وباستثناء الأحزاب العقائدية — يمينا ويساراً — فإن كل الأحزاب كانت إما واجهات سياسية للطائفية ، أو هى انشقاق موقوت منها وحنين دائم للرجوع لها ، وذلك لأنها أحزاب بلا

باسمها .

والاعتماد الكامل

على الطائفية والدخول باسمها فى صراعات وتحالفات وبحكم نشاطاتها السياسية فى مناطق نفوذها ، كل ذلك أدى إلى أن حملت الأحزاب فى داخلها اتجاهات وتيارات إقليمية وعرقية . فقد أتاحت لها الواجهة السياسية التى تعمل من خلالها تأسيس اتجاهاتها الانفصالية ، بل الدعوة لها بل والسعى لتحقيقها ، تلك كلها عوامل فرضت نبذ اختيار التعدد الحزبى كوعاء تنظيمى ، وبالتالى فلم يكن مطروحاً صيغة الجبهة باعتبارها تجمعاً مرحلياً لمجموعة من الأحزاب تختلف أهدافها استراتيجياً ، وتتحد مصالحها تكتيكياً ، وهى إلى فراق محتوم .

ما هو البديل الممكن . . ؟

وهنا لابد من وقفة أمام ما كان يجرى فى المنطقة ، كان ذلك والسبعينات فى بدايتها . . رحل عبد الناصر وقبل رحيله ، كانت هزيمة يونيو الفادحة تلقى بظلها الكئيب على التجربة الناصرية وكل رموزها ، ومن بينها صيغة تحالف قوى الشعب العامل والتنظيم السياسى الواحد واسم الاتحاد الاشتراكى .

وأذكر أنه وفى هذه الفترة بالذات ، كان تحليل الهزيمة وأسبابها يبدأ وينتهى بتغيير النظام السياسى الذى ابتدعه عبد الناصر ، بل إنه وفى مجال الفكر والأدب برزت اتجاهات تدين التجربة السياسية

بكل رمو

الاشتراكى :

الدموع منه لا عليه ، ومع هـــذا فلقد كان الخيار المطروح للناس هو صيغة قوى التحالف ، وتنظيم واحـــد اخترنا له اسم الاتحاد الاشتراكى أيضاً .

ونشطت الاجتهادات .

* هو محاولة لإحياء ما مات .

* هو عجز عن إدراك الحقيقة ، رغم أنها فى سطوع الشمس ، وإلا فما معنى أن يكرروا ما ثبت فشله وبلسان أصحابه .

* هو مخطط موضوع لفرض الوحدة مع مصر رغم إرادة الناس فى السودان ، وأولى الخطوات ، توحيد التنظيم السياسى ولو كان فاشلا هناك ، وموعوداً بالفشل هنا .

* ما هو المقصود بصيغة التحالف ، ومن هم أطراف مثل هذا التحالف ، وخاصة فى ظروف السودان فالناس فيه متخلفون ، ومتخلفون جداً ، فليسمونها تحالف قوى التخلف .

* كيف يمكن قياس الحجم النوعى لكل طرف من أطراف التحالف وهم مختلفون حجماً وكماً وتأثيراً وفعالية ، فالمثقفون قشرة لا تقارن بثقل المزارعين ، والعمال وعى يفتقده المزارعون ، والجنود

فقل على

وسمعت هذا كلــه وانتظرت طويلا وطويلا أن يقدم المعترضون البديل ، ولكنهم أبداً لم يفعلوا ، ومع ذلك فلقد كان طبيعياً أن تبرز مثل هذه الاعتراضات ، ولكنه كان من المستحيل أن يدور حولها حوار ، لأن الحسابات كانت مختلفة .

كان التنظيم السياسى المقترح وصيغــة التحالف المطروحة ، هى نتاج لتوازن دقيق بين ظروف المرحلة واحتياجات ما يليها من مراحل ، كانت صيغة التحالف بين قوى اجتماعية وهى قوى عمل وإنتاج ، هى البديل الممكن لأى تجاوز يتعدى هذه الصيغة ، لأنها فى هذه الحالة كان من الممكن بل كان من المحتم أن تكون صيغة للاحتكاك بل والصدام والصراع .

كان المطروح كبديل لتحالف قوى العمل ، أى تجمع يلتقى فيه الناس عبر قيم ، هى ميراث لما هو قائم من انتماءات طائفية وحزبية وعرقية وعنصرية وإقليمية .

كان تحالف قوى العمل لقاء على هدف العمـــل من أجل غاية مشتركة هى غاية البناء ، فهو ليس عمل العمال من أجل العمال ، ولا عمـــل المزارعين من أجل المزارعين ، ولا عمـــل الرأسماليين من أجل زيادة أرباحهم ، ولا عمل المثقفين لتكريس عزلتهم عن باقى

قوى الإنتاج بالتقوقع أو بالترفع ، وهى ليست عمل الجنود كعمل مهنى متخصص يكتفى بقوته ، عزلة عما يدور حولهم .

كانت صيغة التحالف ، هى تجمع العمال كل العمال بغض النظر عن انتماءات سبقت وعروق وأقاليم ينتسبون إليها بالوراثة أو بالمولد ، كذلك المزارعين والمثقفين والرأسمالية الوطنية ، أما الجنود وهم الفئة الوحيدة التى انصهرت فهى مؤسسة قومية يعلو الانتماء إليها أى انتماء فيما عدا الانتماء الأشمل للسودان والولاء المطلق له والفداء والفناء فى سبيل وحدته وعزته ، كانت الصيغة المقترحة ، هى تفاعل الكل عبر قيمة مشتركة هى قيمة العمل والإنتاج ، وفى إطار هدف مشترك هو البناء والتعمير والوحدة الوطنية .

وبهذا يسقط أى انتماء داخل الصيغة إلا الانتماء لها ، وبهذا يسقط أى تناقض فى إطار هذه الصيغة إلا بالتنافس المشروع فى إطارها.

وهكذا تتكامل أدوار الكل فى إطار الكل الشامل ومن أجل الوصول إلى الهدف الشامل ، وهو بناء وحدة الوطن وإعادة صياغة الحياة فيه بما يحقق الوفرة والعدل .

ذلك جانب الصيغة . .

ماذا عن جانب التسمية . . ؟

لم تكن التقليد بطبيعة الحال ، فالتراث الإنسانى ليس حكراً لأحد،

تطابقت التسمية مع ظروفنا فاخترناها ، هو اتحاد ، لأننا نبنى وحدة وطنية ، وهو اشتراكى فتلك هويتنا الاجتماعية والتى تقوم على أساس تحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق العمل والإنتاج والوفرة مداخل العدل الثلاثة ، بل مرتكزات العدل الثلاثة .

ولقد مضت السنين ، حوالى عشر سنوات كاملة تغيرت الأوضاع فى المنطقــة ، ومازال ما أخذنا به صامداً يستمد وجوده من قدرته على تحقيق أهدافه .

تراجع حلم التكامل الثلاثى بين مصر والسودان وليبيا ، ثم الرباعى بعد انضمام سوريا إلى ميثاق طرابلس ، ومع ذلك فلقد ظل الاتحاد الاشتراكى السودانى قائماً .

سقطت صيغــة التحالف واختفى الاتحاد الاشتراكى من واجهة الحياة السياسية فى مصر وحــل محله التعدد الحزبى ، وسقطت مراهنات المراهنين يــوم سقوطه بأن الفرع فى السودان سوف يختفى باختفاء الأصل فى مصر ، ومع ذلك ظل الاتحاد الاشتراكى السودانى شامخاً . لسبب واحد ، أنه أبداً لم يكن فرعاً لأصل . سقطت صيغة التحالف ومعها تنظيم الاتحــاد الاشتراكى فى ليبيا ، وحلت محله صيغ جديدة هى المؤتمرات الشعبية والمؤتمر الشعبي العام .

ومع ذلك تواصل الوجود الفاعل للاتحاد الاشتراكى السودانى .

وهكذا أثبت الناس أصالة اختيارهم ، فيوم أقر المؤتمر التأسيسي للاتحاد الاشتراكى الصيغة والتسمية والهيكل والنظام الأساسى فقد تواصل دوره ، انعقدت مؤتمراته على كافة المستويات ، تواصلت اجتماعات لجنته المركزية ، انتظمت دورات مؤتمره القومى ، قرر الاتحاد الاشتراكى السودانى فالتزمت الدولة من خطط التنمية المحليــة إلى مخططات التنميــة القومية إلى الانتقال التاريخى إلى الحكم الإقليمى .

ولعل أقوى مظاهر قوة هذا التنظيم الرائد ، أنه يمارس النقد الذاتى من داخله بأكبر مما يواجهه من خارجه ، ولعلها المرة الأولى فى التاريخ ، أن يتعرض تنظيم لنقد مرير من قياداته العليا فلا يترنح ولا يهتز ، وإنما بممارسة النقــد وتصحيح المسار يواصل مسيرتــه لتحقيق أهدافه ، وهما أهداف بناء الأمة السودانية وتحقيق الكفاية فالوفره فالرخاء فى ظل العدل .

* * *

ماذا بعد هذه الخطوة ، بل ماذا مع هذه الخطوة ؟ الجنوب . . جرح القلب الدامى ، مأساة منتصف الخمسينات ، والتى ظلت تقتات بالرجال والدم والخراب والمال والموارد .

ماذا عن الصراع الذى لم يحرك فى ضمير العالم سوى أحقاد العالم ، فحاول الجميع استثماره خدمة لمصالحهم ، حاول الإلحاد أن يستثمر

المأساة باسم الثورية ، حاول الدين أن يستغل المأساة باسم المسيحية ، حــاول البعض أن يلتف من الجنوب لاستكمال الحصار حول الشمال البعيد . استشهد به البعض على عجز أفريقيا على تحمل أعباء استقلالها ، إتخذ منه البعض دليلا على استحالة تعايش الناس داخل القارة على شكل كيانات متحدة ، لأنهم بالطبع والطبيعة قبائل متناحرة ، لا يفرض عليها السلام إلا أجنبى قاهر .

تحدث الشرق عن العدل ، تحدث الغرب عن الحرية ، تحدث العرب عن القومية ، وتجاهل الكل كياناً ينزف ، هو السودان كله على مدى سنوات .

الجنوب . .

السلام له ، السلام به ، والسلام فيه . . مشعل الأمل والذى تقدم صفوفنا يوم تحركنا ليلة الذكرى لمولد الهدى ، بل دافع تحركنا قبل الحركة ، ودافع تجمعنا قبل التخطيط .

فمن منا لم يعش المأساة فى الجنوب . . ؟

عايشناها وعايشت فيــه العذاب ، عذاب غياب الحياة عن قرى ومدن كانت عامرة بالحركة ، **عذاب دم مهدور تحار العين كيف تذرف دموعها عليه .**

فالمدافع والمهاجم إخوة ، والقاتل والقتيل أشقاء . . عذاب التناقض

بين المكان والإنسان . . خضرة ودم ، أزهار وقتل ، ماء وجفاف . . جفاف فى القلوب يكاد أن يكون حقداً ،جفاف فى النفوس يكاد أن يكون قسوة ،وجفاف الجفاف ، يعيشه الهائمون بلا مأوى ، الراحلون بلا طريق ، المقيمون بلا ماء ولا غذاء .

عذاب مشاهد مروعة .

مدرسة بلا تلاميذ . . كنيسة ولا صلاة . . حقل ولا زارع . . بيوت ولا دفء .

يتيم بلا أب ، وما كان أكثر اليتامى فى الجنوب والشمال .

عذاب التاريخ وهو يتراجع ، وما أقسى تراجع التاريخ . المهدى العظيم يقاتل البغى يطارد الاستعمار يشعل ثورة السودان القومية العظمى ، بحر الغزال تسانده ، بحر الغزال تبايعه ، الدنيكا والنوير تطرد لبتون قائد الحامية ، وتستقبل قائد المهدى كرم الله شيخ محمد كركساوى ليرفع راية الثورة المهدية رمز وحدة السودان فوق ربوع بحر الغزال .

سفائن المهدية تتقدم إلى مديرية خط الاستواء ، قبائل المديرية تتقدمها ، تحكم الحصار حول الحاميات تتساقط وتستسلم ، لينسحب دكتور أمين حاكم المديرية ويرفع عمر صالح مبعوث المهدى راية الوحدة القومية لتستظل بها مديرية خط الاستواء .

كيف يتراجع التاريخ ، فى أقل من مائة عام . . ؟ كيف تتحول أرض الوحدة إلى ساحة للصدام .

الجنوب .. دمنا المهدور لابد من وقف نزيفه ، دمنا الواحد لابد أن يعود لمكانه فى العروق ، صلة لا تنقطع ، ووحدة لا تنفصم ، وجهداً موحداً من أجل البناء .

* * *

بيان ٩ يونيو كانت راية مرفوعة للسلام وللوحدة ، أحداث ما بعد ٩ يونيو كانت ظلاماً ، فـلا نحن أوقدنا المشاعل حول رايتنا ليتبينها الأشقاء ، ولا الأشقاء تبينوا من زحمة الأحداث حولنا مـدى الجد فيما طرحنا .

الآن ، يتوفر الجهد والوقت لإشعال المشاعل فاتضحت الراية وظهرت معالمها ، التقينا ، وكانت إتفاقية أديس أبابا المجيدة .

* * *

عندما أصدرت وزارة الأعلام بياناً بتوقيع الاتفاقية أنهت بيانها بعبارة عميقة الدلالة .

اتفاقية هى السلام والوحدة ، بها انتهى الجهاد الأصغر ، جهاد المجاهدة للوصول إليها ، وبعدها فإنه الجهاد الأكبر للحفاظ عليها ، وهكذا كان .

* * *

فى العالم العربى ، تفجرت الحمم .

تبارت أقلام تهاجم الاتفاقية .

تحدثوا عـــن عروبة السودان التى وئدت فى غابات جنوبه ، تحدثوا عن انكفاء السودان على نفسه وانعزاله عـــن الأمة العربية كشرط طرحه الاستعمار العالمى لإنهاء الصراع فى جنوب السودان .

تحدثوا عن محور جديد ، يضم الخرطوم وأديس أبابا وربما سالسبورى ، بل وربما . أعوذ بالله . .

تحدثوا عن مصرع الثقافة العربية فى السودان ، ودور السودان التاريخى كجسر ومعبر بين العالم العربى وأفريقيا .

ولأنهم يجهلون السودان، فقد أساءوا إليه وإلى دوره بل وإلى عمق الصلات بين القارة الأفريقية والأمة العربية .

فالسودان ليس ساحة من الأرض يتقاسمها سكانه حسب عروقهم ، وإنما السودان كيان عملاق تنصهر فيه وتتداخل مختلف العروق والثقافات ، ولعل الذين لايعرفون أن الدم العربى يجرى فى عروق قبائل الدينكا ، وأن اللغةالعربية هى القاسم المشترك ولغة الاتصال والحوار بين مختلف قبائل الجنوب والتى تتكلم كل منها لغـــة محلية غير قابلة للتداول إلا داخل القبيلة ، ثم إنهم بغير وعى ينساقون وراء التصنيف الاستعمارى للسكان داخل القارة الأفريقية ، بين شمال

الصحراء وجنوبها ، بــل هم يتواضعون فى تقييم الروابــط بين العالم العربى وأفريقيا ، باعتبارها روابط عبر جسر هو السودان ، بينما الروابط العربية الأفريقية هى روابط تفاعل ثقافى وحضارى وعرقى واقتصادى واجتماعى ، وأن السودان الذى تتفاعل داخله مختلف الثقافات ، هو الذى تتفاعل عبره الثقافة العربية الأفريقية ، بل وأكثر من ذلك فإن الجانب الأكبر من مساحة العالم العربى تقع فى القارة الأفريقية ، والعدد الأضخم من العرب هم أفارقة ولنحتكم لعلم الحساب .

فسكان مصر عرب أفارقة .

وسكان السودان عرب أفارقة .

وسكان ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا والصومال وجيبوتى أين يقيمون . . ؟

ثم كيف صور الاستعمار صورة الخراب والدمع فى جنوب السودان . ؟

ألم تكن الصورة المطروحة فى الصحف وأجهزة الإعلام والدوائر السياسية الاستعمارية وأوكاره الخفيــة ومؤسساته المشبوهة ، هى صراع العرب ضد الأفارقة ، والإسلام ضد المسيحية ؟

ألم يكن تواصل الصراع فى جنوب السودان بمثابة إجهاض للتضامن العربى الأفريقى ؟

هــل كــان السودان بمواقع الانقسام والصراع داخلــه

يستطيع أن يقوم بدوره داخل القارة الأفريقية ككيان عربى متداخل معها ومنتم إليها ؟

هل كنت أستطيع مع تواصل الخراب والدم فى جنوب بلادى ، أن أقوم بما قمت به فى قمــة أديس أبابا الأفريقية ، ثم عبر جولات داخل القارة ، انتهت إلى ما انتهت إليه من قطع علاقات معظم الدول الأفريقية مع إسرائيل قبل حرب رمضان المجيدة .

لقد كنت دائماً على وعى بأن قضايا السودان هى قضايا السودانيين فقط دون أى تدخل ودون أى تداخل مهما كانت مبرراته وحسن نواياه .

كنت أدرك ومازلت أننى لا أستطيع سوى أن أكون أفريقيا فى الأمة العربية ، وعربياً فى القارة الأفريقية . ذلك قدرى ، بل ذلك هو دور السودان ، ولذلك فإننى قاومت إلى حد الصدام أن يكون السودان ممراً أو مقراً لأى بؤر من الممكن أن تفجر الشكوك بين العرب والأفارقة ، فهناك تاريخ طويل من الدس الاستعمارى أوغر الصدور وخلق الحساسيات ولون العلاقات العربية الأفريقية بلون الشكوك ، ولعل ذلك هو مدخل الخلاف بينى وبين أحد الأشقاء فى الأمة العربية ، حين ظن أن طريق الوحدة مع السودان إنما يمر بجنوب السودان ، وأنه يملك من المال والقدرة ما يمكننا من تجاوز هذه القضية بالقهر والبطش ، ولقد قلت له يومها إن قضية الجنوب هى قضية السودان ، ولن يسمح السودانيون وأنا منهم لأى طرف

غريب أن يتدخـــل فيها ، ولو حدث هذا التدخل ، فإننـــا جميعاً فى الجنوب والشمال سوف نتجاوز أى خلاف ونواجه التدخل ونقاوم إلى حد الحرب والقتال .

بل إننى قلت يومها ، أنه وبغض النظر عما قيل حول الأسنان التى طحنت الغـــدر يوم أطل بظله الأسود على الخرطوم ، وادعاءات المن بعون من الخارج ، بأن ذلك لو حدث فعلا لكـــانت الأحداث قد اتخذت لها مسارات أخرى ، فالجموع التى واجهت الغـــدر كانت بغير جدال ستسانده فى مواجهة التدخل ، بل إننى لو تخلصت من أسرى لانضممت إليهم نواجه الغريب الوافد ، وبعدها نتفرغ لتصفية ما بيننا من حساب .

وما ينطبق على السودان ينطبق على القـــارة وشعوبها ، وسوف يظل الحريص على التضامن العربى الأفريقى ، هو الأكثر حرصاً على عدم الزج بأى طرف عربى فى أى نزاع أفريقى ، وإلا فسوف تجد الأمة العربية نفسها بالتعميم طرفاً مواجهاً للقارة الأفريقية بالتعميم كذلك .

لقد كان هذا الفهم للتوازن المطلوب فى علاقات العرب بالأفارقة ، هو الأصل فى الخلاف الذى تطـــور سنة ١٩٧٦ إلى صدام مع الشقيق ، والذى وصل ذروته بالأحداث التى شهدها السودان ، وشهد العالم عليها .

كنا على مشارف المساء ، حين دق جرس التليفون فى منزلى ، لأتلقى مكالمة هاتفية أبلغت فيها أن طائرات تابعة لدولة عربية شقيقة دخلت الأجواء السودانية بدون إذن مسبق ، وأن الجهات المسئولة وفقا للقانون الدولى طلبت من هذه الطائرات الهبوط فى مطار الخرطوم وعند هبوطها اتضح أنها تحمل أسلحة ومعدات وعدد من العسكريين من مختلف الرتب ، وأنهم كانوا فى طريقهم إلى دولة أفــريقية تقع مباشرة على حدود السودان الجنوبية الشرقية .

وهنا كان لابد من مراجعة حسابات دقيقة .

فالدولة التى كان يزمع أن تتجه إليها الطائرات والمعدات والأسلحة والعسكريون ، هى على حافة حرب مع دولة أفريقية مجاورة لها .

وموقف السودان المعلن والملتزم بميثاق منظمة الوحدة الأفريقية وفى إطار حرصه على علاقاته مع دول القارة كان يقوم بمساع نشطة لتطويق الخلاف بين الدولتين الشقيقتين ، ولهذا ، فإن قبول السودان بأن تواصل الطائرات رحلتها ، إنما يعنى خروج السودان على دور الوسيط ، بل وقبول السودان بدور المنحاز لطرف من أطراف النزاع ، وخاصة بعد أن هبطت الطائرات على أرضه ، هذا بالإضافة إلى أن طائرات تحمل السلاح والجنود تنطلق من بلد عربى وتهبط فى الطريق على أرض بلد عربى آخر وبعــد ذلك تواصل رحلتها إلى دولة أفريقية تتواجه مع دولة أفريقية أخرى ، إنما يعنى أن الأمر خرج

من مجرد مجـــابهة أفريقية ، إلى مجـــابهة عربيـــة أفريقية ، وهذا مالا يتحمله ضمير السودان ولا صدق انتمائه للأمـــة العربية والقارة الأفريقية .

لهذا فلقد كان القرار :

* أن يستضيف السودان ركاب الطائرات ، لحين إعدادها للإقلاع مرة أخرى .

* أن تتجه الطائرات حين تقلع من حيث قدمت .

وانطلقت حملة إعلامية وسياسية معادية للسودان . أصدرت الدولة التى انطلقت منها الطائرات ، بياناً أدانت فيه موقف السودان (العربى) وأعلنت إصرارها أن تصل الطائرات إلى وجهتها وإن اتخذت لذلك طريقاً لا يمر بالسودان .

نظمت دولة شقيقة (كانت) حليفة للدولة التى انطلقت الطائرات من أراضيها ، حملة إعلامية شرسة ضد السودان وتبارى كتابها بالتنديد بشخصى .

واحد منهم كتب مقالا ، اختار له عنوان « **هل انقلب على نفسه .؟** »

ومضى قلمه (العاطفى) يقارن بين مواقفى العربية قبل اتفاقية أديس أبابا ، ومواقفى (المعادية) للعرب بعد حل قضية الجنوب .

واحد آخر اختار لمقاله عنواناً مثيرا يقول :

« قابيل ماذا فعلت بأخيك ؟ »

وتحدث بسلاسة امتاز بها قلمه ، عن أيــاد امتدت بالفضل فقابلتها بالجحود ، ولولاها لانتصر الغدر فى السودان وذهبت ضحيته .

وتمضى السنين . .

وفى يوم واحد . .

ينطلق صوتى منددا بالتدخل المسلح من جانب دولة أفــريقية ضد دولة أفريقية أخرى . . وفى نفس اليوم ، تستقبل بلادى آلافاً من اللاجئين ومن بينهم عناصر دخلت باسم المسانــدة وخرجت بعد أن أسهم تدخلها فى الهزيمة .

خرجت وحلت محلها مشاعر معادية للعرب ــ (الطامعين) ، وفى ركب تلك المشاعر ، عاد العدو ليستعيد مكانة كان قد فقدها فى ظل التضامن العربى الأفريقى .

* * *

واصلت بعض أجهزة الإعلام العربية حملتها ضد اتفاقية أديس أبابا ، وكأن السلام فى الجنوب ليس ســلاماً للسودان كجزء من الأمة العربية .

وقد انعكس هذا الموقف وفى صورة بالغة القسوة فى الاستجابة العربية للنـــداء الذى وجهته للعالم لتقديم المساعدة للسودان لاستقبال وتوطين مئات الآلاف من السودانيين الذين عادوا إلى وطنهم من الدول الأفريقية المجاورة بعد توقيع الاتفاقية .

وباستثناء المملكة العربية السعودية ودول الخليج ، فلقد كان الإسهام العربى دون ما هو متوقع من عون شقيق لشقيق ، وتصدرت الولايات المتحدة قائمة التبرعات العربية والدولية ، فبلغت عدة ملايين ، بينما لم يزد تبرع دولة عربية شقيقة عن عشرات المئات .

* * *

فى زيارة لمدينة واو بمديرية بحر الغزال بجنوب السودان كنت أخاطب الناس مستعرضاً الجهود المبذولة لإعادة بناء الحياة فى الجنوب وتوطين العائدين ، وحتى لا يكون هناك مجال لتصورات غير واقعية لحجم العون الخارجى ، استعرضت أمام الناس ما حصلنا عليه بالأرقام منسوباً للدول التى قدمته ، وعند الرقم الذى دفعته الولايات المتحدة الأمريكية ، نوهت بعطائها وأضفت أنه عطاء يأتى فى ظل علاقات دبلوماسية مقطوعة بينها وبين السودان ، وتساءلت مستطرداً ألا يدعو هذا الموقف إلى التفكير لإعادة العلاقات الدبلوماسية معها .

مجرد التفكير ، وفى إطار غطاء جاء متقدماً على كل ما قدمه الأشقاء والأصدقاء لمواجهة ظروف خلقها تخلف طـــويل ، يكاد طوله أن يكون بعمر الزمن ، فلقد عاش الجنوب فى ظل الاستعمار مغلقاً أمام التحديث وأمام اتصاله وامتداده بالشمال ، ثم عاش بعد

الاستقلال فى ظل الصراع أسيراً بين قيدين ، قيد الدم وقيد الإهمال ، نزح مئات الآلاف من أهله بعضهم إلى الخارج فى الدول الأفريقية المجاورة ، وبعضهم فى داخل الغابات والأحراش . ولم يكن السلام بالنسبة لهم وللسودان كله ، سوى العودة والاستقرار وبناء حياة جديدة ، تتطلب الإسكان والإعاشة وفرص العمـــل ومرافق التعليم والصحة .

كان ذلك والسودان هو سودان ذلك الزمان ، موارده مرهونة بتقلبات غير محسوبة ، فالأهم منها القطن والصمغ وهما معاً أسرى ظروف الإنتاج ومقومات الإنتاج وتوافر العمالة وتقلبات السوق العالمى ومعادلات العرض والطلب .

كانت إتفاقية السلام والوحدة أولى الخطوات على الطريق الطويل ، ما بعدها كان الأهم والأخطر ، إعادة بنـــاء الحياة ، إعادة بنائها مما هو دون الصفر وبما يقوى قدراتنا وطاقاتنا ، طلبنا عون العــالم فاستجابت دول العالم ، توقعنا من القريـــب فأعطى وكان دون ما نتمنى ، انتظرنا من الصديق فأعطى ، وجاء عطاء الولايات المتحدة متقدماً على كل عطاء رغم أن ما يربطنا بها كان القطيعة .

كانت المقارنة فارقة ، وكان الحديث عن التفكير مجرد (التفكير) فى (احتمال) إعادة النظر فى علاقتنا معه مبرراً بحجم العطـــاء وحقيقة القطيعة .

ومع ذلك فإن أقلاماً معروفة ، تصدت لحقنا فى التفكير بهجوم ظالم ، ومن هؤلاء – غفر الله له – من كتب تحت عنوان ، من أجل حفنة دولارات ، مقالا ينعى فيه الكرامة التى اشتراها المال ، وهو نفسه رحمه الله ، الذى كتب بعد سنوات عن الولايات المتحدة الأمريكية (الشريك الكامل) ، الذى فى يده وحده كل مفاتيح السلام .

* * *

كان الجهاد الأكبر .

أن الرصاص وإن كان هو التعبير الصارخ عن الشكوك بين الأشقاء ، فإن صمت الرصاص لا يعنى موت الشكوك ، وخاصة إذا تعمدت بالدم على مدى سبعة عشر عاماً ، وخاصة أن عناق الإخوة لن يمنع طرفاً من هنا وطرفاً من هناك ، أن يرى فيما كان ، تنبؤاً بما يمكن أن يكون ، ولقد كنت أدرك هذه الحقيقة وأخشى مضاعفاتها ، ولهذا فلم يكن هناك مفر من أن أكون بحياتى سداً أمام كل الشكوك والحساسيات والريب .

حينما أبلغونى ، أن بعضاً من الأخوة الجنوبيين والذين تجمعوا بمعسكرهم تمهيداً لانضمامهم فانصهارهم فى الجيش القومى قد رفضوا تسليم أسلحتهم تمهيداً لتسليحهم بسلاح الجيش القومى ، وأن الرفض قد اقترن بما يشبه التمرد والتأهب للقتال ، كان ردى هو طلب تجهيز طائرة مروحية لأنتقل إلى معسكرهم .

انزلقت من أذنى كل عبارات التحذير ، « هم مسلحون بأسلحة حديثة ، هم فى مواقع الشكوك قد جاوزوا الرفض إلى حد التمرد » . هم قد توزعوا بالفعل فى تشكيلات التأهب للقتال وقد يكون من بينهم من هو رافض للسلام والوحدة والاتفاقية جميعاً .

ومع ذلك ارتفعت الطائرة فى الجو ، وحلقت حول المعسكر ، بعد أن اخترقت غابات من الممكن أن تخفى أغصانها ما يدمر الطائرة وركابها ، وهبطت ، ولم أكن مسلحاً إلا بالثقة فيهم ، ولم يكن أى من المرافقين لى يحمل سلاحاً ، استقبلونى بدهشة ، وسمعتهم وتحدثت إليهم ، وقبل أن أغادرهم أخبرتهم بأننى أصدرت تعليمات بأن يحصلوا على السلاح الجديد مع الاحتفاظ بسلاحهم القديم .

وودعونى هتافاً ، **للسلام والوحدة .**

وعبر زيارات مكثفة زرت فيها كل القرى ، واخترقت فيها كل الغابات ، والتقيت فيها بالناس مسلحين وغير مسلحين ، التقيت بتقاليدهم وارتضيتها حكماً .

رئيس القبيلة الذى يرصد النوايا عبر سقطة الثور المطعون ، فإذا سقط جهة اليمين كان الطاعن صادقاً ، وإذا سقط يساراً فعلى الطاعن أن يثبت حسن نواياه .

طعنت الثور ، وارتضيت حكم الله فى أمرى . ترنح ، تهاوى ، مال إلى اليسار ، اعتدل ، ترنح من جديد ليسقط إلى اليمين .

وتعالت هتافات الناس **للسلام والوحدة .**

طفت بهم ، شربت شرابهم ، تذوقت طعامهم ، وسمعت منهم ، وتحدثت معهم ، وتشاورنا فيما ينبغى أن يكون .

ومضى الركب من العنف إلى السلام ، من الشكوك إلى اليقين ، من الخراب إلى البناء تقوده سفينة الحكمة . وكان الناس فى جنوب بلادى هم الحكمة .

كان هو الجهاد الأكبر .

فما استقبل بالرضى ما جرى فى الجنوب إلا الناس غالبية الناس ، إلا أن منهم من رأى فى اتفاقية الوحدة شبح الانفصال ، ومن هؤلاء من وقف ينـــدد بوحدة يختص فيها الإقليم الجنوبى بحكومة إقليمية ومجلس تشريعى إقليمى ووزراء إقليميين وخطـــة إقليمية للتنميـــة وموازنة إقليمية ، وتساءل ماذا تبقى لإعلان الانفصال . . ؟ ومضت السنين .

ليقف ذات الإنسان وليردد علنا ما سبق أن قاله همساً وعلى مسمع الآلاف فى المؤتمر القومى لتنظيمنا السياسى .

لم يكن يتحـــدث عن الجنـــوب وحكومته ومجلسه التشريعى وميزانيته المنفصلة .

وإنما كان يتحدث بالإشادة ، بالحكم الإقليمى لكل أقاليم السودان ،

حيث لكل إقليم حكومة إقليمية ومجلس تشريعى إقليمى ووزراء إقليميون ، وميزانية منفصلة .

ويقول :

كان الجنوب هو النموذج الذى سبق ، ونحن بعده على الطريق سائرون .

* * *

وعلى الطريق ، كانت التنمية ، وكـــان الخيار فيها صعبـــاً ، والطريق إليهـــا شاقاً ، كان الخيار بمـــاذا نبدأ . ؟ وتعددت الاجتهادات .

فلتكن البداية بالمشروعات الإنتاجية الضخمة حتى يكون عائدها تمويلا لما يليها تدرجاً من الإنتاج إلى الخدمات . فالعكس مرهق . نعم . **العكس مرهق . . ولكننا هل نستطيع تجنبه ؟**

* * *

صحفى صديق ، قام بزيارة بعض أقاليم السودان وعند عودته للعاصمة ، طلب مقابلتى ليقول إنه لا يتوقع أن يصدقه أحد ، لا خارج السودان ولا حتى فى عاصمة السودان ، لو نقـــل ما رآه بعينيه وسمعه

بأذنه خلال زيارته لبعض مشاريع التنمية ، فلا الناس خارج السودان سيصدقون ، ولا النـــاس فى العاصمة يتخيلون أن يكون ما رآه واقعاً له وجود فعلى فى بلادهم .

فلقد التقى ببعض المثقفين السودانيين فى الداخل والخارج ، وفهم منهم أن إيقاع الزمان البطئ ، هو ذاته إيقاع الزمان البطئ ، لم يلهبه الزمن إلا بسوط الجمود فتوقف .

ويضيف الصديق الصحفى ، إن مقدرتكم عجزاً أو تعففا فى اسدال تعتيم كامل على نبض العمل فى بلادكم قد أسدلت ستاراً بين الواقع والتصور فى عقول النـــاس خارج السودان وحتى فى عاصمته ، ولهذا فإنه إذا نقل ما رأى ، فإن من يقرأ له سوف يتخيل أنه غمس قلمه بمداد الخيال أو مداد النفاق ، وهذا ما لا يرضاه لقلمه .

ومع ذلك كتب يقول :

إن مأساة النظام فى السودان ، أنه أعطى لمن لا صوت لهم بينما ترك أعلى الأصوات بلا عطاء ، فلا هؤلاء شكروا له ، ولا هؤلاء سكتوا عنه .

ولكن من هؤلاء . . ؟ ومن هؤلاء . . ؟

هؤلاء الذين أخذوا ، إنما أخذوا حقوقهم ، كان على الزمن أن يسرع خطـــاه لهم ليلحقوا بعصر يعيشه الإنسان ، ليعرفوا الملابس

بعد العرى ، وليعرفوا الماء بعد العطش ، ويعرفوا المساكن بعد سكنى الجبال ، ويعرفوا الاستقرار بعد طول الترحال ، ويعرفوا الرزق عن طريق جـديد غير طريق تجاوزه الزمن ، يوم كان جهد الإنسان هو جمع الثمار ورعى الماشية ، ليعرفوا المدرسة والمستشفى . ليكونوا رصيداً معطاءاً للحياة .

أما هؤلاء ، صوت نبراته الشكوى ، فالحق لهم ، فلقد تتابعت خطى الـزمن وهم يقـارنون أنفسهم بمـا يقـرأون وبمـا يسمعون وبما يرون من حياة الناس فى بلاد بعيدة توافرت لها كل مقومات التحضر ، المـال والعلم ، وبالرغم من أنهم بالمواطنة والانتماء بل وبالمعايشة امتداد للصابرين على التخلف ، إلا أن الإنسان هو الإنسان **لا يقارن نفسه بمن هو أدنى .**

* * *

سودانى عاش عمره فى مصر ، وعاد إلى وطنه ليقارن ما بدأ به عبد الناصر وما انتهينا نحن إليه ، بدأ عبد الناصر بكورنيش النيل فى القاهرة ، قبل أن يفكر فى بناء السد العالى فى أسوان ، وكان ذلك ضرورياً لاستقطاب اهـتمام الناس فى مناطق الوعى بما تراه عيونهم وتلمسه أصابعهم ، ولو كان بدأ كما بدأنا فى العمق والأطراف ، لتلونت بدايـات عهده بظلال من الشكوك والإنكار والاستنكار ، فما هو بعيد عن العين لا تراه ، بعيد عن الأذن لا تسمعه . يظل رغم يقين وجوده ، كالقيم الفاضلة لا يفتقدها الناس إلا إذا أصابت مصالحهم .

ويتساءل من عـــاد إلى وطنه بعد أن عاش تجارب غيره ، عن جدوى محطة أرضية للأقمار الصناعية فى نيالا ، بينما يضج الناس بالشكوى من ارتباك الاتصالات الهاتفية فى الخرطوم ، ما جدوى عشرات المئـــات من الكيلو مترات من الطرق تربط الشرق بالوسط وغيرها فى الغـــرب ومثيلاتها تتأهب انطلاقاً للشمال والجنوب ، بينما شوارع العاصمة ، حيث الوعى والصوت العالى ، تتأوه فى الخريف من مس المطر ، وتشكو فى الجفاف مما فيها من جروح .

ثم يسأل عن قناة جونقلى ، ويقارن بالعاصمة ، عن مشروع الرهد ويقارن بالعاصمة ، عن مصانع السكر ومنها مصنع واحد هو مصنع كنانة ، هو الأكبر فى الشرق الأوسط وأفريقيا ، وهو الثانى من حيث الإنتاجية والضخامة فى العالم ، وهو من حيث التكلفة أكثر من ضعف كلفة السد العالى ، صرح مصر العظيم .

ويعدد ما تم إنجازه فى العمق والأطراف ، ليسأل من جديد عن العاصمة وما مسها من رياح التغيير .

ثم يكرر ما قاله الصحفى الصديق .

إنها معادلة تصوغ الجحود .

فلا الذين أخذوا شكروا ، حيث لا تعلو أصواتهم على ضجيج المتجادلين فى المدن .

ولا المتجادلون قنعوا ، لأن ما لا تراه العين ينكره اللسان ، ورغم

منطقية هذا المنطق ، إلا أنه لا يلتقى مع العدل ولا يتكامل مع عائد التنمية المنشود .

قضية العدل :

وأكمل نماذجها عدل الله ونهج رسوله .

فلقد اتجه عدل الإسلام تدرجاً للأكثر حرمانا فالأقل حرمانا ، لليتامى فالمساكين فأبناء السبيل ، وألزم بأن يكون من مال من يملك حق معلوم لمن يستحق ، وما يحـــدد الملكية كفاية وإن لم تبلغ الوفرة ، إلا أنها تغنى عن حاجة تستلزم الصدقة .

كما أن عدل الله كما عبرت عنه آيات كتابه ، إنما فرض الزكاة حقاً للفقراء أولا ، ثم للمساكين ، فالعاملين عليها ، فالمؤلفة قلوبهم ، فنى الرقاب ، فالغارمين وأخيراً فى سبيل الله .

تلك قضية العدل ، حدد مسارها الإسلام بما لا يقبل الجدل ، عطاء لمن هو أدنى أولا فإذا فاض فلمن هو أقل حاجة ، وإذا فاض بعد ذلك فهو وفرة يزهر العدل فيها ورود الرخاء .

يبقى العائد المنشود من التنمية .

وهنا لابد من عودة ، لما انتهى إليه عبد الناصر وبدأنا به .

لقد تولى عبد الناصر أمر دولة ، هى الأقدم فى التاريخ ، توحدت

منذ مينا ، وتجانست عناصرها يوم انصهر كيانها الواحد بأحداث توالت على امتداد آلاف السنين .

ثم إن مصر حقيقة وواقعا هبة النيل ، لا من حيث أنه يصنع رخاءها فحسب ، بل من حيث أنه يصوغ وجودها المتحد المتجانس على امتداد مجراه ، فحوله يعيش الناس تداخلا حتى البحر ، وعليه يعتمدون جميعاً حيث لا بديل ، وعبره يذوب تباعد المكان ، فلا يشكل عائقاً بين أهل الصعيد وأهل الساحل .

بينما السودان هو السودان .

يتوزع الناس فيه ، بتعداد أنهاره ، عشرات الأنهار غير نيله الأبيض ونيله الأزرق ونيله الأعظم .

ينتشر الناس فيه حيث لا تكدس حول النهر ، فلهم الآبار حتى فى الصحارى ، ولهم نعم السماء أمطار تستزرع الأرض وتهب الحياة والنماء لثروتهم الحيوانية .

يتواجد الناس فيه بامتداد حدوده ، من البحر حتى الغابة ، فى الجبل والسهل والبوادى . على مساحة مليونين ونصف المليون من الكيلو مترات المربعة ، هى ضراوة المكان تفترس صلات الدم والقربى وتفرض الاغتراب على الانسان فى وطنه الكبير . فلا تواصل بغير اتصال ، ولا تآلف ولا تجانس ولا انصهار إلا بترويض البعد ليكون

قربا ، والعزلة لتكون تفاعلا ، وترويض دروب المشقة لتكون معابر للناس إلى الناس تعاوناً وترابطاً وألفة .

ذلك مطلوب لعائده القومى ، صياغة الأمة السودانية الواحدة وبناء الوطن السودانى الموحد ، فما جدوى شعارات الانتماء والدعوة للولاء ، والناس فى الغرب والشرق والشمال والجنوب يعيشون فى جزر العزلة ، حيث مصاعب الانتقال أمواج عاتية تصدهم عن غاياتهم فى تأكيد وحدتهم .

يبقى العائد الاقتصادى ، حيث الرخاء ما نعلم إنتاج وتسويق ، فما جدوى تلال الذرة تعلو فى القضارف إلى الشرق ، بينما المجاعة تهدد الناس لنقص الذرة فى دارفور غرباً .

ما جدوى الفول والصمغ ، يفيض حجمه عن قدرة طاقات التخزين فى مواقع إنتاجه ، فتمتلىء بها البيوت والمدارس ، بينما طريق البحر الأحمر موصدا لعجز طاقات النقل عن مقابلة حجمه ، وأسواق عالمية تتطلع باللهفة إليه .

ما جدوى فاكهة الجنوب وخيرات جبل مرة وخضروات الجزيرة وأسماك بحيرة النوبة ، مادامت حيث هى وفرة تورث التلف ، بينما طاقات الاستهلاك فى مختلف المناطق تتطلع إليها بالحسرة .

بل ما جدوى التنمية من حيث هى مزيد من الإنتاج مالم تتوافر لها مقومات التسويق ، وهى طرق أولا وأخيراً .

ما كان مطلوباً إذن وقد تحقق معادلة لا تظلم العدل ، وإنما تحقق التعادل ، تعطى لمن يستحق بقدر حاجته ، خطوات على طريق طويل ، هدفه تجاوز التفاوت الظالم بين الريف والمدينة ، بين العواصم والأقاليم ، بالإضافة إلى أنها تعادل ، بين مقومات الإنتاج واحتياجات الإنتاج فى التسويق والتبادل والتكامل ، ثم هى تعادل يظل الاختلال فيه مطلوباً حيث العائد القومى من التنمية ، هدف سابق لعائدها الاقتصادى وإن كان لا تعارض بين السبيلين .

* * *

طريق التنمية هو طريق الصبر .

الصبر على النفس أولا .

لا نتعجل النتائج ، لا نفزع أمام العقبات ، لا نتخاذل أمام النكسات ، لا نتردد فى مواجهة الحقيقة بأن كمال البداية هو هدف يصوغه الغرور والجهل .

وما أولى الخطوات كآخر الخطوات ، لابد من التعثر حتى يستقيم العود ، ولابد من التخبط حتى تكتمل الخبرة ، ولابد من الزمن مقترنا بالممارسة حتى يصير الغريب مألوفاً ، والعسير سهلا ، والممتنع طوع البنان .

* * *

على رصيف محطة السكك الحديدية بالخرطوم ، كنت على وشك الدخول فى عربة من عربات القطار المتجه لشمال غرب سنار لافتتاح أول مصانع السكر ، حينما وقف أمامى مسئول كبير يلهث وهو يلملم أطراف كلمات لا يعرف كيف يصوغها ، فلقد تسلم برقية عاجلة من إدارة المصنع ، تطلب تأجيل الزيارة وموعد الافتتاح ، لأنه وفى آخر مراحل التجارب تعطلت إحدى الآلات الرئيسية فى المصنع ، ولم يعد معقولا أن أقوم بافتتاح مصنع أخرس لا تهدر آلاته ، وأنهم طلبوا تأجيل افتتاح المصنع لأيام يعالجون فيها العطب ، حتى أستقبل السكر وليس مرارة الفشل .

انتهت كلماته ، وبدأت خطواتى تقودنى إلى القطار الذى تحرك على الفور إلى هدفه ، ولمحت من نافذة القطار ذلك الذى جمده الحرج ، وانتشر الخبر بين ركاب القطار ، وجاء من يسأل منزعجاً حول حقيقة ما سمعه ، وأكدته له ، فتساءل عن جدوى الرحلة والتى سوف نصادف فى نهايتها صمت الآلات وحرج القائمين عليها .

واكتفيت بأن طلبت منه ، بأن ينتظر ليرى وقد رأى .

عشرات الآلاف من الأفدنة وقد فرشتها الخضرة بعد أن كانت إلى وقت قريب خلاء لا ينبت إلا الأشواك ولا ترتاده إلا الوحوش .

عشرات القرى والمدن الجديدة ، التى تضم عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، والذين كانوا قبل ذلك تجوالا وترحالا وراء المراعى فى دورة لاهثة هرباً من الجفاف .

عشرات المدارس والمراكز الصحية والمرافق الاجتماعية والمساجد والأسواق فى بقعـــة من الوطن لم تشهد فى تاريخها إلا ظلم المواجهة بين عجز الإنسان وضراوة البيئة المقفرة المظلمة بالجهل والمرض .

ثم معدات الزراعة الحديثة وآلات الرى ، وعشرات القنوات ومنها ما هو فى اتساع نهر صغير ، كل ذلك فى أرض ما شهد تاريخها إلا لهفة الجفاف لقطرات المطر .

رأى ورأيت ، ورأى الناس .

فى طريق العودة ، استدعيته وسألته حول انطباعاته بعد كل ما رأى .

فأشاد بما رآه ولكنه عاد للحديث حول آلات المصنع المعطلة ، واستغرقنا نقاش طويل على طول طريق العودة ، لا أدرى إن كان فى نهايته قد وافقنى مجاملة أم اقتنع بما قلت . قلت :

إن هدف التنمية هو هدف شامل ، ليس الإنتاج المباشر هو عائده الوحيد ، العائد الأهم هو ما تحققه التنمية للناس ، وهو شرط سابق على ما يمكن أن تحققه التنمية بالناس ، ذلك أن مقومات الإنتاج ليست الآلات والمعدات والمال والخام فحسب ، وإنما قبل ذلك كله جهـــد الإنسان والذى لا يمكن استخلاصه إلا باستقراره وتعليمه ورعايته، رعاية روحه وجسده ، فإذا كان ذلك قد تحقق ، وهو الأهم والأصعب ، فما أيسر الطريق بعد ذلك للعائد الاقتصادى للتنمية والذى

قد يتأخر ، والذى قد يتعطل ، ولكنه محتوم بقدرة توفرت مقوماتها فى الناس لتحقيقه .

هذا هو الأولى بالاحتفال والاحتفاء ، فيما يبقى تعطل الآلات جزئياً أو حتى كلياً ، مجرد عرض سوف تتجاوزه الخبرة وهو فى النهاية ظاهرة طبيعية ترتبط بكل ارتياد لمجال جديد ، فلم يكن هناك معنى مطلقاً لتأجيل الزيارة وإلغاء الاحتفال .

فالاحتفال والاحتفاء إنما بشمول ما تحقق ، وليس لجزئية ما تعطل فى البناء الكبير .

* * *

برنامج طموح للتنمية بلغت تكلفته الفعلية ثلاثة آلاف مليون دولار ، وتبلغ قيمته الواقعية بأسعار اليوم وبعد قفزات التضخم العالمى المجنون ، ما يزيد على اثنى عشر بليوناً من الدولارات .

ما أفدح ثمن التردد ، وما أيسر ثمن ما عانيناه من أعباء البناء ، رغم أن ما عانيناه لم يكن يسيراً ، كان فى مرارة الحنظل عقبات بعضها كان محسوباً . وعقبات فاجأت بل صدمت كل حساب .

ما كان محسوباً فرضته أولويات التنمية وطبيعة تدرجها ، من حيث هى إتفاق يسبق الدخل وصرف يسبق العائد .

كانت الأولوية للخدمات باعتبارها تنمية لقدرات الإنسان أغلى وسائل الإنتاج .

ارتفع عدد المدارس الابتدائية من عشرات المدارس إلى آلاف المدارس .

ارتفع عدد المدارس الثانوية ، من ما كانت تحسبه أصابع اليدين ، وتستوعب الذاكرة أسماءها جميعاً على امتداد السودان ، إلى مئات المدارس الثانوية للبنين والبنات .

تآخى مع جامعة الخرطوم ، جامعات الجزيرة ، وجوبا بالإضافة إلى جامعة تضم الكليات التكنولوجية ومعاهد متخصصة فى الغرب والشرق . بالإضافة إلى جامعة أم درمان الإسلامية .

تزايد عدد المبعوثين إلى الخارج ليصل إلى عـــدة ألوف للدراسة الجامعية وفوق الجامعية ، حتى كدنا نصل بعدد مبعوثينا إلى ما وصلت إليه أعدادهم فى دول البترول ، وقبل أن نحلم بوجود البترول فى بلادنا .

شهدت القرى قبل المـــدن مستشفيات عامة ، وشهدت المـــدن مستشفيات متخصصة ، وانتشرت مراكز العلاج فى كل قرية ، حتى فكرنا فى الاستعانة بتجربة الصين العظيمة ، حينما ابتدعت نظام الأطباء الحفاة ، هؤلاء الذين يصل بهم العلم إلى الحد المطلوب لتقديم خدمات طبية غـــير متخصصة لا تتطلب الوقت التقليدى لإعداد الأطباء .

ولقد وصلنا بالفعل إلى صيغة مماثلة ، فتوسعنا أولا فى أعداد الأطباء ، ثم توسعنا فى نظام إعــداد المساعــد الطبى ، فالمعاونين الطبيين ، على أن يتواصل التدريب لهؤلاء جميعاً ، بما يرفع كفاءتهم ويحقق فى نفس الوقت كفايتهم لمقابلة التوسع الهائل فى الخدمات الصحية .

ولقد كان هذا كله ، صرفاً بلا عائد ، وإنفاقاً بلا إنتاج ، فالتعليم والعلاج بالمجان فى السودان .

ولقد أدى ذلك إلى زيادة فى القدرة الشرائية ، لم يقابله بطبيعة الحال إنتاج يستوعبه أو يعادله ، فزاد الطلب على العرض وتقدمت الأسعار خطوة .

وفى الجانب المادى من التنمية كان الإنفاق مهولا فبلغت تكلفة الطرق مئات الملايين ، وخط الأنابيب بعشرات الملايين ، والمحطات الأرضية للأقمار الصناعية ، وشبكة المايكرويف للاتصالات ، ومنشآت لتوليد الطاقة ، والمشروعات الزراعية الكبرى ، والمصانع العملاقة ، مصانع السكر والتى جاوزت تكلفتها الألف مليون دولار ، ومصانع النسيج والتى وصلت تكلفتها إلى مالا يقل عن ذلك .

هذا وغيره فى طور الإنشاء ، كان إنفاقاً بلا عائد وصرفاً بدون إنتاج ، وهو فى نفس الوقت ساحة ضخمة لاستيعاب العمالة وصرف الأجــور واستخدام لطاقات محلية مما أدى أيضاً إلى زيادة فى القوى الشرائية ، مما تقدم بالأسعار خطوات نحو الارتفاع .

وفى ظل تلك الظروف ، ظروف التنمية ، تباعدت المسافة ، بين أجور العاملين فى مشروعاتها والعاملين فى مختلف القطاعات الحكومية والخاصة ، مما هدد العدل المنشود ، فكانت زيادة أجور هؤلاء مرة ، ثم مرة ثم طفرة بتطبيق مشروع التقويم الوظيفى ، كل ذلك وأشرعة سفائن الإنتاج تبحر بالأمل ، مرئية ومحسوسة ، ولكنها بعد لم تصل إلى شواطئ العطاء .

زادت القوة الشرائية من جديد ، فارتفعت الأسعار من جديد .

كان ذلك محسوباً رغم ظلمه ، وكان محتوماً رغم أعبائه ، ذلك أنه لم يكن هناك خيار ، بين أن نبنى الآن وفوراً ، وألا نبنى على الإطلاق ونعيش كما عاش من سبقونا ، ونكرس حقيقة التخلف والتمزق .

كان ذلك محسوباً ، ولكنه كان موقوتا ، كما أنه كان ملطفاً برايات للعدل ، تخفق فوق الربوع لتبشر بوحدة الأمة السودانية فى إطار التكافؤ بين مختلف قطاعاتها .

تحررت قطاعات كبرى من قيود الكفاف ، فانطلقت بشرعية العدل تأخذ نصيبها مستهلكة لما كانت لا تستهلكه . عرف العراة الملابس ، وعرف الجوعى الشبع ، وعرف المدمنون على الذرة واللحم المجفف والسمك الجاف ، أن فى الحياة طيبات أخرى ، منها السكر واللحوم والألبان .

استأثر الريف ببعض خيراته ، فما عادت دواجنه للتصدير خارجه وإنما بعضها بل كلها لاحتياجات الاستهلاك فيه ، بل إنه صار مستورداً من خارجه ، فها هى الجزيرة تزاحم الخرطوم فى إنتاج مزرعة الدواجن العملاقة ولقد كان ذلك كله على طريق العدل خطوة ، إلا أنه كان على طريق الضيق الموقوت أيضاً .

لقد كان هذا كله فى نطاق المحسوب ، فماذا عن غير المحسوب والمفاجئ ، الصادم الظالم .

لقد تمثل السباق المسعور بين زيادة أسعار البترول وأسعار كل السلع التى تنتجها الدول الصناعية بل وغير الصناعية ، التى تأثرت بالزيادات المتتالية للنفط .

قفز سعر البترول من دولار وعشرين سنتا فى سنة الأساس سنة ١٩٧٣ ، ليتدرج ويصل فى بداية الثمانينات إلى ٣٨ دولارا لحساب متوسط السعر المقرر من الأوبيك ، غير السعر المتداول فى السوق الحر فى روتردام .

ألهب البترول جنون أسعار السلع والخدمات .

تزايدت تكلفة النقل البحرى والنقل البرى والنقل الجوى وتزايدت قيمة التأمينات على ما هو صادر ووارد .

تضاعفت أسعار السكر ، ثم تضاعفت وتضاعفت وكان أولى بنا

أن نسعد فنحن على موعد لإنتاج أكثر من مليونى طن سكر فى العام أغلبها يفيض عن حاجة الاستهلاك المحلى ، ولكن بين الوعد والوفاء ساحة لابد أن ندفع فيها ما نستهلكه حتى يحين وقت الحصاد .

ومع السكر البن ، ومع البن الشاى ، ومع هؤلاء تزايدات أسعار الإنتاج المحلى فالمنتجون يستخدمون البترول الذى ارتفع ثمنه ، ويشربون السكر والبن والشاى التى تصاعدت أسعارها ، ولكى يوازنوا فلابد من رفع أسعار ما تنتجه أيديهم ، ولقد واكب زيادة أسعار الإنتاج ، زيادة فى أسعار مقومات الإنتاج ، فقد ارتفعت عالمياً ونتيجة لارتفاع أسعار البترول ، أسعار المعدات والآلات الزراعية والأسمدة ومتطلبات التغليف .

دورة تبدأ من الخارج لتصب فى الداخل ، فيشتعل فى السوق الحريق .

وأسأل فى الليل نفسى . . هل كان أمامى طريق غير هذا الطريق .

طريق التنمية الشاملة ، ببعدها الاجتماعى أولا وبعدها الاقتصادى بعد ذلك .

وأجد نفسى شاكراً لله إلهامه .

فما ألهمنى إلا رشداً ، وإلا كيف كنا نستطيع أن نتصدى ولو بالأمل فى مواجهة عالم يتزايد ثراء من ينتجون فيه ، بينما الذين خلت

ساحاتهم من مواقع الإنتاج ، فليس لهم إلا اليأس حاضراً ومستقبلا .

وإن كان حاضرنا عسراً ، فهو عسر موقوت . . هو مخاض يدب بعده على أرضنا نبض الرخاء .

هو أقرب إلى تداخل الظلام مع الليل قرب الفجر ، بعده يشرق النور ويعم الضياء .

ضياء لا يراه إلا من كان بالقرب من مصادر النور ، يلمح بوادره ، ويستشرف بشائره .

ومن كان على البعد ، فهو لا يرى ، ولو خلصت نواياه .

ومن هؤلاء من كان موعدى معهم .

موعد مع الصبر . .

* * *

أن [illegible]
أغلبنا يعيش من ساعة الاستهلاك [illegible]
ساعة لابد أن ندفع فيها ما نستهلكه حتى يحين وقت الحصاد .

ومع السكر البن ، ومع الرز الشاي ، ومع [illegible]
الإنتاج المحلى فالمصريون يستخدمون البترول الذي ارتفع ثمنه ،
ويشربون السكر والبن والشاى التي تضاعفت أسعارها ، ولكي يوازنوا
فلابد من رفع أسعار ما تنتجه أيديهم . ولقد [illegible] زيادة أسعار
الإنتاج [illegible]
ونتيجة لارتفاع أسعار البترول ، أسعار المعدات والآلات الزراعية
والأسمدة ومتطلبات التطبيق [illegible]

دورة تبدأ من الخارج لتصب في الداخل ، فيشتعل في السوق
الحريق .

* * *

وأسأل في الليل نفسي .. هل كان أمامنا طريق غير هذا الطريق .

طريق التنمية الشاملة ، ببعدها الاجتماعي أولا وبعدها الاقتصادي
بعد ذلك .

وأجد نفسي شاكراً لله إلهامه .

فما ألهمني إلا رشداً ، وإلا كيف كنا نستطيع أن نتمسك ولو
بالأمل في مواجهة عالم يتزايد ثراء من يتحكمون فيه ، بينما الذين نقلت

الفصل الخامس

موعد مع الصبر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟
بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

موعد مع الصبر

ليل باريس ، كضحى الخرطوم فى مارس ، مع فارق أن الحرارة هناك ، تختلط بأعلى معدلات الرطوبة ، فيموت النسيم ، وتختنق الأنفاس .

باريس كانت محطة على طريق العودة إلى الخرطوم ، بعد رحلة استغرقت شهراً كاملا ، ترأست فيها وفداً على مستوى عال ، فى زيارة لتسع ولايات أمريكية ، بدأت بواشنطن وانتهت فى نيويورك .

لم تكن الزيارة زيارة رسمية ، وإنما كانت رحلة عمل ، كنت فيها أشبه برجل أعمال يحاول أن يجد تمويلا لمشروع بلغ اقتناعه بجدواه حد اليقين ، وإن قصرت إمكانياته الذاتية عن تنفيذه منفرداً .

وخلال تلك الرحلة ، كان المطلوب جذب رأس المال الأمريكى والتكنولوجيا الأمريكية للاستثمار فى السودان .

فالظروف المناخية والجغرافية واحدة فى البلدين ، والخبرة التى أتاحت للولايات المتحدة أن تكون أكبر قاعدة للغذاء فى العالم ، من الممكن أن تساعد السودان ليكون سلة غذاء للشرق الأوسط وأفريقيا بل والعالم كله .

فالسودان ، أكثر من ٢٣٠ مليوناً من الأفدنة صالحة للزراعة الآن وفوراً ، وبدون أى جهد مطلوب لتسوية التربة .

والسودان هو مصادر المياه المتعددة ، الأنهار والأمطار والمياه الجوفية .

والسودان هو الثروة الحيوانية المتزايدة ، والتى لا يتناسب تزايدها مع طاقة المراعى فيه .

والسودان هو التنوع فى المناخ والتربة مما جعله صالحاً لإنتاج الغذاء بمختلف أنواعه .

والسودان فوق ذلك هو الأرض العذراء لم تمسها يد المحاولة لاستكشاف كنوز الأرض والبحر .

والسودان هو الأقرب لمناطق استهلاك الغذاء وأكثرها حاجة إليه فى العالم العربى وأفريقيا .

ولهذا فلقد كان التمويل مطلوباً ، والخبرة الفنية مطلوبة لاستثمار هذا المورد الكبير . ولقد أعطى الأشقاء العرب واستثمروا فى السودان

ولكن يظل ما نفذ وخطط ، مجرد قطرة فى بحر إمكانيات السودان العظيمة ، فلنعبر البحر .

وبعده المحيط ونعيد استكشاف أمريكا ، لعل ما فيها من مال وخبرة يحقق لنا ما حققه للرواد الأوائل ، الذين اقتحموها بحثاً عن الذهب ، وبالذهب والخبرة أقاموا أكبر واحة للرخاء فى تاريخ العالم .

ولأن الزيارة لم تكن للدولة وكان ذلك مقصوداً ، فلقد حفلت أيامها ولياليها بلقاءات مع أهل المال وأهل الخبرة وأصحاب الشركات ومديرى المؤسسات المالية والتجارية والزراعية والصناعية . وتنوعت فشملت زيارات للمزارع والمصانع والمصارف ، وامتد برنامج اليوم كل يوم ، من الفجر إلى ما بعد منتصف الليل ، فى افطار عمل ، وغذاء عمل ، وعشاء عمل ، ومباحثات ولقاءات وحفلات استقبال وما كان أكثرها .

زيارات لمؤسسات تعليمية ، وجامعات متخصصة ، ولقاءات مع الجاليات السودانية والمبعوثين السودانيين ، مناقشة للمشاكل وبحثاً عن الحلول .

برنامج الغد يبدأ قبل بزوغ فجره مباشرة فى اجتماعات يحضرها أعضاء الوفد ، يستعرضون فيها كل ما أنجزوه يناقشون ويحللون ويستنتجون ، ونصل بعد ذلك إلى تصور لبرنامج اليوم الجديد ، والذى يبدأ مباشرة مع ساعات الصباح المبكر .

طائرات تقطع مساحات شاسعة ، سبع ساعات من الطيران المتواصل ، وعندما تلامس عجلات الطائرة الأرض ، يبدأ مسلسل اللقاءات والمباحثات والزيارات على الفور ، ثلاثون يوماً ، ثلاثون ليلة ، وصل الإرهاق بالوفد إلى حد الإعياء .

وطريق العودة كان يتطلب وقفة لليل ونصف نهار فى لندن ، فالطائرة لا تستطيع أن تواصل السفر من نيويورك إلى الخرطوم بدون توقف .

واحد من أعضاء الوفد ، كان قد اقترح أن تكون باريس بديلا للندن كنقطة للتوقف .

أدركت هدفه ، فهو من عشاق باريس ، قضى فيها جانباً من صدر شبابه دارساً ، وله فيها من الذكريات ما فيها ، أيده الجميع فكلهم تعددت زياراتهم للندن وأقلهم من رأى باريس .

ولأنهم أصحاب حق بما تفرضـــه أغلبية الشورى ، كما هم أصحاب حق بعد عناء طويل . . وافقت .

واستقبلتنا باريس ، بما لم تشهده باريس منذ عشرات السنين ، حرارة لا تحتمل ، ورطوبة تخنق الأنفاس .

والفندق حيث أقيم ، لا يعرف أجهزة التبريد ، فما حاجته لها ،

بل وما حاجة باريس كلها للتبريد ، وشتاؤها قارس ، وصيفها معتدل ، ولا حساب للاستثناء .

استقبلنى الرئيس الفرنسى فى مكتبه ، وكان يومها مشغول الفكر بحادث الطائرة الفرنسية التى هبطت اضطراراً فى مطار عنتيبي بيوغندا ، وهى تقوم برحلة عادية من تل أبيب إلى باريس .

كانت الطائرة مختطفة وبها عـــدد كبير من الرهائن ، ومطالب المختطفين تخرج عن سلطة الدولة صاحبة الطائرة والدولة التى هبطت الطائرة على أرضها ، وكان مأزقاً .

كان من الطبيعى أن يكون هذا الموضوع ، موضع نقاش بينى وبين الرئيس الفرنسى ، فأنا عربى والحادث وليد الصراع العربى الإسرائيلى ، وأنا أفريقى ، تتجاور بلادى مع يوغندا فى حدود مشتركة ، وكما أنه لا يستطيع فأنا أيضاً لا أستطيع أن أحرك الأحداث المتلاحقة .

تحادثت مع الرئيس اليوغندى هاتفيا ، وتحدث إليه الرئيس الفرنسى أيضاً بحضورى ، ولم يكن هناك بارقة أمل فى انفراج قريب ، عبارات المجاملة أنهت الجلسة ، وعدت إلى الفندق متعجلا صباحاً فمساء ، يحل فيه موعد إقلاع طائرتى لأعود إلى الخرطوم .

الخرطوم بعد غيبة ثلاثين يوماً زادوا يوماً بيوم باريس ، الخرطوم الوطن والناس والأهل .

الخرطوم والتى من أجلها ، كان السفر الطويل ، ولها الآن كل مشاعر الشوق والحنين .

كان مقرراً أن تقلع الطائرة فى منتصف الليل بتوقيت باريس لتصل الخرطوم كما أعلن فى السادسة صباحاً بتوقيتنا المحلى ، ولكن من يملك الصبر ؟

منذ السادسة مساءاً كنت أتململ ، فى التاسعة فاض الصبر عن حدود التحمل ، فى العاشرة تحركت من الفندق إلى المطـار لتقلع الطائرة قبل موعدها المقرر بساعة كاملة .

* * *

فى الطائرة . . كان الجو صاخبا .

شئ كالقلق ، بل هو القلق أمسك بخناق الجميع وأنا معهم ، لم ينم من فيها ، كل من فيها رغم أن سفر الليل يسلب اليقظة من العيـون .

ضاق صدرى بشعور ممض بالضيق ، امتدت يـدى إلى ما لا يفارقنى ، كتاب الله الكريم ، وانفتحت الصفحات الكريمة على آيات كريمة :

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

قرأت الآيات المباركات ، وتأهبت لقراءة ما بعدها إلا أننى توقفت عندها ، أبى اللسان والصدر والقلب إلا أن يرددها ، ثم يرددها ، ثم يرددها ، وعندما مست الطائرة أرض مطار الخرطوم فى الخامسة وليس فى السادسة كما كان مقرراً ، كان لسانى وصدرى وقلبى يرددها . على سلم الطائرة ، على أرض المطار ، ثم طوال يوم وليلة ، كانت مضيئة فى القلب بمشاعر الإحساس بالاطمئنان والإيمان ، رغم ما يحدث .

على أرض المطار ، كان صف المستقبلين لا يجاوزون العشرة ، غيرهم على الأرجح فى الطريق ، فالطائرة وصلت قبل موعدها .

صافحت وعانقت ، واتجهت خطواتى نحو استراحة المطار ، يلاحقنى مندوبى الإذاعة والصحف والتليفزيون يطلبون تصريحات حول الرحلة ونتائجها .

وعلى باب الاستراحة ، دوت طلقات ، ثم طلقات ، ثم دوى مكتوم ، ثم آخر مرتفع ، ولمحت قريباً وقريباً جداً لمعة الشرر من

الرصاص المنطلق وخيوطاً باهتة لدخان ، وأحاط بى كل من يستطيع أن يصلنى ، طلب الجميع أن أستقل سيارتى وأغادر المطار على الفور ، فهناك أحداث غامضة تجرى الآن فى المطار ، إطلاق رصاص وعناصر مسلحة تزحف ، غير معروف حتى الآن هويتها ،

كما أن الليلة الماضية كانت تنذر بعاصفة وشيكة من الفوضى والتخريب ، وأن الذين رصدوا تأهبوا ، إلا أنهم أعادوا حساباتهم واستبعدوا ما بلغ أسماعهم ، فألغيت حالة التأهب بما فى ذلك حراسة المطار ، إلا أن ما يحدث الآن ، يدل على أن ما بلغهم كان صائباً ، وأن استبعادهم له كان خطيئة تعز على الغفران .

بيقين كاليقين رفضت ، ليس عناداً وليس مكابرة ولا حتى ادعاء شجاعة . وتردد فى صدرى قول الله الكريم :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

تابعت خطواتى داخل استراحة المطار ، يحيط بى مندوبوا الإذاعة والصحف والتلفزيون ، وعلى مدى دقائق طويلة تحدثت عن الرحلة ومراحلها ونتائجها ، وتداخل صوتى مع صوت الرصاص فى الخارج ودوى الانفجارات القريبة . وأنهيت حديثى ، وتوجهت إلى الخارج فالسيارة ، وعايشت بعد ذلك أحداث اليوم العصيب .

كان لابد فى البداية من إلمام كامل بما يحدث ، ما سمعته فى المطار لم يكن كافياً ، من نقله لم يكن ملما بكل التفاصيل ، فشاب الصورة غموض قاتم .

من الذى يطلق الرصاص . . ؟

ما هى أهدافهم . . ؟

ما هو حجمهم . . عدداً وتسليحاً . . ؟

من أين جاءوا ، من الداخل . . وهو احتمال مستبعد فنوعية الأسلحة كما سمعت وصوت إطلاقها ، لا يمكن أن تتوافر إلا لقوة نظامية حديثة التسليح .

من الخارج . . من أين وكيف وصلوا ؟

مدى انتشارهم فى المدينـــة ، مدى سيطرتهم على الأهداف الاستراتيجية فيها ؟

ثم من يتصدى لهم . . ؟

ولقد كان السؤال الأخير ، هو السؤال الوحيد الذى توصلت إلى إجابة قاطعة له ومنذ أن تردد على ذهنى .

تتصدى لهم الأجهزة المسئولة عن الحفاظ عن أمن الوطن وأمن

المواطن ، هذا دورها وذلك واجبها ، وعلى رأس تلك الأجهزة قوات الشعب المسلحة .

يتصدى لهم الناس ، فما يحدث هو تهديد أكيد لمكاسبهم .

لا شك فى إمكانية التصدى ، ولا شك فى إرادة التصدى ، ولكن هناك عنصر المفاجأة ، ثم اليوم هو الجمعة ، حيث يتباعد الناس عن مواقع تجمعهم ، وحيث يركن الضباط والجنود إلى مساكنهم بعيداً عن الثكنات ، ولا يبقى إلا أقل القليل منهم ، لواجبات الحراسة الروتينية .

ولسوف يكون ذلك عائقاً أمام الحسم السريع لما يجرى ، وإهداراً لدماء وأرواح بريئة .

إلا أن الأمور مضت بأسرع مما كنت أتصور ، كان حجم المهاجمين كبيراً نسبياً ، وقد توزعوا وانتشروا فى جميع أنحاء المدينة ، واستطاعوا بصدمة المفاجأة أن يحتلوا مواقع استراتيجية ، منها دار الإذاعة ومداخل الكبارى ومخارجها ، واشتبكوا ومنذ اللحظة الأولى مع الحراسات الروتينية فى بعض الثكنات العسكرية ، وانفردوا ببعض الطائرات والمعدات فى القاعدة الجوية ودمروها ، واقتحموا الأحياء ، وأرهبوا وقتلوا واستباحوا دماء الأبرياء .

كان مفترضا أن يتواصل فعل الصدمة بالمفاجأة ، ثم تفرق الناس فى يوم الجمعة ، فتتمهل المقاومة وخاصة أن الاتصالات الهاتفية

كانت قد انقطعت فور استيلاء المهاجمين على دار الهاتف ، كما أن الطرقات والجسور المحتلة منهم ، شكلت عوائق للانتقال والاتصال ، إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً .

انضم الضباط والجنود ، كل الضباط والجنود فى القوات المسلحة والقوات النظامية إلى أقرب الوحدات العسكرية من مكان تواجدهم لحظة بداية الأحداث ، وتشكلت وعلى الفور جماعات للاستطلاع ، وضعت مخططات الهجوم المضاد فى ضوء ما نجحت فى تجميعه من معلومات عن المهاجمين وتسليحهم وانتشارهم وتمركزهم .

ثم بدأت بعد ذلك قوات الهجوم المضاد تتحرك ، تحركت وفى حساباتها أن عليها أن تقاتل داخل مدينة .

حياة الناس هى أثمن ما فيها ، وأموال الناس ومنشآتهم لا ينبغى أن تتعرض لما يهددها من خلال قصف عشوائى ، ثم عليها أن تراعى الانتشار الواسع للمسلحين ، وأن تتجنب التطويق من خلفها وهى تتقدم ، ثم عليها فى النهاية أن تنتهى من مهمتها فى أسرع وقت ممكن .

وتحركت الشمس قليلا نحو الغرب ، وقبل أن تغيب كان المد المسلح قد انحسر ، وعادت السيطرة كاملة على المدينة بكاملها .

* * *

ساعات هى الإعصار ، فما كانت حصيلته .؟

شهداء استشهدوا ، وضحايا سقطوا . . هم ضحايا وإلا فما معنى الدهشة التى تصل إلى حد تكذيب العيون والأسماع ، وهى ترى مسلمين يقومون للصــلاة رغم أنهم فى الأسر متى حانت مواعيدها ، لقد قالوا لهم إنهم مكلفون لمحاربة الكفرة والملحدين والمشركين فى الخرطوم ، فكيف يعرف مثل هؤلاء الصلاة . ؟

هم الضحايا لصراع لم يدركوا أبعاده ، فاندفعوا ليواجهوا كفرة ، فإذا بهم يقتلون إخوة لهم وأشقاء وأهلا يدينون بالإسلام وتلهج قلوبهم وألسنتهم بشهادة أن لا إلــه إلا الله محمــد رسول الله آناء الليل وأطراف النهار .

* * *

عندما انحسر ليل الأحداث ، تفرغ القلب للأحزان

* ذلك الذى لم يصده الخطر عن أداء واجبه فاتجه إلى المستشفى يمارس عمله كطبيب ، دون أى تفرقة بين جريح وجريح ، ومن أى طرف من أطراف الصدام يكون .

وفى الطريق يعترضون طريقه ، ويصمد رافضاً امتهان شرف ما يرتدى ، ويموت واقفاً كما يموت الشهداء .

* ذلك الذى حدد مكانه بين جنوده ، متقدماً على قدميه ، فسقط فى الطريق ، ومات وهو يرى جنوده يتقدمون .

* ذلك الذى حاول بالحوار ، أن لا يهدر الدم وسقط دون أن يجد لحواره صدى إلا باطلاق الرصاص .

* ذلك الذى اعترض شاحنة ملئت بالمتفجرات ، تتجه إلى تجمع صناعى ، فاعترضها وحده ، وفجرها وتفجر معها .

* ذلك الذى عاد للتو من بعثة دراسية فى الخارج ، ممنيا النفس بخدمة بلاده بعد أن تزود لها بأرفع الدرجات العليا ، وقتل لمجرد أنه نزل ضيفاً فى رحاب شقيق .

* ذلك الذى عاد للوطن بعد غيبة السنين . . وصل ليلا ، ليشهد الصباح التالى مباشرة مصرعه دون ذنب .

* تلك التى حملت أشواقها لوحيدة تزوجت وابتعدت عن موطن الأهل ، فحالت رصاصة فى الصدر ، دون أن يروى اللقاء ظمأ الأشواق .

وماذا بعد الأحزان .

يبقى الانبهار ببطولة الإنسان ، إذا آمن أنه فى مواقع الحق يذود عنه بحياته .

توقفت الإذاعة ، وما استطاع حتى الموت أن يغرى فنييها ومذيعيها ، بالاستجابة لمن طلب .

تراجعت عن قصر الشعب جحافل مسلحة ، رغم أن من تصدوا لهم كانوا بالعدد والتسليح قلة .

استماتت قلائل للدفاع عن مسكن كان هو الهدف الأول ، تكاثروا

حوله ، شددوا القصف عليه ، أعادوا الهجوم مرة ومرة ، إلا أنهم تراجعوا أمام استماتة من تصدوا له ، لأنه لم يكن مسكناً وإنما كان رمزاً .

ورغم أن من كان فيه بعضاً من النساء من أهلى وكنت بعيداً فى موقع بديل للقيادة .

* * *

يسطع فى ظلام الأحداث ، ما فجر الدموع بعدها بأيام .

بعد أن شاركت فى القمة الأفريقية التى انعقدت فى موريشوس ، هبطت بى الطائرة فى مطار جوبا ، وعلى أرض المطار ، تفجر الدمع ، لحظة لامست قدماى أرضه .

غالبنى الدمع فما استطعت إمساكه ، صافحت من صافحت عانقت من عانقت والدموع ينابيع تتجدد ، ذلك أن جوبا كانت هى الخرطوم ، بل هى السودان كله ، فلقد كان صوت إذاعتها هو صوت السودان للسودان والعالم ساعة توقفت إذاعة أم درمان عن الإرسال فى خضم الأحداث ، ومنها كان صوت جوبا الجنوب والوحدة ، هو صوت السودان الواحد الموحد .

أى صرح كانوا يريدون هدمه ، أى ذبيح كانوا سينحرون ؟

* * *

ثم يبقى بعد ما جرى ، ما صاغ وجوده .

لقاء بين اجتهاد وغرض .

اجتهاد للمعارضة تلون موقفه بلون أفكاره ، فخالف واختلف وارتضى الاغتراب وخرج ، وغرض تلون بالحماس لقوميته ، فظن أن الوحدة الشاملة إنما تبدأ وتنتهى بإرادة الحكام .

واختلفنا .

كنت أرى أن الوحدة القومية ، إنما هى بناء يقوم على الوحدة الوطنية ، وإلا كانت صرحاً لا تسنده إلا الرمال .

كنت أرى أن الوحدة القومية ، هى مصير شعب ، ولأنها مصيره ، فيجب أن تصوغه إرادته عبر قناعة الإجماع وأن تقننها مؤسساته ، وإلا كانت كالزبد ، تطفو بالحماس وتنحسر بالأهواء .

كنت أرى أن فاصل الزمن بين تاريخ توحدت فيه الأمة ، وحاضر تبلورت فيه الدول ، قد أدى إلى فوارق لا يمكن إنكارها ، فى المزاج والعادات والتقاليد والقيم ودرجة النمو الاقتصادى ، ولهذا فإن تحقيق التجانس بالتواصل وتحقيق التكافؤ بمضاعفة جهود البناء مطلوب وضرورى وحاسم ، كخطوات تمهد للوحدة القومية وتفرضها .

كنت أرى أن التاريخ الاستعمارى فى أمتنا لم ينهب الثروات وحدها ، ولا جمد سنة التطور فى بلادنا ، وإنما معها ، خلق حساسيات ينبغى تجاوزها فى الداخل أولا ، قبل أن ننطلق لصياغة كيان عظيم ، وإلا فإنها ستنقل إليه ومنذ اللحظة الأولى الحساسيات والتمزق .

كنت أرى أن هدف الدرب النبيل ، لا يغنى عن ضرورة التبشير به والدعوة إليه ، وإلا لمضى فيه نصف مؤمن ونصف مقتنع ، وهؤلاء أخطر على الغاية العظمى من الرافضين والمنكرين ، وأمامنا تجربة (الجمهورية العربية المتحدة) والتى كان دعامات الانفصال فيها ، هم الذين صاغوا وجودها فى اختيـــار نصفه قناعة ونصفه غرض .

كنت أرى أن قناعة القيادات ولو صدقت ، لا تغنى عن قناعة الناس فهم الأبقى والأخلد .

وهى قناعة لا يمكن أن تحققها الأقوال والشعارات والخطب والندوات ، وإنما تتحقق بلمس اليد ورؤية العين لمصالح تتحقق ، بالتعاون كخطوة على طريق التكامل ، والذى ينتهى بفرض الناس للوحدة ، وليس فرض الوحدة على الناس .

وأمامنا تجربة السوق الأوروبية المشتركة ، وهى تكامل مصالح ، أدت بغير إعلان إلى وحدة سياسية حقيقية ، حيث تهاوت حدود عمدها دم العداء لقرون وقرون ، وتقاربت الشعوب واتصلت وتواصلت بغير عوائق رغم حواجز اللغة ومذاهب الدين .

كنت أقول، والسودان فى خاطرى ما كان عليه من التمزق فى ذلك الوقت المبكر فى نهاية الستينات وأوئل السبعينات.

كنت أقول : والأمة العربية ما أرى ، تجربة للوحدة قامت ثم تهاوت ، فى أقل من ثلاث سنوات رغم حماس دفع الناس لحمل السيارات على الأعناق.

كنت أقول : والعقيدة السياسية الواحدة تحكم فى قطرين بل وحزب واحد ينقسم إلى فرعين ، ومع ذلك ، فلا اتحاد ولا وحدة ، بل ولا تعاون ولا تضامن ، بل عداء وصل إلى حد التصدى لمسارات الأنهار .

كنت أقول : وأمد يدى بالبديل .

منهاج مثلث للتكامل الاقتصادى ، تتوفر فيه الموارد والأموال والأيدى العاملة والخبرة .

ولأن ما قلت لم يصادف الهوى ، فلقد انحسر التضامن فالتساند ، فالتعاون ، ليفسح الباب أمام القطيعة ومنها دخل العداء .

ولذلك فحين التقى الاجتهاد مع الغرض ، فلقد انحسر اجتهاد الخلاف فى الرأى ليخوض فى بحر العداوة ينهل منه ويقوى به ويستعين بمقدراته ويتجمع فى رحابه وينطلق من أرضه ، ولكن أبداً ومطلقاً ، فإنه لم يكن يعمل لحسابه حتى وإن كان الغرض قد أسهم بما أسهم مدفوعاً بظنون الأطماع .

قاد بحر العداء سفينة الخلاف إلى صخور المصادمة ، وقاد الاغتراب الطويل إلى عزلة ، ساعدت المنافقين ، على رسم صورة الداخل وكأنه الجحيم يستجير منه الناس وينتظرون الخلاص .

ورغم ما جرى فلقد صور العدو والشقيق والصديق ، كل لغرض فى نفسه بطولة المقاومة ، وكأنها صدى لعون من الخارج قهر القادمين والقدامى ، فاستسلموا لليلهم الحالك من جديد .

* * *

عام واحد فقط .

يوليو آخر من عام جديد .

الطائرة التى أقلتنى من ليبرفيل عاصمة الجابون ، بعد حضور اجتماع القمة الأفريقية ، تحط فى مطار الخرطوم انفض المودعون ، وتفرق المرافقون كل إلى داره .

ما أن وصل الطبيب المرافق لى إلى منزله ، حتى فوجئ بمن يستدعيه للعودة إلى المطار فوراً .

قال بعدها :

فى الطريق لعنت نفسى ألف مرة ، ما الذى دفعنى لأسبق من كنت أرافقه وأغادر المطار ، ماذا حدث له . . ؟ وهل يستدعى الطبيب إلا لحالات المرض .

ماذا أقول للناس ، بل ماذا أقول لنفسى ، طبيب ينسى مهمته ، فيكون أسبق الخارجين ، بينما ينبغى أن يكون آخر الذاهبين .

مرافق آخر تلقى الاستدعاء ، وكان خياله أكثر رحمة به ، فقد ظن أنه حدث خلط عند استلام الحقائب ، ومطلوب منه أن يعود للتعرف على حقيبته . . وعاد .

فى المطار ، استقبلت نفس الطائرة التى وصلت لتوها من الجابون ، الثلاثة :

الطبيب المرافق ، والمرافق ، وشخصى .

ومنعتهم الدهشة أن يسألوا على الفور ، وحينما تحركت الطائرة على أرض المطار ، قالوا معاً : وبصوت واحد . . إلى أين . . ؟ وقلت :

هى رحلة قصيرة للاستجمام .

ويسأل الطبيب . داخل السودان أم خارج السودان . وأقول : سوف ترى .

* * *

مطار بورسودان هادئ على غير عادته فى كل مرة أزور فيها المدينة ، ذلك أن الناس فى كل مرة يملؤون الشوارع

والطرقات والمطار وساحاته الداخلية والخارجية بل ويقتربون إلى درجة الخطر من ممر الطائرات .

هذه المرة ، المطار هادئ ، ولا أحد فى الاستقبال سوى محافظ المدينة ، وسيارتين ، أقلتا الجميع إلى الاستراحة ، وهناك انفردت بالمحافظ لحظات ، خرج بعدها .

وسمعت الطبيب يقول للمرافق الآخر ، ألا يمكن أن يكون الاستجمام إلا فى بور سودان ، لما لا تكون جنيف على ضفاف بحيرة لوزان ، ألا تتشابه المدينتان فى القافية على الأقل . . بور سودان ، ولوزان .

وضحكنا .

* * *

فى أصيل اليوم التالى .

شهدتنى سواكن ، ما تبقى شامخاً من قصور مدينة أخلاها الناس فسكنها الخراب ، زحفت الصخور المرجانية إلى مينائها ، فكان البديل ميناء بور سودان .

وحول الميناء الجديد ، قامت مدينة جديدة ، جذبت الناس إليها ، فلم يعد فى سواكن سوى أطلال شاهدة على المجد القديم .

توجهت إلى سواكن بسيارة قدتها بنفسى ، لم يرافقنى سوى الطبيب والمرافق .

تأملت الخراب ولعنته .

واغترفت من ماء البحر ، توضأت ، صليت وظهرى للأطلال ووجهى البيت العامر العتيق .

عدنا إلى الاستراحة وقد غابت الشمس .

فى مطلع الليل . . دخل المكان ثلاثة .

مواطن كريم ، أنعم بصداقته ، وأظنه ينعم بصداقتى بغير مطمع .

ومسئول يتولى شئون قصر الرئاسة .

ثم هو

ذلك الذى اجتهد فاختلف ، اغترب وخاض فى بحر الصدام ، وأعلن مسئوليته عن أحداث مضى عليها اليوم عام وبضعة أيام .

كيف يمكن أن تتجسد الدهشة ، الوجوم ، الجمود ، بل هى ما قال الطبيب المرافق ، لقد كانت الموت أو هى إلى الموت أقرب ، انقطع الاتصال بين العقل والجسد فلا العقل نشط ، ولا الأطراف استجابت .

عانقت القادمين ، صافحت الرجل ، ثم وجدتنى وإياه نتجه للعناق وفى لحظة واحدة .

دموع جوبا تكررت فى بور سودان ، وإن لم تذرفها عيونى .

اهتز من يرافقنى غير الطبيب ، بعد جمود الدهشة . . وابتعد وأجهش بالبكاء فى صوت مسموع

انتقلت مع الرجل إلى غرفتى بالطابق العلوى من الاستراحة . . وكان حوار .

* * *

بدأ الحوار وانتهى بالوفاق .

بدأ بما أكبرته منذ لحظة حضوره ، بل فى نفس اللحظة التى لمحته فيها .

الرجل هو نفس الرجل ، الذى جرت محاكمته غيابياً وحكم عليه بالإعـدام .

الرجل هو نفس الرجل ، الذى ما أخفى عداءه ، ولا تنصل عن مسئوليته ، عن أحداث سالت فيها دماء .

الرجل هو نفس الرجل ، الذى هاجم وهوجم ، وكان مطلوباً بالإلحاح للقصاص منه .

الرجل يحضر طوعا للسودان ، لا يحرسه مما يمكن أن يسميه هو الغدر ، ويسميه غيره عدل القصاص ، سوى ثقة فى واحد من الناس ، هو خصمه وغريمه.

شجاعة كانت دليلى على صدقه .

ولقد كان صادقاً .

أخبرنى أن أهله الذين كانوا حوله حيث يقيم ، قد ودعوه بالبكاء واحتسبوا فيه الرحمن ، وودعوه وداع راحل لن يعود .

حاولوا طوال أيام أن يثنوه عما اعتزم . . حاولوا بالمنطق حاولوا بالدموع ، ولكن أصر على ما انتواه .

وسألته والفجر يطل علينا بعد ليل ساهر . . وأنت ألم يهتز يقينك وشككت مجرد الشك ، بأنه من الممكن ألا تعود . . ؟

ويقول : مطلقاً .

وأسأل : لماذا . . ؟

يقول : لأننا سودانيون ، قد يبلغ بنا العداء صدام الدم ، لكننا وأبداً لا نخون العهد ، ولا نقدس من قيم الحياة أكثر من فضيلة الوفاء .

وحينما اجتمع الجميع على مائدة الإفطار .

بدا لى أن ما حدث قبل عام ، ما كان له أن يكون . ففيم كان الخلاف .

* * *

حوار الليل كان استعراضاً ، وعرضاً .

استعراضاً لما تحقق للناس ، على مدى ثمان سنوات كانت قد مضت يوم التقينا ، وكنت على يقين بأن ما يسمعه منى ليس غريباً على فكره .

فالرجل نفس الرجل ، هو الذى حمل لـــواء الهجوم على الطائفية مما وضعه موضع المواجهة مع أسرته وأهله .

والرجل نفس الرجل ، كان قد أعلن كفرانه بالحزبية ، وله تصوره حول التنظيم السياسى الشامل ، وحتى لو اختلفت تفاصيل تصوره عن ما هو قائم ، فإنه يبقى خلاف تفاصيل .

والرجل نفس الرجل ، بحكم نشأته وفكره وأصوله ، اتصالا وقربى بقائد الثورة السودانية القومية العظمى ، ولا يمكن أن يكون إلا مع وحدة السودان وبناء الأمة السودانية الموحدة .

الرجل نفس الرجل ، بثقافته وفكره ومعايشته لواقع بلاده ، إنما هو مع التنمية ضد التخلف ، مع التحديث ضد الجمود ، مع التطوير ضد الوقفة الكسولة أمام الزمن ينطلق بالعالم ، ويتجمد أمامه السودان .

وللرجل أفكار مكتوبة ومسموعة ، عن نوع الديمقراطية المطلوبة .

وللرجل أفكاره المدونة ، عن دور الجيوش فى العالم الثالث وفى

معركة التقدم الاجتماعى والاقتصادى ، وتوظيف السلطة لصالح الناس .

ثم إن الرجل ، كمفكر إسلامى ، يشاطرنى الإيمان بأن الإسلام كان باعث حضارة كانت ، وأنه لا بديل عنه ، لقيام حضارة تكون .

لا خلاف ولا اختلاف .

ثم كان بعد الاستعراض عرض .

عرض للمشاركة فيما هو قائم ، مع الاعتراف بأنه ليس هو الكمال المطلق ، فالكمال لله وحده ، وأن لا شئ عصى على التطوير والتغيير ، ولكن من خلال المؤسسات القائمة ومن خلال ما تحدد فى الدستور والوثائق من طرائق للتغيير ، عبر إجماع الأغلبية واحترام رأى الأقلية .

دون تكتل . . ودون تحزب .

وعاد من حيث أتى .

وعدت بعدها إلى الخرطوم .

• • •

لم يعلن رسمياً عن خبر اللقاء .

إلا أن الناس تناقلته كإشاعة .

استبعد صحتها الجميع . . وإن ظل اللغط حولها نشطاً . وفى توقيت أردته .

أعلنت النبأ للناس فى لقاء المكاشفة الشهرى ، وانفجرت البراكين .

كان جرح عام مضى يستجيب بالوجيعة فى وجدان بعض الناس ، إذا ما تحسسوه تذكروا ، وقد ذكروه عند إعلان النبأ ، فتجددت فى نفوسهم الآلام والأحزان .

منهم من صبر ، ومنهم من صمد ، ومنهم من عارض ومنهم من اعترض ، وأحدهم طلب أن يعفى من تحمل مسئولياته ، لأنه فى ظل الظروف الجديدة لا يستطيع .

كان ذلك ما كان على السطح قائماً .

ماذا كان خلف الستار .

كانت اجتماعات تعقد ، وشباب يعبأ ، ومواكب تنظم ومظاهرات يخطط لها للإعلان عن الاحتجاج .

صور بعض الناس لبعض الناس ، أن ما حدث إنما هو تراجع الجديد أمام القديم .

هو استسلام بعد النصر ، وتلك شر ألوان الهزيمة .

ونشطت الشائعات والأغراض فى نسج روايات الخيال . . شروط فرضت ، اشتراطات قبلت .

تراجع عن كل ما تحقق ، وعودة إلى الضلال القديم .

تعدد الأحزاب ، عودة الطائفية ، ردة عن مكاسب انتزعها الناس بالدم .

واحتكمت للأيام لتحكم .

هى وحدها الفاصلة بين الحق والباطل .

هى وحدها نور الحقيقة واليقين .

* * *

ومرت الأيام .

عاد الرجل لوطنه .

واتسعت ساحة المشاركة ، وتجمع الناس ، تحاوروا ، اتفقوا واختلفوا ، ولكن فى إطار الشرعية ومؤسساتها ووفق ضوابطها .

والتقيت بالرجل مرات ومرات .

تواصل بيننا الحوار وتواصل .

اتفقت آراؤنا حينا ، اختلفت توجهاتنا أحياناً ، ولكنه دائماً وأبداً خلاف حول التفاصيل .

* * *

ويسألون عن كلمة السر فى كل ما حدث .

أقول هى جملة فى سيـــاق حديث ، نقلها عنه من كان ينتقل بيننا بوساطته الحميدة ، قبل اللقاء ، نقل عنه قوله :

« فليكن الخلاف بيننا ما يكون ، ولكن الأيام أثبتت أن مكمن الخطر فيه ، أنه يفتح الطريق واسعاً لتدخل الغريب » .

هى كلمة السر ، ودلالة الصدق ، ومدخل اتسع واجتاح كل سدود الخلاف ، هى أصالة السودان وأصالة السودانيين يتلاحمون صداماً ، ولكن عيونهم دائماً على مداخل كرامتهم فإذا بهم يتلاحمون عناقاً ، حتى لا تنفذ من خلالهم أطماع الغريب .

* * *

الفصل السادس

هذه الأمة

اختلفت آراؤنا حيناً ، واختلفت توجهاتنا أحياناً ، ولكنه دائماً رأيناه خلافاً حول التفاصيل .

* * *

ويسألون عن كلمة السر في كل ما حدث .

أقول هي جملة في سياق حديث ، نقلها عنه من كان يتنقل بيننا بوساطته الحميدة ، قبل اللقاء ، نقل منه قوله :

« فليكن الخلاف بيننا ما يكون ، ولكن الأيام أثبتت أن مكمن الخطر فيه ، أنه [illegible] الغريب » .

هي كلمة السر ، ودلالة الصدق ، ومدخل الصلح واجتياح كل سدود الخلاف ، هي أصالة السودان وأصالة السودانيين يختلفون صداماً ، ولكن عيونهم دائماً على مداخل كراماتهم فإذا بهم يتلاحمون عناقاً ، حتى لا تنفذ من خلافهم أطماع الغريب .

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

هـذه الأمـة

كان السودان يمر بمرحلة الحرج .

قبل عام ، كانت السيول قد اجتاحت أواسط وشمال وشرق السودان بصورة لم تشهدها البلاد من قبل ، أعلنت حالة الطوارئ ، وأصدرنا نـداءاً لدول العالم لتقديم المساعدات العاجلة تدفقت المساعدات وكانت فعالة ، إلا أن فعاليتها كانت قاصرة على مقابلة ما هو طارئ ، كالحاجة للأدوية والأمصال والخيام والأغذية ، فيما كان على السودان وحده أن يتحمل نتائج ضياع موسم زراعى كامل ، ذلك أن الأمطار ، وخاصة فى منطقة الجزيرة لم تجتح القرى وحدها ، وإنما اجتاحت الترع والقنوات والأسمدة والمبيدات ، والتى كان قد تم استيرادها لمقابلة احتياجات موسم زراعى لم يبدأ .

من طائرة مروحية فوق مناطق السيول ، كان المشهد يوحى بأن النيل الأعظم قد تراجع جنوباً ، بعد أن غطت المياه المساحة الفاصلة بين النيل الأبيض والنيـل الأزرق وهى كل منطقة الجزيرة ،

لذلك فإن توقف الأمطار لم يكن يعنى بداية الجهود لمعاودة الزراعة ، كان لابد من وقت طويل ، حتى تنحسر المياه ، وتجف الأرض ، لتبدأ الناس من جديد فى إعادة التخطيط وإقامة القنوات وترميم الترع واستيراد مبيدات وأسمدة وبذور جديدة ، فى الوقت الذى ينبغى فيه أن تنصرف جهودهم أيضاً لترميم قراهم وإعادة بناء مساكنهم .

بدأت زراعة القطن متأخرة عن موعدها ، فجاء محصول القطن وهو محصول التصدير الرئيسى والمصدر الأساسى للعملة الصعبة دون المتوسط بكثير ، ولذلك فلقد كان علينا أن نواجه عام الحرج بجهود مكثفة .

وفى نفس الوقت ، فقد كان نفس العام ، هو عام توليت فيه مسئولية رئاسة منظمة الوحدة الأفريقية ، وكان هذا يقتضى أن أتفرغ لقضايا القارة الملتهبة والمتغيرة ، فى نفس الفترة والتى شهدت بوادر الصراع المسلح بين تنزانيا ويوغندا ، وتصاعد الأزمة الردويسية وقضية الصحراء الغربية .

فى مثل هذه الظروف ، صدر قرار مجلس الجامعة العربية بتشكيل لجنة التضامن العربى ، وكلفت برئاستها .

مشاغل الداخل مربكة ، ومشاكل أفريقيا لا تحتمل التأجيل ، ومع ذلك فلقد قبلت التكليف مدركاً لأعبائه وجسامته ، لم يكن الأمر

مجرد جهود مطلوبة لإحياء التضامن العربى ، والذى ترنح بزيارة الرئيس السادات للقدس ، وإنما كان المطلوب أخطر من ذلك وأكبر ، وذلك فى ضوء الظروف التى كانت تمر بها الأمة العربية حتى قبل الزيارة ، والظروف التى تتربص بالمنطقة العربية بعد الزيارة ، والتى كنت ومازلت أرى أن الخطر فيها لا تمثله حتى إسرائيل بمطامعها ، ولا القوى الكبرى بمخططاتها ، وإنما الخطر كل الخطر إنما مصدره الأمة العربية نفسها على الأمـــة العربية ذاتها .

فمع الإعتراف بالأمجاد التى حققتها العسكرية العربية فى حرب أكتوبر المجيدة ، إلا أنه يظل لهذه الحرب فضل إبراز وتجسيد التضامن العربى فى أشمـــخ صورة كحقيقة ساطعة تؤكد وحـــدة هذه الأمة وترابطها وتماسكها وخاصة فى ساعات الاختبار المصيرى ، ولعل المفاجأة الاستراتيجية فى هذه الحرب ، لم تكن قاصرة على التوقيت الذى فاجأ العالم ، والتنسيق المذهل بين الجبهتين السورية والمصرية فقط . وإنما كانت المفاجأة الأخطر فى سقوط الرهان الإسرائيلى بل والعـــالمى على عجز الأمة العربية عن حشد جهودها وتعبئتها وتوجيهها فى الوقت المناسب والمكان المناسب رغم كل العقبات والمحاذير .

اندلعت حرب أكتوبر بمبادرة من سوريا ومصر ، فيما تساوت الدول العـــربية مع دول العالم والتى فوجئت بالنار تشتعل فجأة

فى الشرق الأوسط ، مع هذا فلقد سقطت كل الحساسيات العربية وسقطت معها حواجز المسافة .

جيش العراق بدون دعوة ، يخترق الحدود السورية وتقطع دباباته مئات الكيلو مترات ، وهى تسابق الزمن لتصل وتلتحم على الفور مع الجيش السورى ويصطدمان معاً مع العدو فى أشرس معارك الدبابات التى شهدها العالم .

جيش الأردن ، رغم كل المحاذير ، والتى كانت تفرض تواجده حيث هو للتصدى لأى هجمة إسرائيلية تخترق نهر الأردن لتشكل عقبة تعترض الإمداد العراقى ، انتقل ببعض قطاعاته إلى الجبهة السورية .

قوات مغربية تتدفق على سوريا ، قوات جوية جزائرية تعمل على الجبهة المصرية ، طائرات تنتقل من قواعدها فى ليبيا لتكون تحت أمر القيادة العسكرية فى مصر ، وحدات عسكرية من السعودية والسودان ودولة الإمارات والكويت تأخذ مكانها فى ساحة المواجهة .

الراحل الشهيد فيصل بن عبد العزيز ، يصدر قراره بدخول البترول العربى فى المعركة .

زايد بن سلطان ، يطلق كلمته العظيمة ، بأن البترول للعرب وقضايا العرب ، وليس العرب للبترول ، ويقول لمن يسأله عن الموارد

البديلة ، « إننا عشنا قبل البترول فى الخيام ، ولن نضار كثيراً بالعودة إليها ، ولكن غيرنا لا يستطيع أن يعيش بدون تدفق البترول من أراضينا » .

هوارى بومدين ، يطير إلى موسكو ، ليسدد مقدماً قيمة ما يتطلبه وتصمت المدافع .

لينفجر الخلاف العربى ، ولا تبقى إلا ذكريات مجيدة لتضامن عربى حقق المعجزات ، وتعود حرب الحملات والمهاتـرات والاتهامات ، وينحسر من شواطئ الأمة العربية كل أمجادها التى تحققت بالتضامن ، تؤدى اتفاقية فض الاشتباك فى سيناء إلى فض التلاحم بين شركاء المعركة العظيمة ، فتتواجه مصر وسوريا ، رغم أن أراضى لمصر وسوريا مازالت تحت قبضة العدو الإسرائيلى .

يؤدى وقف إطلاق النار على الجبهة السورية ، إلى خصومة سورية عراقية ، تنتهى بانسحاب الجيش العراقى من الجولان رغم عدم اكتمال تحريرها .

تنعقد قمة فى الجزائر وأخرى فى الرباط ويتأكد الإجماع العربى على هدف واحد ، هو تحرير الأرض المحتلة وبعد ذلك تتوالى محن التمزق .

• صراع مسلح بين الجزائر والمغرب حول الصحراء الغربية ، رغم أننا ننتمى لأمة تناضل من أجل وحدتها من المحيط إلى الخليج .

* صراع يتأرجح فيه موضع موريتانيا مرة مع المغرب وضد الجزائر ، ومرة مع الجزائر وضد المغرب حول نفس القضية .

* صراع بين تونس وليبيا حول الجرف القارى ، رغم أن القطرين الشقيقين ، كانا على أعتاب الوحدة ، حين عقدوا اتفـــاق (جربه) الذى لم يعمر سوى ساعات .

* صراع بين العراق وسوريا ، رغم وحدة الحزب ، والذى يرفع فى دمشق وبغداد شعار يقول عن الأمة العربية ، بأنها واحدة وذات رسالة خالدة .

* صراع بين الشطر الجنوبى من اليمن ، مع الشطر الشمالى وصل إلى حد الهجوم المسلح .

* صراع بين عمان واليمن الجنوبى ، رغم تداخل الحدود وتداخل القبائل .

* خلاف بين السودان وليبيا وصل إلى حد القطيعة ، ووفاق بين السودان والسعودية ، أثار بين بعض الأشقاء الحسد ، وتكامل بين السودان ومصر ، استدعى من بعض الأشقاء الهجوم .

* خلافـــات عربية حول القضية الاريترية ، وأطراف عربية استقطبها الخلاف الصومالى الأثيوبى ، فوقف جانب منها مع الصومال ضد أثيوبيا ، ووقف جانب آخر مع أثيوبيا ضد الصومال ، مع الأخذ فى الاعتبار ، بأن الصومال كانت آخر الدول التى انضمت للجامعة العربية ، قبل جيبوتى .

* أطراف عربية تناصر المعسكر الشرقى فى صراعه مع المعسكر الغربى ، وأطراف عربية ، تناصر المعسكر الغربى فى صراعه مع المعسكر الشرقى ، وبالرغم من الوفاق بين القوتين الأعظم ، فإن الأطراف العربية المساندة لكل منهما ، لم تعرف الوفاق فيما بينها ، ولا هى عرفت به .

* ثم لبنان . . الجرح . . والنموذج المشئوم لما يمكن أن يكون عليه حالة أمة بأسرها .

انتقلت الخلافات العربية إلى ساحته ، لتتراشق بالسلاح فتمزق .

انتقلت المطامع الدولية على الأمة العربية لتعمل من خلاله فنجحت ولكن بأموال عربية وبسلاح عربى وبـــدماء عربية ، هى دماء كل الأطراف التى شاركت بالغفلة فى تنفيذ أهـــداف الطامعين فيها .

تواجه المسلمون والمسيحيون .

ثم تواجه المسلمون والمسلمون ، بعد أن صنفوا أنفسهم كيسار رافض ، ويمين معتدل .

ثم تواجه المسيحيون والمسيحيون ، بعد أن تكتلوا كتائب وأحراراً .

ثم تواجه الناس فيه ، بين أنصار الثورة الفلسطينية ، وطلاب للمهادنة مع إسرائيل .

ثم تواجه الفلسطينيون داخله ، تنظيمات هى فروع لمنظمة واحدة ، نالت شرعية وجودها باعتراف عربى شامل ، واعتراف دولى متزايد ، كممثل شرعى ووحيد للشعب الفسلطينى .

ثم أفرزت المواجهات مداخل لإسرائيل ، فأقامت الدويلة الطائفية الأولى فى العالم العربى ، دويلة حداد .

ثم ارتفعت أصوات تطالب بالتقسيم ، بل على الأصح تقنين التقسيم القائم فعلا ، والذى لا ينقصه إلا الشكليات .

ما الذى تبقى لهذه الأمة لتتوحد حوله ، وتجتمع فى إطاره .

لم يبق لها سوى إجماعها على موقف موحد تجاه إسرائيل ، فإذا تخلخل هذا الإجماع نتيجة اجتهادات مهما كانت النوايا ، فإن هذه الأمة ستكون على موعد مع أخطر خياراتها .

أن تكون أو لا تكون .

* * *

ولكى تكون .

فإن على الأمة العربية أن تدرك ما هو مطلوب لها علماً بأن المطلوب منها ، هو إجهاض كل خصائصها ، والتى هى نقيض لما يحفل به العالم ، وهى من هذه الزاوية ، خصم مفروض عليه عداوة كل طامع فى السيادة والسيطرة على مقدرات الدنيا .

الأمة العربية ، هى ذلك الكيان الهائل ، الذى يمتد عبر قارتين ، ويطل إلى درجة التداخل مع أوروبا ، وهى ساحة الاتصال بين الشرق والغـــرب بالمفهوم الجغرافى والسياسى ، وهى شرايين التواصل بين أفريقيا وأوروبا ، بين أفريقيا وأمريكا واستراليا .

هى الكيان الذى ينفرد بالإطلال على محيط يوصل إلى الشرق البعيد فى آسيا ، ومحيط يوصل إلى الغرب البعيد فى أوروبا .

هى القارة التى تلامس شواطئها بحراً يتصل بالحضارة الحديثة هو البحر الأبيض ، وبحراً يتصل بالحضارة العريقة هو البحر الأحمر .

هى ذلك المناخ المتدرج بالدفء على مدار العام ، والأرض المتدرجة المعطاءة من قمم الجبال إلى اتساع السهول ، من الغابات إلى الأراضى المروية بالأنهـــار والأمطار ، إلى الصحراء والتى يزيد عطاؤها على عطاء أى زرع وثمر .

ثم إن الأمة العربية ، هى إمكانية استمرار الحضارة فى العالم ، بل استمرار الحياة بما يحفل بـــه باطن أرضها من مصادر الطاقة وغيرها من المعادن .

ثم إن الأمة العربية بما هو أخطر من ذلك كله ، إنما هى الكيان الوحيد المتجانس ثقافياً ولغوياً ، رغم اتساع المساحة وبعـــد المسافة التى تفصل بين أبناء هذه الأمة ، بل ورغم كل الجهود التى بذلت خلال قرنين من الزمان ، لطمس الثقافة العـــربية ، وخاصة فى

دول المغرب العربى ، ويكفى لتوضيح خطورة هذا التجانس ، مقارنته بكيانات آسيا وأفريقيا وأوروبا وأمريكا اللاتينية ، فحيث تتعدد الدول ، تتعدد اللغات ، بل إن تعدد اللغات يفوق تعدد الدول ، فنرى فى الدولة الواحدة أكثر من لغة فتبلغ فى دول آسيا مئات اللغات ، وفى دول أفريقيا عشرات اللغات إلى جـــانب اللهجات ، والذى يبلغ تميزها درجة استحالة التواصل اللغوى .

بل إن أوروبا وهى القارة الأكثر تقدماً ، لا تشهد فحسب تعدد لغوى باختلاف الدول ، بل إنها تشهد صراعاً لغويا داخل الدولة الواحدة ، نرى ذلك واضحاً فى بلجيكا ، نرى اللغات متعددة فى سويسرا ، بل ونجد الصراع بين مذاهب الدين الواحـــد كما هو الحال فى أيرلندا ، ثم نرى عبر التاريخ الأوربى الحديث والمعاصر ملحمة من الصراعات العسكرية ، زجت بالعالم فى حربين عالميتين فى أقل من نصف قرن ، إلى جانب الصراعات الثنائية ، والانقسام الأيدولوجى الحاد الذى قسم أوروبا إلى شرق وغرب ، بل قسم دولا أوروبية موحدة إلى قسمين متواجهين بالعداء الأيدولوجى .

يقابل ذلك التجانس الثقافى واللغوى الذى تتوحد عبره الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، نرى التعايش النموذجى بين الإسلام وهو دين الأغلبية فى هذه الأمة والمسيحية والتى هى دين بعض أبنائها ، وهو تعايش لا يعنى مجرد التجاور ، وإنما هو تعايش وتداخل

بلغ حدود الانصهار فنرى بين المسيحيين العرب ، من أسهم بفكره فى تاريخ النهضة الإسلامية ، وتسجيل التراث الإسلامى .

توحدت الأمة العربية بالدين واللغـة والثقافة وتجانست بما أسقط كل انتماءات حضارية وثقافية قديمة .

تراجعت الثقافة البابلية والأشورية والفينيقية والفرعونية وتوحد أبناء الأمة العربية فى إطار ثقافتها ، فاختفت انتماءاتهم العرقية ، فهم عرب وليسوا ساميين ولا حاميين ولا بربر ولا زنوج ، فالانتماء الثقـافى جب الإنتماء العنصرى والعرقى ، وإذا بهم بين أمم الأرض أمة متمايزة بتعاليها على كل ما يفرق .

هذه هى الأمة العربية بواقعها ، والمطلوب لها هو إجهاض خصائص هذا الواقع ، والذى هو سياج الحماية لثرواتها ومقدراتها الهائلة ، وهو المدخل المفتوح لكل طامع فى تلك الثروات والمقدرات .

ومن هنا يبرز المعنى الحقيقى للوفاق الدولى والذى يقوم فى أحد أركانه على توفير الحماية لإسرائيل ، لا ككيان يتطلب الأمن ، ولكن ككيان عازل أولا بين مشرق الأمة العربية ومغربها ، وكيان مبدد لطاقات الأمة وثرواتها ، وكيان قادر على تفتيت الأمـة الواحدة إلى كيانات تتحوصل بالعرق والمـذهب والطائفية والإقليمية لتتواجه وتتصارع بعد ذلك فيما بينها .

ولعل الذى أطرحه ، لا يجد لدى البعض من يستسيغه ، فهناك

مقولات وشعارات ، دعوات ونداءات ، تطالب وبإلحاح فى التفرقة بين العدو والصديق ، بين من يساند العدو فهو ضدنا ، ومن يساندنا فهو معنا .

وهنا تتعدد الأدلة والبراهين .

* سلاح إسرائيل ومصدره .

* سلاح أعداء إسرائيل وهويته .

وهنا يستحيل التمييز ، بين دعم لإسرائيل بالسلاح ، ودعم لإسرائيل بالرجال ، وخاصة أن مصدر الإمداد البشرى ، هو نفسه مصدر الإمداد بالسلاح الذى يفترض أن يوجه لإسرائيل ويواجهها ، وهنا تطرح الأسئلة نفسها وتتوالى :

* سؤال حول المقارنة بين فاعلية السلاح ، وفاعلية الرجال ، من حيث أن السلاح أداة تحركها الإرادة ، بينما الرجال إرادة قادرة على تطويع السلاح أى سلاح بما يزيد كفاءته ، ويخدم أهدافه ، بل ويبطل مفعول أى سلاح مضاد مهما كانت كفاءته .

* سؤال حول الفارق النوعى بين مختلف الأسلحة ، والتى وصلت فروقها فى الظروف الراهنة إلى ما يعادل الصفر ، فى إطار سباق التسليح بين مصادر التسليح الرئيسية فى العالم ، وبحيث يبقى الفارق ، بين كفاءة سلاح وسلاح . قدرات سلاح وسلاح ، هو فروق فى كفاءة التشغيل التى يحققها التدريب .

وهنا يتفرع من السؤال سؤال ، حول خبرة مكتملة يجرى تصديرها لإسرائيل ، وسلاح جديد يجرى تصديره لأعداء إسرائيل . وهو فى هذه الحالة ، يحتاج وقتاً لاستيعابه وجهداً للوصول بكفاءة تشغيله إلى الحد المطلوب .

* سؤال حول سرية السلاح ، وخاصة بالنسبة لخصائصه النوعية والتى تحدد طرق مقاومته وإبطال فعاليته ، وهى سرية منتهكة لمن عاشوا عمراً حيث يجرى تصنيعه ، وربما قضوا وقتاً فى التدريب عليه والتعرف على خصائصه ، فإذا انتقلوا إلى ساحة عليهم فيها أن يواجهوا نفس السلاح ، فإنهم سيواجهونه بالخبرة مقترنة بالمقدرة على شل فاعليته .

* سؤال حول أبعاد المواجهة العربية لإسرائيل ، وهل هى قاصرة على المواجهة بالسلاح ، أم أنها تمتد عبر الهدنة المسلحة لتكون مواجهة حضارية وتكنولوجية ، من حيث هى صدام بين خبرة وخبرة ، قدرة وقدرة على المنـــاطحة والتنافس وخاصة فى مجالات البحث العلمى والذى يستحيل التمييز فيه بين ما هو مخصص للحرب ، وما هو مخصص للسلام .

وفى هذه الحالة ، ألا يعنى تزويد إسرائيل بالرجال وقد اكتملت خبراتهم وتأهيلهم فى مختلف الميادين اختزالا للزمن والجهد ، بينما لا يتوافر للعرب إلا قدراتهم الذاتية ، ومغالبة العوائق لتطويرها فى ظروف معرقلة ، هى ظروف المواجهة الدائمة والساخنة .

ثم يبقى بعد ذلك ، سؤال حول دلالة الهجرة اليهودية لإسرائيل ، هى مقبولة رغم كل التحفظات من المجتمعات الرأسمالية ، حيث تسمح النظم الليبرالية بحرية الحركة وحرية الهجرة وحـــرية تغيير الولاء والانتماء ، وحيث أن فكرة الدولة اليهودية ، هى نتاج لصفقة غربية ، أرادت بها أن تطوع المنطقة العربية لأهدافها إلى مالا نهاية .

ولكن ما الذى يقال عن هجرة يهودية إلى إسرائيل ، يكون مصدرها ، دولة تقوم ايديولوجيتها على اعتبار الوطنية خيانة ، والقومية تخلفاً ، والتكتل على أسس عرقية أو عنصرية أو دينية جريمة تهدد أيديولوجيتها الحاكمة ، بنفس القدر الذى تهدد فيه كيانها الشامل ، والذى يقوم على التعايش بين مختلف القوميات ، ذلك أنه إذا سمح لليهود كيهود للهجرة إلى وطن بديل ، فما الذى يمنع غيرهم ، من المطالبة بأوطان مستقلة تنفصل عن الكيان الشامل ، وخاصة أنهم ينتمون إلى كيانات متميزة ، وأديان مختلفة ، بل إن بعضهم ينتمى جغرافياً إلى آسيا وبعضهم إلى أوروبا ، كيف يتسق الفكر الأممى مع تشجيع الكيانات العنصرية ؟ كيف تتفق الحرب المعلنة ضد كل الطبقات مع تشجيع بلورة دولة تتمايز بما تدعيه من أنها هى وحدها دون كل الشعوب هى شعب الله المختـــار ؟ كيف يتصاعد التأييد لهذه الدولة العنصرية ، من الاعتراف بها فور إعلانها إلى تحقيق وجودها ، بما هو أثمن من المال وأمضى من كل سلاح ، بالوجود البشرى ، التى تتمثل فيه وتتمثل به ، اقتطاعاً من الكيان الأممى ؟

ثم كيف بعد كل تلك السنين ، من تطبيق النظرية وإقامة دولة

فى إطارها ، والدخول فى حرب تحت راياتها ، كيف يمكن أن يبقى داخل مثل هذه الدولة وفى إطار هذا الفكر ، بؤراً تمايز عرقياً ودينياً بحيث تكون جاهزة للتصدير مع أول إشارة ؟

ثم إن إسرائيل ، فى أدبيات ذلك الكيان السياسى ، بل عبر مواقفه المعلنة ، هى رأس رمح الاستعمار القـــديم والجديد معاً ، وهى حصن الرأسمالية المتقدمة فى المنطقة ، وهى العدو المعلن للتقدم ، وهى الحرب التى لا تخمد ضد الشعوب المقهورة ، كيف تكون إسرائيل هـــذا كله ومع ذلك يجرى تزويدها بما يؤكد ويدعم وجودها بل ودورها الاستعمارى فى المنطقة والعالم ؟

أسئلة ولا جواب . . إلا ذلك الذى يتمثل فى حقيقة التوازن المتفق عليه بين القوى العظمى ، والتى تجمع لا على حماية إسرائيل فحسب ، بل حماية ودعم دورها العدوانى فى المنطقة .

ولأن الاتفاق حول الأهداف ، لا يعنى الاتفاق حول الوسائل ، فإن الأمة العربية ، تجد نفسها بين شقى الرحى .

بين من يمد إسرائيل بالمال والسلاح ، وبين من يمد إسرائيل بالرجال ، ثم تقف بالحيرة لتختلف فيما بينها فى تعريف من هو العدو ومن هو الصديق ، بل ولتتواجه انحيازا لهذا أو ذاك .

دون أدنى محاولة لإدراك أنها هى هدف كل الأطراف ، لأنها مطمع كل الأطراف .

بالنسبة لإسرائيل فالأمة العربية هى مجالها الحيوى ، ليس من حيث هى مساحة انتشار للوجود العسكرى الإسرائيلى ، فذلك دونه غرق إسرائيل فى بحر الكثافة العربية وفقدان إسرائيل لكيانها المتبلور على أساس فكرة نقاء العنصر ووحدته ، وإنما عن طريق السيطرة الكاملة على الأمة العربية ، من حيث هى مصدر للمواد الخام وأهمها الطاقة والأيدى العاملة الرخيصة والتى لا ينبغى أن تتجاوز مهارتها حدوداً مرسومة لها ، بحيث يستحيل عليها الإفلات من قبضة الخبرة الإسرائيلية المتقدمة ، ثم من حيث هى سوق للإنتاج الإسرائيلى القائم على المواد الخام العربية والأيدى العاملة العربية ، وهوسوق يغنى إسرائيل عن ضراوة المنافسة مع الإنتاج اليابانى المتفوق ، والإنتاج الغربى المسيطر .

وبهذا يتحقق لإسرائيل حلمها التاريخى ، بالسيطرة على العالم عبر السيطرة على أهم مناطقه وأغناها ، وبالتحكم فى العالم كله عن طريق قبضتها على موارد طاقته وشرايين اتصاله ، وهذا يتطلب من إسرائيل ، أن تصوغ للسلام تعريفاً يناسبها ، لا من حيث هو سلام يقوم على العدل ويتفق مع مبدأ التكافؤ بين كل أطرافه ، وإنما هو سلامها الخاص ، والذى يعنى وجودها كمحور تدور حوله باقى الكيانات العربية ، تستمد وجودها منه ، وتتحدد حركتها بحركته ، وهذا يتطلب بدوره من إسرائيل أن تعيد تشكيل الكيانات العربية صياغة جديدة وعلى النحو التالى :

أولا : أن تكون إسرائيل بوجودها الجارح ، قوة منع لأى اتجاه لتوحيد الأمة العربية ، على أن تكون وفى نفس الوقت ،

قوة فصم لأى نوع من الوحدة العربية بين أى من أقطارها ، ولو تطلب ذلك دخولها فى حرب أو حروب .

ثانياً : أن تكون بقوتها الذاتية ، وباتصالاتها وعلاقاتها الدولية ، تياراً معاكسا لمسار التاريخ ، بل لطبيعة الأشياء ، ومقتضيات المنطق .

فإذا كان الخطر المشترك يوحد كل القوى لمواجهته ، فإن عليها أن تحول الخطر الذى تمثله على كل الأمة العربية ، إلى أداة تمزيق وتشتيت لهذه الأمة ، وبحيث يتحول الاتفاق عليها إلى اختلاف حولها .

ثالثاً : أن تحقيق هذا الهدف ، يتطلب من إسرائيل أن تتحالف مع بعض أصدقاء العرب ، ليواجهوا أنفسهم بالتناقض ويواجهوا بعضهم بالعداء ، ثم عليها أن تصادق حلفاءهم لتحقيق نفس الهدف والغاية .

رابعاً : أن على إسرائيل أن تحافظ على درجة التوتر داخل كل الكيانات العربية ، توتر يصوغه العجز عن مواجهتها ، توتر يصوغه الفقر والتخلف ، بحيث يرد بلا تبصر إلى أعباء المواجهة معها ، وهكذا ينقسم الناس داخل كل كيان عربى ، بين عجز المواجهة وعجز الحاجة ، وهنا تبرز القابلية للانقسام .

خامساً : أن تسعى وفى داخل كل كيان عربى على إحياء ما هو خامد من التناقضات .

تناقضات طبقية ، تناقضات عرقية ، تناقضات دينية أو مذهبية ، تناقضات إقليمية ، كل ذلك وهى تضغط بالتوسع والتعنت وإهدار كل الطاقات .

كل ذلك وهى تضغط بالمزيد من الإذلال لا يواجهه إلا العجز والذى يتحول تلقائياً من قدرة على إدارة الصراع ضدها ، إلى قدرة متفجرة لافتراس الذات عبر تناقضات عملت على إحيائها .

سادساً : أن تبدأ بصياغة النماذج للكيانات الجديدة تصوغها بتدخلها المباشر أولا ، فتقيم كياناً عرقياً أو دينياً تسبغ عليه الحماية ، ليكون مرشداً للآخرين ، ثم تترك لهم بعد ذلك مهمة الانقياد التلقائى على نفس الطريق .

تتكرر ظاهرة دويلة حداد فى الجنوب اللبنانى لتعمم فى صورة دويلات فى الساحل والجبل ، ثم من لبنان ، إلى غير لبنان .

سابعاً : بوجود مثل هذه الدويلات العرقية الطائفية الدينية المذهبية الإقليمية ، فإنه سوف يحكمها جميعاً ما يحكم الأجزاء المتقطعة من الجسد الواحد ، لا تهدر طاقاته فحسب ، بل

تكون دائماً مصدر آلام لا تنتهى ، والآلام هى طريق الأحقاد ، والأحقاد هى مدخل الصراعات ، وصراع الجزء مع الجزء لا يحسمه إلا حليف قوى ، ولن يكون هذا الحليف إلا إسرائيل .

ثامناً : أن إسرائيل ككيان عنصرى متماسك ، سوف تكون فى بحر الكراهية والتمزق ، هى القوة الأكبر والضمان الأعظم لأمن كل الأطراف ، وهو ضمان لن يكون ثمنه إلا خضوع الجميع لها ، ووقوع الجميع تحت سيطرتها .

وتلك هى أولى وأهم الخطوات ، فى بناء إمبراطورية إسرائيل الكبرى .

وغير إسرائيل من يتحالفون معها علنا فيمدونها بالسلاح ، ومن يساندونها فعلا ، فيمدونها بالرجال ، إنهم معها ومن خلالها على نفس الطريق ، طريق السيطرة على العالم العربى ، الحيلولة دون وحدته الاقتصادية والسياسية ، إشاعة التمزق فى صفوفه ، إخضاعه بالقهر أو بالهدر لكل طاقاته ورغم كل طاقاته لإرادتهم .

فالعالم العربى ومنذ أواخر الأربعينات يشترى أمنه المهتز ليهدهد مخاوفه من إسرائيل ، يرهن كل امكانيات صياغة تقدمه واستثمار موارده لدى كل من يملك القدرة على دعم قدراته الدفاعية بالسلاح أو المساندة السياسية ، ورغم أن التجـارب قد أثبتت أن المراهنة

قد أدت إلى خسارة فى الأرض وخسارة فى المــوارد وخاصة فى إمكانيات التقدم ، إلا أن الرهان موجود رغم كل ما حدث .

كل ما حدث . .

يوم ضاعت العوجة والنقب بعد حرب سنة ١٩٤٨ يوم ضاعت السيطرة على شرم الشيخ ومضايق تيران بعد حرب سنة ١٩٥٦ .

يوم ضاعت الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وسيناء بعد حرب سنة ١٩٦٧ .

يوم أن تمزق الصف العربى ، رغم الانتصار العسكرى بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

ظل الرهان على ما هو عليه .

رهان على المساندة السياسية من جانب من يمدون إسرائيل بالسلاح .

ورهان على المساندة العسكرية من جانب من يمدون إسرائيل بالرجال .

كل ذلك وإسرائيل مع هؤلاء وهؤلاء ، على طريقها ماضية فى تنفيذ مخططاتها ومخططاتهم ، والتى كانت كــل حروبها بما فى ذلك حرب أنشأتها فى خدمة هذا المخطط .

* **حرب سنة ١٩٤٨ :**

والتى كانت فى جانبها الأهم ، هز ثقة الأمة العربية فى قدرات قواتها

المسلحة الوليدة والتى تشكلت فى مطالع الاستقلال ، ودفعت لحرب محسومة النتائج من حيث هى حرب بين قوات حاربت فى صفوف الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية واكتسبت من الخبرات والقدرات القتالية مالا يقارن بقـــدرات جيوش حديثة التكوين عديمة التسليح بل إن بعضها كان محكوماً بقياداته العـــليا بواسطة أجانب ينتمون لدول صاغت لليهود دولة من العدم ، ومكنتهم من أرض أخلوها لهم .

وتحقق الهدف بالنصر العسكرى الإسرائيلى فى إطار اللاتكافؤ ، وتحقق الهدف بالنصر السياسى لإسرائيل ، حينما تولينا بأنفسنا التقليل من قدرات الجيوش العربية ، فاتهمنا بعضها بالخيانة الصريحة ، واتهمنا بعضها بالفساد الآثم ، وأسرفنا فى الحديث عن الأسلحة الفاسدة .

*** حرب سنة ١٩٥٦ :**

وكانت نموذجاً لتكتل الأهـــداف المتكاملة ضد الإرادة النامية للأمة العربية ، كما كانت وبصورة أخرى اعترافاً بتكامل المصير العربى الذى ينبغى ضربه قبل فوات الأوان .

* شاركت إسرائيل بريطانيا عدوانها على مصر لأنهما أدركا أن قرار تأميم قناة السويس هو ترجمة غير مطلوبة لجلاء القوات البريطانية عن مصر والذى لم تمض عليه سوى عدة أسابيع ، كان القرار وبغض النظر عن محتواه ، دليلا على أن مصر ترى فى الجلاء تحرير إرادة وليس مجرد تحرير أرض .

ولما كانت السيطرة على الإرادة المصرية ، هى هدف لإسرائيل وبريطانيا ، فقد شاركت بريطانيا إسرائيل فى محاولة لترويض مصر .

* شاركت فرنسا إسرائيل فى الحرب العدوانية ، لأن فرنسا رأت أن إخضاع القاهرة ، هو أقرب الطرق لإخضاع الجزائر المتمردة على الاستيطان الفرنسى .

* ولأن إسرائيل لها ذات الرؤيـــة ، فإنها شاركت فرنسا فى عدوانها على مصر ، حتى تقضى على التصاعد المزعج فى تماسك شعوب الأمة العربية .

* شاركت الولايات المتحـــدة فى دحر العدوان ، وفى ذهنها أن تكون البديل للوجود الفرنسى البريطانى فى المنطقة ، وما إن توقف العدوان على مصر حتى سارعت الولايات المتحدة بإعلان هدفها ، وهو ملء الفراغ فى الشرق الأوسط .

* شارك الاتحاد السوفيتى فى التصدى سياسياً للعدوان الثلاثى ، وهدفه الأوحد هو التسلل إلى المنطقة حيث الثروات الطائلة ، وطرق المواصلات الحساسة والمياه الدافئة ، وانتهى العدوان الثلاثى ، ليدخل الاتحاد السوفيتى ، ولا يخرج إلا بعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ .

* **حرب سنة ١٩٦٧ :**

وهنا لابد من وقفة .

مهما كانت الأسباب ، التى قيل إنها وراء اندلاع هذه الحرب الخاسرة عربيا ، فإنها تظل فى موضعها كشكليات غير قابلة للصمود أمام منطق الأحداث .

ذلك أنه لا يمكن أن يكون صحيحاً أن تتصاعد نذر الحرب ، ثم تتصاعد إلى حد القتال لتنتهى إلى ما انتهت إليه ، كنتيجة لحشود إسرائيلية على الحدود السورية ، ولا يمكن أن تكون صدفة غير مقصودة أن يتفق الاتحـاد السوفيتى والولايـات المتحدة وفى وقت واحد على ممارسة الضغط على مصر لعـدم البدء فى القتال الدفاعى ، رغم كل نذر الحرب التى لم تخفها إسرائيل ،ولا يمكن أن تؤدى حرب غير مخططة لاحتـلال أراضى ثلاث دول عربية فى وقت واحد ، دون أن يسبق ذلك تمهيد وإعداد واختيار دقيق لتوقيت الحرب وشنها فى الوقت المحدد .

وليس صحيحاً ، ولا يمكن أن يكون . أن يستجيب الأمين العام للأمم المتحدة لطلب طرف واحد ، بسحب قـوة دولية جرى تشكيلها وتحديد مهمتها بقرار جماعى من مجلس الأمن ودون الرجوع إليه .

ما هو أقـرب إلى المنطق ، فحص أسباب الحـرب فى إطار الأهداف التى حققتها بالنسبة لكل الأطراف الفاعلة ، ولقد كانت على النحو التالى :

أولا : كان من نتائج حرب سنة ١٩٦٧ ، بالإضافة إلى خسارة المزيد من الأرض العربية ، وزحف إسرائيل الجارح إلى داخل ثلاث دول عربية ، هو ضرب فكرة القومية العربية الصاعدة والتى بدأ مدها بالانتصار السياسى فى حرب سنة ١٩٥٦ – ليحاصرها اليأس منها وبالتالى الإيمان بها ، بالهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧ ، وإذا تذكرنا أن القومية العربية كأيديولوجية فكرية لها مضمونها السياسى والاقتصادى قد صادمت الفكر الماركسى ، بل وحاصرت المد الشيوعى فى سوريا عند إعلان الوحدة سنة ١٩٥٨ ، وجابهت المد الشيوعى فى العراق وأجبرته على التراجع بعد انتصاره المؤقت فى عهد عبد الكريم قاسم بعد هذا التاريخ ، لو تذكرنا هذا ، وتذكرنا معه المجابهة التاريخية بين عبد الناصر وخرشوف حول القومية والأممية ، لو تذكرنا هذا كله لوجدنا أن القومية العربية ، التى أحرزت انتصارات كاسحة على المد الشيوعى فى المنطقة ، كان مطلوباً تأديبها وترويضها وتحجيمها ، حتى لا تواصل دورها العازل لشعوب الأمة العربية عن الفكر الماركسى ، وهذا ما تحقق بهزيمة سنة ١٩٦٧ .

ثانياً : لقد كان عام ١٩٦٧ بالنسبة لمصر ، هو عام اكتمال السد العالى وصناعة الحديد والصلب والسبعمائة مصنع ، وذلك كان يعنى استكمال قاعدة صناعية كبرى ، يفيض إنتاجها عن احتياجات مصر ، إلى سد احتياجات العالم العربى

سوقها الطبيعى ، وكانت تلك أولى خطوات التكامــل الاقتصادى العربى ، كما كانت أولى الخطوات لتحقيق الاكتفاء الذاتى ، بما يغلق أمام الإنتاج العالمى سوقاً متاحة وقادرة على تصريف إنتاجه .

ولقد كان ذلك يعنى ، قيام كيان اقتصادى قادر فى المنطقة العربية يعزز موقفاً سياسياً مستقلا لا يميل إلى الغرب أو الشرق ، تصوغ قوميته هويته السياسية ، ويغترف من ثقافته وترابه وتراثه ليحدد لنفسه مكانا تحت الشمس ، بعيداً عن غواية الإغراء بالاستهلاك دون إنتاج ، وإغراء ادعاءات تحقيق العدل الاجتماعى بثمن باهظ ، هو فقدان الهوية القومية والثقافية والحضارية لأمة شكلت أعرق حضارات التاريخ .

كان ذلك يهدد إسرائيل ومطامعها ، كما كان يهدد غيرها من قوى التأثير فى العالم ، ومن هنا يمكن النظر إلى أسباب حرب سنة ١٩٦٧ فى إطار ما أسفرت عنه من نتائج .

* تراجعت قدرة مصر على الصمود ، فضلا عن النمو الاجتماعى والاقتصادى .

* تزايدت نفقات الدفاع ، والتى حتمتها نتائج الحرب وعلى حساب التصنيع بل وكل مجالات التعمير والبناء .

* أفقدت الحرب ، بل أقعدت الاشتباكات المتعمدة بعد الحرب ، مصادر الطاقة المتاحة لمصر واللازمة لنهضتها الصناعية . فبعد

الاستيلاء على آبار البترول فى سيناء خلال الحرب، ضربت معامل التكرير فى السويس بعد وقف إطلاق النار .

* تراجع الانفاق على التنمية فى مصر ليحل محله إلى جانب تكلفة الدفاع والتسليح الحديث ، أعباء التهجير والرعاية الاجتماعية والاقتصادية لمن فقدوا مساكنهم وأعمالهم فى منطقة قناة السويس .

* أدت الحرب فى سوريا والأردن نفس الهدف ، تقدمت متطلبات الدفاع على احتياجات التنمية ، وبحسابات مباشرة وبسيطة يمكن الاستدلال على من خسر ومن كسب من حرب سنة ١٩٦٧ . كسب كل الأطراف ، وخسر العرب .

* تزايد الاعتماد على التسليح السوفيتى ، بل على الوجود السوفيتى المباشر ، فى كل من سوريا ومصر .

* تسابقت الدول العربية إلى شراء السلاح الغربى ، وأسهمت فى تعويض خسائر مصانع السلاح وخاصة بعد أن توقفت حرب فيتنام .

* زادت حدة الاستقطاب السياسى للعالم العربى بطرفى الوفاق .

* تمطت إسرائيل عبر أراضى عربية جديدة ، وانهالت عليها المساعدات .

المـــال والسلاح والرجال

ثم كانت حرب أكتوبر بنتائجها العسكرية المحدودة ، ونتائجها السياسية التى لم تصل بعد إلى غاياتها :

* وصل الشقاق العربى إلى حد القطيعة ، وتجاوزها إلى الصراع المسلح بين أطراف عربية .

هكذا شهدت الأمة العربية حرباً مصرية ليبية ، واشتباكات جزائرية مغربية ، ومواجهات سورية عـــراقية ، وصراعات يمنية ، وخلافات واجتهادات ، صاغت للمواجهة جبهة ، وللصمود جبهة ، ولمن يطلق عليهم اسم المعتدلين جبهة .

كأن الأمة العربية لا تواجه عدواً واحداً يتطلب موقفاً موحداً ؟

* وصل التمزق العربى ، إلى حد التفتت فى لبنان ، وسيظل جرح لبنان داميا بأكثر مما ينزف فيه من دماء ، باعتباره مشروع جروح فى الطريق تقتطع من الكيانات العربية أجزاءها ، وتصل إسرائيل بحلمها الأكبر إلى التعايش مع كيانات طائفية كانت عربية ، التعايش مع كيانات دينية كانت جزءاً من أمة واحدة .

* * *

كان ذلك كله فى الوجدان والخاطر ، وأنا أقبل تكليف مجلس الجامعة العربية ، بأن أتولى رئاسة لجنة التضامن العربى .

ولقد كان هذا كله ، هو الأصل فى قبول المهمة رغم إلحاح المشاكل الطارئة فى السودان ، بالإضافة إلى أعباء جديدة تتطلبها رئاستى لمنظمة الوحدة الأفريقية .

كان التضامن العربى المطلوب من اللجنة تحقيقه ، مجرد واجهة تختفى وراءها مهمتها الأساسية ، وهو محاصرة الزلزال الذى أحدثته زيارة الرئيس السادات للقدس .

كانت الزيارة زلزالا بكل ما تحمله الكلمة من معانى ، فبعد صراع تواصل لثلاثين عاماً تخللته أربعة حروب شاملة ، ومئات الاشتباكات والاعتداءات الإسرائيلية على الأرض العربية ، ومشاعر توارثتها الأجيال لا بالكلمة وإنما بالمعايشة . عايشتها أجيال الأربعينات بحرب ١٩٤٨ ، وأجيال الخمسينات بحرب ١٩٥٦ ، وأجيال الستينات بحرب ١٩٦٧ ، وأجيال السبعينات بنصر أكتوبر ١٩٧٣ ، ثم بمرارة الثغرة فى مصر واختراق الخطوط السورية .

بعد هذا كله يزلزل القلوب نبأ زيارة رئيس أكبر دولة عربية للقدس ، وهى الزيارة التى وصفها إسماعيل فهمى ، عندما سمع بها فى سياق خطاب الرئيس السادات أمام مجلس الشعب المصرى ، بأنها مناورة محسوبة ، وصدقه كما صدق هو نفسه زملاؤه وزراء الخارجية العرب الذين كانوا وقتها فى اجتماع عادى لمجلس الجامعة العربية فى تونس .

إلا أن الزيارة بعد أن تحولت من فكرة إلى واقع ، لم يعد هناك مجال لإنكارها كحدث وقع ولا مجال لإلغائه ، ولقد كانت ردود الفعل العربية ومهما اتسمت بالغضب ، فإنها كانت تعبيراً عن الإحساس بمدى أهمية مصر ودورها وثقلها فى ساحة الصراع العربى الإسرائيلى .

كانت الأمة العربية بمشاعر تزاوج فيها الحزن والغضب غير قادرة على التسليم بما وقع ، رغم الإيقاع السريع للحوادث والأحداث .

اجتمع مجلس الجامعة ، واتخذ قراره بتشكيل اللجنة وعقدت اللجنة أول اجتماعاتها برئاستى بالخرطوم .

قدمت أوراق عمل ، قدمت خطط ، وقدمت بدائل ، ثم تفضل الإخوة ، وزراء خارجية المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية ، والجمهورية العربية اليمنية ، ودولة الإمارات العربية المتحدة ، ودولة الكويت بتفويضى فى التحرك ، وفى إطار هدف واحد هو محاصرة نتائج الزلزال .

وكان لابد من جولة ، وقبلها ، وضع خطة للعمل .

* * *

من حيث الهدف .

فلقد سمحت لنفسى أن أضع تعريفاً للتضامن العربى المقصود ، فرأيت أنه يجب تحقيق التطابق بين الهدف العربى الواحد ، وأسلوب موحد للعمل العربى لتحقيقه .

من حيث الوسيلة .

طرح فكرة استراتيجية عربية موحدة ، تحدد فيها أدوار كل

الأطراف العربية ، كما تحدد عبرها إلتزاماتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية كل حسب قدرته .

ومن خلال هذه الاستراتيجية ، لن يكون هناك مجال للاجتهاد أو الانفراد للوصول إلى حل يتجاوز الإجماع العربى ، سواء كان حلا سياسياً أو عسكرياً .

من حيث الأسلوب .

فلقد تحدد بالهدف والوسيلة .

فالهدف بشموله ، والوسيلة بحتمية الإجماع عليها ، إنما يتطلب مشاركة الجميع فيها ، فلا مناص إذن من أن تشمل الجولة كل الدول العربية بغير استثناء ، حيث ينبغى أن تكون الخطوة الأولى الموافقة على الفكرة ، ثم تليها الخطوة الثانية والتى تتطلب تجمعاً عربياً على مستوى القمة يقر الفكرة ويضع تفاصيلها ويلتزم بتحقيقها ، وبهذا تسقط كل حساسيات التراجع عن خطوة بدأت ، كما تسقط كل تشنجات الرفض كما حدث بغير بديل .

ومن حيث الأولويات .

فلقد رأيت أن تكون مصر هى بداية المرحلة الأولى فى الجولة الأولى ، وفى بداية كل جولة تليها ، ذلك أن مصر بالقبول أو الرفض ، هى التى ستحدد مسار الجهد المبذول .

ثم بعد مصر ، باقى الأطراف المباشرين ، دول المواجهة ، ثم دول المساندة ، وإن كنت أكره هذا التعبير فالدول العربية كلها شاءت أم أبت ، إنما هى فى المواجهة ، مواجهة الخطر الإسرائيلى الذى يستهدفها جميعاً .

وفق هذا التخطيط . . بدأت رحلة الآلام .

* * *

بدأت الجولة بنداء وجهته للكتاب والصحفيين العرب ، طالباً ومناشداً بأن يكونوا عــوناً لى فى مهمتى التى أعرف مصاعبها ، فلا يتابعوا خطواتى بالتحليل والتأويل والاستنتاج ، وإنما ينتظروا النتائج ، لا يسرفوا فى التفاؤل بما يميع المواقف ولا يسرفوا فى التشاؤم بما يعرقل الخطوات ، يدركوا أن جولة التضامن ، هدفها تحقيق التضامن ، وهو هدف يتطلب مناخاً هادئاً ، أو على الأقل هدنة فى حرب الإعلام .

استجاب بعضهم بالصمت على ما طلبت وكان كريماً ، واستجاب بعضهم بالهجوم على شخصى ، اتهامات بالدكتاتورية ، وغياب الديمقراطية ، وحجب الحقائق عن الرأى العام ، ثم اتهام مسبق بأننى أتحرك فى إطار انحياز مسبق لطرف وأن هدفى الحقيقى من وراء هذه الجولة ، إنما دفع الأمة العربية على طريق (الاستسلام) .

وأدركت أنني وحدى أملك قضيتي وأن من يسعى لتحقيق حوائجه

بالكتمان عليه أن يوفـــر الكتمان بنفسه لنفسه وساعدنى فى ذلك كل الإخوة الملوك والرؤساء العرب الذين التقيت بهم .

وبدأت جولاتى وانتهت ، ولم يتسرب من نتائجها ، إلا ما تعمدنا إعلانه ، وفى السياق الذى اخترناه ، بل وفى إطار صياغة محددة أجهدتنا محاولات الوصول إليها .

كانت المهمة بالغة الصعوبة ، وكان أصعب ما فيها توفير مناخ يسمح بالحوار ، دون أن تسبقه أو تلاحقه حساسيات من كلمة منشورة هنا ، أو مذاعة هناك .

كانت الجولة كما قلت شاملة لكل الأقطار العربية ، عبر امتداد الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، ولقد تطلب ذلك توفير طائرة للتنقل بها ، ولم تكن قدرات السودان تسمح إلا بطـــائرة صغيرة لا تتسع إلا لأربع ركاب وأربع حقائب ، ومع ذلك فلقد تسببت تلك الطائرة فى أكثر من أزمة على امتداد الرحلة .

فى صنعاء ، فشلت فى الإقلاع من مطارها بركابها الأربع فالمطار مرتفع عن سطح البحر ، وقدرات الطائرة لا تتيح لها الإقلاع فى وسط الهواء المخلخل ، إلا وهى خالية تماماً من الركاب والحقائب .

وهكذا سافرت من صنعـــاء إلى مسقط فى طائرة شحن غير مجهزة لنقل الركاب ، فاكتفيت بالجلوس على مقعد مثبت فى جسم الطائرة بالحبال طوال تلك الرحلة .

فى مسقط أشفق السلطان قابوس من نتائج رحلة جوية تخترق الصحراء إلى الكويت بطائرة من هذا الحجم ، فكان أن نقلتنى طائرته الخاصة إلى الكويت .

من عمان حملتنى طائرة الملك حسين إلى الرياض ، وفى الرياض حملتنى طائرة الملك خالد إلى الخرطوم ، وهكذا رافقتنى الطائرة الصغيرة الذى كان يتلاعب بها الهواء وتبتلعها السحب خلال الجولة إلى مصر ثلاث مرات ، ثم إلى دمشق وبغداد وأبو ظبى والدوحة والمنامة ، ثم إلى تونس والجزائر وفاس بالمغرب ، وصنعاء وعدن .

وبالرغم من مصاعب الطريق ، فلقد كانت مراحل الطريق فى بعض الأحيان أكثر صعوبة .

حالت الحرب الأهلية فى لبنان ، دون زيارة بيروت ، وحال اعتذار الرئيس القذافى ، دون زيارتى لطرابلس ، واعتذر ياسر عرفات عن اللقاء لأنه كانا مصاباً بوعكة ، ومع هذا فلقد استغرقت جولة التضامن ، حوالى شهر كامل ، على مرحلتين .

بدأت المرحلة الأولى بالإسكندرية .

وانتهت المرحلة الأخيرة فى الرياض .

وبين الإسكندرية والرياض .

* التقيت بالرئيس السادات ، حوالى تسع ساعات خلال زياراتى الثلاث لمصر ، فى إطار عمل لجنة التضامن .

* التقيت بالرئيس السورى حافظ الأسد ، فى جولتين للمباحثات استغرقتا حوالى عشر ساعات .

* مع الرئيس الراحل هوارى بومدين ، تواصل لقاؤنا لأربعة عشر ساعة ، وحينما ودعته فى مطار الجزائر ، كان رحمه الله باسما وشاحبا ، وأرجعت شحوبه لسهر الليل الطويل ، إلا أننى لم أكن أعلم أننى إنما أودعه الوداع الأخير .

* فى بغداد التقيت بالرئيس العراقى السابق ، أحمد حسن البكر لثلاث ساعات .

* فى الكويت عقدنا اجتماعاً موسعاً حضره سمو أمير دولة الكويت ومجلس الوزراء الكويتى ، وقد تواصل اللقاء لخمس ساعات تقريباً .

* فى المنامة ، أخذنا شطرا كبيراً من الليل فى مباحثات مع سمو أمير البحرين .

* فى أبو ظبى ، كان اللقاء الحميم مع سمو الشيخ زايد بن سلطان ، وفيه وعـــد وصدق فى وعده ، بأن يدعم جهودى بكل طاقاته .

* فى صنعاء كان لقائى الأول بالمغفور له الرئيس الغاشمى ، وللأسف فلقد كان لقاءنا الأخير .

* فى فاس ، انفردت بجلالة الملك الحسن الثانى مطولا وانتهت مباحثاتنا ، بتوافق كامل فى وجهات النظر .

* فى عمان هزنى نشيج الملك حسين ، ودموعه تحكى قصة احتلال

الضفة الغربية للأردن ، ثم يأخذنى إلى شرفة القصر ، نتطلع معاً للضفة المقهورة بالاحتلال الإسرائيلى .

* فى تونس ، التقيت بالهادى نويره الوزير الأول .

* فى قطر التقيت بأمير البلاد وأركان دولته .

* فى عدن ، كان موعدى ، مع رجل كان على موعد مع الموت بعد شهور ، فكان لقائى به خلال نفس الجولة ، هو لقاؤنا الأخير ، وأعنى به الرئيس اليمنى الجنوبى الراحل ، سالم ربيع على .

* فى مسقط ، استغرقت المباحثات يومين ، كان طموح السلطان قابوس فيها يتجـــاوز طموحى ، فهو يطلب عقد قمة عربية ، لا تنتهى إلا بتصفية كل الخلافات العربية ، ما هو عابر منها وما هو أصيل ، ما هو قديم فيها وما هو حديث .

* فى المملكة العربية السعودية ، وكانت طرفاً فى جهود اللجنة بحكم عضوية وزير خارجية المملكة فيها تعهـــد الملك خالد والأمير فهد ببذل كافة الجهود لإنجاح مهمتها .

والتقت اللجنة بعد ذلك بكامل عضويتها فى الخرطوم ، لتقييم نتائج أعمالها ، وكان يقينى أنها نجحت .

نجحت بالمعنى المطلق لمعنى النجاح ، فلم يعترض أى من الملوك والرؤساء الذين التقيت بهم على ضرورة وضع استراتيجية للعمل العربى الموحد ، ولم يعترض أى منهم على حتمية الالتزام بها .

كان الاتفاق شاملا ، ولكن ظل اتفاقاً مشلولا أمام تفاصيل واجتهادات وأحداث مصنوعة فيما يتعلق بالتفاصيل.

تباينت وجهات النظر ، فهناك من كان يرى أن عقد قمة فى مثل هـذه الظروف ولتحقيق مثل هذا الغرض ، إنما تتطلب وقتاً لا يقل عن ثلاثة أشهر . ذلك فى وقت كانت الأحداث يتتابع إيقاعها السريع ، لتقطع الطريق أمام أى إجماع عربى ، يتمثل فيه الإجماع العربى بغير استثناء .

فيما يتعلق بالاجتهادات .

ولقد قصدت أن أقول الاجتهادات ، وليس المزايدات ، فلقد رأى البعض أن الاستراتيجية العربية الموحدة مطلوبة ، ولكن متى ؟ ويتولى بنفسه الإجابة ، ليس قبل أن تتحرك الجيوش العربية لخوض المعركة ، وقتها يتأكد جدية أى حديث عن استراتيجية موحدة وأى لقاء عربى يستهدف إقرارها .

فيما يتعلق بالأحداث المصنوعة .

فتلك كانت من صنع سوانا ، بعيداً عن العواصم العربية حيث ترسم الخطى للعواصم العربية ، لتندفع فى مسار مرسوم .

• فى مرحلة من مراحل المباحثات ، كنا أقرب ما نكون للاتفاق الكامل وخاصة بين الأطراف المباشرين ، وفجأة انفجر الحديث عن صفقة طائرات لمصر والسعودية ، وعلا الضجيج من حولها ،

بحيث تراجع الاتفاق الوشيك ، وانحسرت موجات التفاؤل حوله . وفى اللحظة المناسبة تماماً وفى توقيت دقيق ، انحسرت الاعتراضات على الصفقة ، لينحسر فى ظلها كل احتمالات النجاح الوشيك .

• فى مرحلة أخرى ، كان فجر الأمل فيها أقوى ما يكون من مغالبة ظلام اليأس ، وقد رست سفينة النجاح بالفعل قرب الشاطئ ، ارتفع موج مصنوع ، ليذهب بها بعيداً فى خضم أمواج الخلاف . فلقد تحدد موعد اجتماع ثلاثى على مستوى القمة بغير تمهيد .

• فى مرحلة من مراحل الرحلة ، تتحدث صحف عن عقبات فى طريق نميرى ، وأزمات تواجه نميرى ، وجهود نميرى لتحقيق التضامن تصطدم بالرفض من كل الأطراف .

وتنتهى الأمور إلى ما انتهت إليه ، توقيع اتفاقيات كامب دافيد ، ليبدأ رئيس لجنة التضامن العربى رحلة جديدة من المعاناة .

* * *

فى واشنطون تحط طائرتى ، بعد ساعات قليلة من مغادرة الرئيس السادات لها ، فى طريقه إلى المغرب ، بعد أن وقع اتفاقية كامب دافيد .

وفى واشنطن تحاصرنى أسئلة الصحفيين ورجال الكونجرس بل ورجال الأعمال ، الذين التقيت بهم خلال زيارتى لمختلف الولايات ، حول ما أراه فى اتفاقيات كامب دافيد ، ولأنهم جميعاً ديمقراطيون

يؤمنون بالديمقراطية ولا يدينون بسواها ، فلقد كان من العسير عليهم ، أن يقتنعوا أن بلاداً غير بلادهم وإن كانت أقل تقدماً وثراءاً ، من الممكن أن يكون لها نفس النهج ، فلا ينفرد رئيسها برأى ، وإنما يستمد رأيه من خلال إجماع المؤسسات فى بلده ، ولهذا فإنهم رفضوا أن يصدقوا ، بل رفضوا حتى مجرد التظاهر بالتصديق ، بأننى أرفض التعليق على اتفاقيات كامب دافيد لحين عودتى لبلادى والاستماع لرأى المؤسسات السياسية والدستورية والتى تعكف على دراستها الآن .

امتنعت بعض أجهزة الإعلام الأمريكية عن الإشارة لهذا الموقف ، واستسهل بعضها أن يقول وبالصوت العالى ، إن السودان مع الاتفاقية . لماذا ؟

لأن هناك روابط خاصة تربط مصر بالسودان .

حول هذه الروابط تعددت الاجتهادات ، فى الصحف الأمريكية ، ونقلا عنها فى الصحافة الغربية ، وتبعاً لها بعض الصحف العربية ، كثر الحديث عن الوجود العسكرى المصرى فى السودان والخطر السوفيتى الذى يحاصر السودان من أثيوبيا ، والذى لا يمكن صده إلا بمساعدة من القوات المسلحة المصرية ، بل إن بعض الصحف العربية ، اجتهاداً منها أو نقلا عن غيرها لا أدرى ، حددت أماكن تواجد القوات المصرية المزعوم فى السودان ، وهى أماكن ضحك السودانيون منها ، إذ يستحيل المرور فيها فضلا عن الإقامة بها ، لعدم وجود أية مقومات للحياة فيها .

تصاعدت الأخبار ، تزايدت التكهنات ، وصل الأمر إلى حد اليقين من جانب الصحف العربية على وجه التحديد فصنفت السودان ، كأحد الدول العربية القلائل التى تؤيد اتفاقيات كامب دافيد .

من الولايات المتحدة واصلت رحلتى إلى ألمانيا الغربية ومنها إلى بلجيكا ، فأسبانيا ، ثم عدت أخيراً إلى الخرطوم .

فى الخرطوم ، تجمعت أمامى دراسات المؤسسات . . دراسات أعدها مجلس الشعب ، ودراسات أعدتها وزارة الخارجية وثالثة أعدها التنظيم السياسى .

وفى ضوء هذه الدراسات ، صدر بيان رئاسة الجمهورية ماذا فى البيان . . ؟

فى البيان مقدمة تتحدث عن عمق الروابط بين مصر والسودان ، وهى روابط لا ينكرها ، إلا من يجهل جغرافية البلدين ، وتداخل الحضارة السودانية فى العصور القديمة ، وتمازج الشعبين فى بوتقة الحضارة الإسلامية والعربية من منهل واحد ، فلقد دخل الإسلام إلى السودان عن طريق مصر ، وتعزز الإسلام فى مصر عن طريق الهجرات العربية التى وفدت على السودان عبر البحر الأحمر وغرب السودان لتصب فى مصر ، ثم عن طريق التداخل البشرى بين الشعبين ، والكفاح المشترك ، والتى تلازمت فيه ثورة عـــرابى فى مصر ، مع ثورة المهدى فى السودان ، ثورة ١٩ فى مصر مع ثـــورة ٢٤ فى السودان ، انتفاضة الطلبة والعمال فى مصر سنة ١٩٤٦ ، والتى

تعززت بانتفاضات العمال والطلاب فى السودان فى نفس الفترة ، ثم أخيراً استقلال مصر والسودان ، الذى جاء نتيجة جهد موحد وفى توقيت واحد .

هذا ما تضمنته مقدمة البيان .

ماذا عن صلبه . . . ؟

كان صلب البيان ، أول وآخر تحليل عربى رسمى لاتفاقيات كامب دافيد ، وضعت الإتفاقية فى إطار الصراع العربى الإسرائيلى ، قورنت بأهـــداف الإجماع العربى وخرج البيان فى النهاية ليحكم على الاتفاقية بأن فيها :

إغفال وإهمال وغموض

إغفال لحقوق الشعب الفلسطينى ، وإهمال لقضية الأراضى العربية المحتلة ، وغموض ينأى بها عن صيغة الحل الشامل .

صدر البيان .

وتولت كل الأطراف قراءته حسب هواها ، ولذلك لم تكن قراءة أى منهم صحيحة .

الصحافة المصرية ، صورت البيان ، بأنه تأييد كامل لاتفاقية كامب دافيد .

بعض الصحف العربية ، والتى سبق وسجلت أن السودان يؤيد

الاتفاقية ، عز عليها التراجع ، فثبتت وجهة نظر الصحف المصرية وأيدتها ، وضاعت الحقيقة ، وضاعت معها كل الجهود ، التى حاولتها بعض الأقلام الشريفة فى توضيح الحقيقة ، بل ضاع معها كل صدى لمقابلات صحفية أجرتها معى صحف عكاظ السعودية ، والسياسة الكويتية ، والسفير اللبنانية والمستقبل العربية .

ضاع هذا كله ، ولم تبق إلا شهوة الإثارة وعقدت قمة بغداد .

وفى قمة بغداد ، كان الاختيار أمام السودان واضحاً إما أن يساير الإجماع العــربى فى كل ما يذهب إليه ، ثم يختار لنفسه ما يلتزم به وما لا يلتزم ، وإما أن يكون على مستوى المسئولية ، التى يفرضها عليه انتماؤه ، فيوافق على ما يستطيع الالتزام به ، ويتحفظ على ما يخرج عن نطاق قدرته .

وبعد قمة بغداد .

التزم السودان بما وافق عليه ، ولم يلتزم بما تحفظ عليه ، بينما غير السودان ، ممن وافقوا بغير تحفظ ، فقد مارسوا سراً ، بعض ما تحفظوا عليه علنا ، ومع ذلك فقد اختلفت المقادير .

تحول السودان من كيان ينتمى إلى الأمة العربية ، إلى ساحة يمكن أن تحقق عبره إحدى الدول العــربية كل أحقادها المكظومة ضد إسرائيل ، ولو اتجهت هذه الأحقاد إلى الحكومة لظــل الأمر مقبولا رغم عدم منطقيته ، وإنما اتجه بتأثيره المباشر إلى الناس . كيف ؟

* شل حركة النقل الخارجى ، بما يعنى جمود الواردات ، ومنها مواد غذائية وأدوية ، لا تستهلكها الدولة ، وإنما يستهلكها الناس ، ثم جمود فى الصادرات ، ينعكس بآثاره على الناس وبصورة مباشرة .

* شل طاقة النقل الداخلى ، فبدت العاصمة لأيام وكأنها مدينة للأشباح

* تأثرت محطات توليد الكهرباء ، بنقص الوقود وتأثرت معها محطات تنقية المياه ، فعاش الناس أياماً ، أسرى الظلام والعطش ، وأصبح مشهد الرجال والنساء والأطفال مألوفاً وهم يتجهون إلى النهر .

* تعطلت إلى حد التوقف ، المطاحن والمخابز ، وعز الرغيف على الناس .

* تعطلت حركة نقل اللحوم والخضروات إلى مناطق الاستهلاك . وأسهمت مصر فى حل الأزمة ، إلا أن حلها الشامل جاء بمبادرة من المملكة العربية السعودية .

وتساءل الناس . . كيف يمكن أن ننال من الشقيق ما لم ينله العدو منا ومنهم حتى اليوم . . ثم ما هو مطلوب من السودان . .

هل المطلوب منه ، أن يظهر بغير ما يبطن لكى ينال الرضا فيساير الآخرين فى المزايدة ، وإن كان يعلم سلفاً أنه لن يلتزم بما يعد .

أم أن المطلوب هو أخطر من ذلك ، أن يستشعر الناس فى السودان ، ثقل انتماءهم العربى ، فيولون وجوههم بعيداً عن أصولهم وجذورهم .

ويسأل الناس ، ويسألون . . وأتذرع بالصبر الجميل ورغم مرارة الصبر ، فإنه هو البديل الوحيد والممكن لخيارات تتعدى السودان

وشخصى إلى هذه الأمة . والتى تبدوا وكأن قدرها يسوقها إلى حيث انزلقت . يوم تنكرت لأصالة تراثها ، يوم تمردت على جوهر تقدمها ، يوم تخلت مختارة أو مضطرة عن النهج الإسلامى ، فعادت إلى ما كانت عليه قبل بزوغ فجر الإسلام ، عادت إلى التشرذم القبلى ، والتعصب الطائفى ، والجمود العشائرى ، فإذا بها حتى وهى فى ظل الخطر ، تتحوصل وتتشرذم وتنتصر لنفسها من نفسها ، فإذا هى الجانى والضحية ، القاتل والمقتول ، رغم أن عدوها قد تجاوز أبوابها وربض فى موضع القلب منها يتحرك بالقهر والعدوان يمزق فى كل يوم المزيد من أحشائها .

عادت تلك الأمة إلى ما كانت عليه قبل هدى الإسلام لتستظل بغير راياتها ، وتحتمى بغير قواها ، وتتوزع على الطامعين ، تتواجه باسمهم ، وتتقاتل لحسابهم .

عادت من جديد وكأنها تعيد تاريــخ كان بعضها فيــه يستظل تحت رايات الفرس وهم أعداؤها ، ويستظل جانب آخر تحت رايات الروم وهم الغاصبون لحقوقها ، وفى صفوف الروم والفرس يتساقط الضحايا تحت سنابك الضحايا ، رغم أن العدو هو العدو ولو اختلفت راياته ، وتلونت شعاراته ، فهو فى كل الحالات مغتصب للأرض وسالب للإرادة .

عادت هذه الأمة ، بل تراجعت عن انتمائها الأشمل لتنضوى فى حمى انتماءات بائدة ، لم تثمر حضارة ولم يورق فى ظلها إلا الهوان ، عادت لتتفاخر بفينيقيتها ، وفرعونيتها ، وأشوريتها وبابليتها وبربريتها ،

ولتضيف إليها تصنفات عقائدية ومدارس فكرية ، تكرس انقسامها وتؤكد تمزقها ، وكأن تراثها الحضارى والفكرى لا يغنيها عن تسول الفتات .

اغتربت الأمة عن تراثها ، فإذا هى تلهث خلف من أخذوا منها ونقلوا عنها علم الحساب والمنطق والفيزياء والكيمياء والطب والفلسفة وعلم الكلام والتوحيد والفلك والجغرافيا ، وكانوا هم رواد استنطاق التاريخ ، ليستدلوا من تطور مساره على سنن التطور ونشأة المجتمعات .

اغتربت الأمة عن جذورها ، فإذا بها غافلة عن الخطر الماثل ومستغرقة فى تصور المستقبل ، غير مدركة بأن لا مستقبل لمن لا يعى مسئوليات وجوده ، بل أولويات وجوده والتى تفرض درء كل الأخطار .

اغتربت الأمة عن أصولها الحضارية ، وجذورها الفكرية والذى تجسد فى النهج الإسلامى ، والذى كان هو الإطار والمحتوى الذى قام فى ظله وجودها الظافر والمزدهر ، يوم كانت بالحق والصدق ، (خير أمة اخرجت للناس) . . توحدت فى ظله ، وتجانست بلغته ، واستظلت بمنهجه ، فقادت العالم على طريق النور ، لم تغز ولكنها فتحت ، فتحت أمام البشرية ممالك العلم والتقدم والتطور وأرست فى كل أرض حلت بها قواعد وأركان للحضارة ، نبتت وأزهرت وأثمرت حتى بعد أن غاب ظلها وانحسر وجودها .

اغتربت الأمة ، عن نهجها الإسلامى ، والذى هو عدالة وحضارة أمان وصمود ، تقدم وتطور ، تأمل وعلم ، فكر وبحث ، قوة وقدرة ورخاء ، فإذا بها وهى كثرة تهون أمام الأقل عدداً ، وإذا بها وهى ثروة قـــل أن يجود بها الزمان لأمة واحدة ، فى مواطن الحاجة تستجـــدى مقومات الدفاع عن نفسها ، وتستعين على عدوها بعدوها ، فإذا بها فريسة لكل الأطماع .

اغتربت الأمة ، عن نهجها الإسلامى ، فإذا بها تواجه صباحاً كالليل ، بل هو من الليل أظلم ، قد جردت من بعض نفسها ، وإذا بعدوها شامت طامع متأهب للمزيد من الشماتة ، حين ينسلخ منها جزء جديد .

اغتربت الأمة عن نهجها الإسلامى ، فاكتفت بالقول تواجه به عدوها ، وبالانتحار تواجه به نفسها ، ذلك أنها هى نفسها ، قاتلة ومقتولة .

* * *

ما الذى تبقى إذن . . ؟

تبقى لهذه الأمة ، ضمير هذه الأمة ، والذى كان وحده نبضها الحى ، فى ساعات ظن حتى أبناؤها أنها تجاوزت مراحل الموت ودخلت مراحل التحلل .

هكذا قامت الصحوة الإسلامية العربية ، يوم تصدت للهجمة

الصليبية فدحرتها ، وقبلها هجمة التتار فدمرتها ، بل وهكذا كانت اختلاجة الحياة فيها ، خلال حرب رمضان وهى اختلاجة كان من الممكن أن تكون صحوة كاملة لولا أنها ارتضت أن تستسلم لغفوة جديدة ، حينما وظفت انتصارها لخدمة الصراع الدولى ، وقبلت أن تكون بنفسها ومن نفسها أطرافاً أصيلة فيه .

يبقى ضمير هذه الأمة ، يقودها إلى الصحوة ، على هدى النهج الإسلامى ، لتكون وهى الفئة الكبرى كالفئة القليلة ، الذى حقق لها إيمانها النصر بإذن الله .

وتسطع على الدرب علامات لهدايتها :

* **أن تعى وتدرك** أنها أمة واحدة ، بمعنى أن ما يستهدف أطرافها ، إنما يستهدف قلبها ، والعكس صحيح ، وعليها أن تتجمع ضد الخطر المشترك ولا تتفرق حوله .

* **أن تعى وتدرك** أن المستهدف هو حضارتها وثقافتها ودينها ومنهجها الإسلامى ، الذى تعايش فى ظله كل الأديان وذابت فى إطاره كل الانتماءات العرقية والإقليمية والعصبية .

— وأن إحياء هذه النعرات ونموهـــا ، مهما اختلفت مسمياتها إنما هو نصر مباح لعدوها عليها بغير قتال .

* **أن تعى وتدرك** ، أن الصراع الذى تواجهه ، إنما هو صراع حضارات ، وأن الأرض رغم قداستها إنما هى مجرد رمز لما هو

أغلى منها ، وهو وجود هذه الأمة ، وتواصل عطائها لحاضرها ومستقبلها وللبشرية كلها .

* **أن تعى وتدرك** ، أن الاختلاف حول الوسائل ، هو أوسع الأبواب للخلاف حول الهدف ، فعليها أن لا تفصل تعسفاً أو اجتهاداً ، بين الغاية والوسيلة . وأن ينصرف جهدها للاتفاق حول الوسائل ، فالهدف الواحد ليس عليه خلاف .

* **أن تعى وتدرك** أنه فى صراعات المصير ، فإن أى جهد مطلوب ، وأى طاقة لازمة ، فلا تصنف أبناءها حسب قدراتهم ، وإنما تصنفهم أحد اثنين : إما قادر ويستطيع فهو منها ، أو هو قادر ولا يريد فهو عليها . بصرف النظر عن حجم قدرته وتأثيرها ومداها .

* **أن تعى وتدرك** أن صراعات المصير لا تقبل ترف الخلاف ومهما كانت مبرراتها ، ولا ترضى بأية أولويات تسبق أولوية المواجهة مع العدو الواحد .

* **أن تعى وتدرك** ، أن أى جهد للبناء ، وأى اجتهاد للتطوير ، إنما ينبغى النظر إليه من خلال إحدى زاويتين . فإما أن يكون بناء وتطويراً للمواجهة ، وإما أن يكون بناء وتطويراً خارج إطارها ، وفى هذه الحالة فإنه سيكون جهداً واجتهاداً للعدو وحده ، يناله بالانقضاض عليه أو يناله بتدميره .

* **أن تعى وتدرك** ، أنه وفى مواجهات المصير فإنه يجب أن تختفى

تصنيفات الأمة لنفسها ، من حيث هى مواجهة أو مساندة ، ذلك أن الجميع شركاء بالنفس إذا استطاعوا ، بالمال إذا ملكوا ، بالأظافر والأنياب إذا ما عز عليهم السلاح والمال .

* **أن تعى هذه الأمة وتدرك** ، أن اختلاف المسالك للوصول للهدف لا يعنى تفرقها حوله ، وإلا لوجدت نفسها تبدد طاقاتها سعياً وراء أهداف بديلة وهى فى كل الحالات ليست هدفها الأصيل.

* **أن تعى هذه الأمة وتدرك** ، أنها تمر بمرحلة تاريخية يعز تكرارها ، فهى تملك للعالم كل مقومات قوته ورخائه . وعليها أن تستثمر ما تملك ، لصالح أمنها وسلامها ورخائها .

* **أن تعى هذه الأمة وتدرك** أنها بغير الإسلام لن تكون، فإذا تمسكت بدينها فإنها ستكون على الطريق القويم، طريق التماسك والوحدة ، طريق الجهاد والصبر عليه ، طريق الإصرار على النصر، حيث لا بديل له إلا شرف الشهادة .

* **أن تعى هذه الأمة وتدرك** أن ما تعانى منه اليوم فراغاً سحيقاً ، إنما نشأ فى ظل غياب استراتيجية العمل العربى الموحد ، وهى استراتيجية تستوعب جهود كل أقطارها ، وحتى من غاب منهم ، فإن مكانه المحفوظ فى إطار مثل هذه الاستراتيجية ، سوف يغريه بالعودة ، بل سيضطره إلى العودة .

وعلى الله وحده التوفيق والسداد .

ومن الله وحده هدى اليقين .

الفصل السابع

وقفات مع النفس

لتصفيات الأمة نفسها ، من حيث هي سرابية أو مسالمة ، ذلك أن الجميع شركاء بالنفس إذا استطاعوا ، وبالمال إذا ملكوا ، بالأفكار والآراء إذا ما عز عليهم السلاح والمال .

• أن تعي هذه الأمة وتدرك ، أن اختلاف السبل لوصول الهدف لا يعني تفرقها حوله ، وإلا لو وجدت نفسها تحت طائلها سعياً وراء أهداف بديلة وهي في كل الحالات ليست هدفها الأصيل .

• أن تعي هذه الأمة وتدرك أنها تمر بمرحلة تاريخية لن تتكرر ، فهي تملك للعالم كل مقومات نهضته وعناصره ، وعليها أن تستثمر ما تملك ، [illegible]

• أن تعي هذه الأمة وتدرك أنها بغير الإسلام لن تكون ، فإذا تمسكت بدينها فإنها ستكون على الطريق القويم ، طريق التماسك والوحدة ، طريق الجهاد والصبر عليه ، طريق الإصرار على النصر ، حيث لا بديل له إلا شرف الشهادة .

• أن تعي هذه الأمة وتدرك أن ما تعاني منه اليوم فراغاً سحيقاً ، إنما نشأ في ظل غياب استراتيجية العمل العربي الموحد ، وهي استراتيجية تستوعب جهود كل أقطارها ، وحتى من غاب منهم ، فإن مكانه المحفوظ في إطار مثل هذه الاستراتيجية ، سوف يغريه بالعودة ، بل سيضطره إلى العودة .

وعلى الله وحده التوفيق والسداد .

ومن الله وحده هدى اليقين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ
مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم
مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى
ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ
شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

وقفات مع النفس

يبقى الإنسان واختياره . .

ومع النفس يكون الحساب . .

لا يدفع عنها مرارة الندم ما كسبت ، ولا يعصمها من إثم الغرور إلا حصانة الإيمـــان .

لا يلهيها عن الحق خفوت صوته ، ولا عن العدل مشقة بلوغه ، ولا عن مراجعة الخطأ وإقرار الصواب مهابة تهتز ، أو هيبة تضيع .

تلك غايات دونها الناس والنفس .

دونها الناس ، ولو كان الإنسان فيهم مغفور الذنب لمكانة ، بل لا ذنب له لأنه محروس بحصانات الكمال ؛ لا هفوة ولا عثرة ، ولا خطأ ولا خطيئة .

إلا أن الناس لو غفروا ، فإن الله لا يغفر إلا لمن يشاء ، وإن

الناس لو غفلوا فإن الله عليم بما فى الصدور ، فلا مهرب من محاسبة النفس وإلا كان الحساب يوم لا يشفع للإنسان إلا عمله وما قدمت يـــداه .

ذلك هو الإنسان لو ظلم نفسه ، فماذا عن الإنسان لو ظلم نفسه فى الناس .

ما أفدح المراجعة ، وما أيسر التنصل .

ما أرحم المماطلة واعـــتماد الزمن ينسى له المهضوم حقـــه والمظلوم جرحه ، ولكـــن أين المفر من محاسبة العادل للظالم لنفسه فى الناس يوم الحساب ، ومحاسبة النفس للنفس عما غفلت ، فارتفعت للظلم راية مهما تضاءلت !

ما أقسى مواجهة الناس بما تكره ، وإن كان فيما يحبون ظاهر من الرحمة وباطن من العـــذاب .

ما أثقل إيقاع الزمن وتراكم النتائج وظهور الثمـار ، تقنع الخاطىء بخطئه والمخدوع بما انخـــدع والعنيد بما كان وراء عناده من باطـــل وإن رأى فيه الحق .

ما أعنف الصدمة ، تواجه اندفاعات الحماس بدواعى المراجعة ، تصد قناعة الناس بدعوى ضرورة التقييم .

ثم كيف يواجه الإنسان النـــاس فى نفسه فيكون فيهم مسئولا

وسائلا ، متهماً وفاعلا ، مخطأ ومصححاً ، مطلوباً وطالباً .

يرى الناس ، بعض الناس ، فى ذلك كله انزلاقاً للثقة تنال من المهابة .

وأقول كيف تكون المهابة بخطـــأ تؤكده خطيئة الصمت عليه ، وصواب دونه وهن الحرص على بلوغه .

وأرانى فى الناس موزعاً بين كمال يرونه فى المكانة فيحسبونه صاحبها ، وذلك ظلم له ولأنفسهم ، وبين ما أعرفه فى نفسى ويعرفه الناس فى أنفسهم ، لا عصمة ولا كمال ، فالكمال لله وحـــده .

ولأننى أعرف فإننى أعترف ، ولإننى أعترف فلا مناص من المجابهة ولا مهرب من حتمية التصحيح .

تتعالى الأصوات حماساً لنجاحات لا أنكرها إلا أن المهللين لهـــا يغفلون عن أوجه القصور فيها ، ربما لأنهم فى دائرة الضوء يصونهم الوهج عن تبين مساقط الظلال .

ولذلك فإننى أجابهم .

أعدد مظاهر القصور وأعددها .

ويرتفع صوت منهم ، يسألنى ، أين تقع مسئوليتى منها . . ؟

وأقـول :

بل هى مسئوليتى كلها ، وإلا لما كنت معكم الآن وهنا ، أجابهكم بعد أن جابهت نفسى ، وأصارحكم بعد أن تبينت خطأى ، وهو خطأ المسئول بموقعه ليتحمل عن الناس الخطأ ، ما دام يظن أنه يقودهم على درب الصواب .

ويقول غيره :

هى مظاهر للقصور أفرزتها الممارسة وضخمها الوافــدون علينا ، وهم من كانوا فى مواقع الرصد قصداً ، ينكرون الإيجابيات ، ويضخمون السلبيات .

ولأننا كنا نعمل وكانوا هم لا يعملون . . .فإننا دفعنا ضريبة العمل كاملة ، وهى فى كل الحالات ، الصواب والخطأ ، النجاح والفشل ، التقــدم والعثرات .

وأقول :

لو كان ذلك غاية المطلوب منهم لكفى ، فما أحوجنا لمن يبصرنا لجوانب القصور فينا ، ذلك لا يلغى ولا ينفى نجاح ما بلغناه ، ولكى يظل نجاحنا مرهوناً بتعادل خطر ، إذا تراكمت حوله بالغرور والغفلة أخطاء وعثرات ، وقتها لن يشفع له أنه نجــاح ، فما كان للماضى وما سيكون للمستقبل نحن صناعه ، أو هكذا ينبغى أن نكون .

ويقول ثالث :

أنت تفتح الباب واسعاً أمــام أعاصير التشكيك ، والتى كانت

عند البعض محسوباً على مواقفهم ، بل هى عند البعض كل مواقفهم ، لا يشفع فيها أن بها الحق أو بعضه أو حتى الحق كله ، لأنها مدفوعة بالحقد ومغموسة فيه وكان ذلك يكفى عند النـــاس للشك فيها ، والآن وقـــد أكدت ما قالوا ، ماذا بقى للناس من أمن اليقين . . ؟

وأقول :

بل يبقى للناس كل اليقين فإذا كنا فيهم لا نداري الأخطاء بالتستر عليها ، فنحن بقدرة المجابهة أكثر قدرة على التصحيح .

ويقول رابع :

ما قلته صحيح ، بل هناك ما يمكن أن أضيفه عليه ، ولكن أما كان متاحاً أن نعالجه سراً ونحوطه بجـــدران تحقق الكتمان ؟

وأقول أبـــداً . . .

فما هو للناس ومن الناس ، إنما ينبغى أن يكون لهم بغير خفاء ، تلك مسئوليتهم وحقهم وواجـــبهم ، هى مسئوليتهم فالقصـــور منهم ولو كانوا فى غير مواقع المسئولية والتأثير ، ذلك أن سكوتهم على بوادر القصور وهم فى مواقعهم من القاعدة ، هى التى شجعت على تفاقمه فى مستوى القمة ، وهم بصبرهم عليه بذرة ، هو الذى ساعد على نموه أشواكاً مسمومة تهدد الدوح العظيم ، وهم بما سكتوا غفلت القيادة .

وهم بما استهانوا، شجعوا غيرهم على التهاون والهوان، ثم إن هذا حقهم وواجبهم ، حقهم لأن يعرفوا ، وواجبهم أن يصححوا ، ولا معرفة ولا تصحيح بغير علانية المجابهة .

وأرانى فى موقع آخر أعدد الخطايا . .

ويسمع الناس ويوافقون ، بل يزيدون ويزايدون ويضاعفون . .

ويرتفع صوت يقول : إن من يزايد عليك فيما تطرح ، يضيف للاتهام تهماً ، ولصور القصور المزيد منها يفعل ذلك وهو فى موقع المسئولية ، فإذا كان يوافقك عارياً من ثوب النفاق ، فهو إما مدرك للخطأ وعاجز عن تصحيحه ، وإما مستفيد من الخطأ ، ويردنى الاعتراف به مدخلاً للصفح عنه . .

ويضيف . .

إن الخلل فى التجربة وليس فى القائمين عليها . . ويسرد قصة تاريخ طويل .

تاريخ بدأ يوم تشكلت رؤيانا للممارسة الديمقراطية بما يفترض أن يكون حقاً وعدلا ، من حيث هى مشاركة الناس كل الناس فى السلطة مشاركة فعل لا رأى ، مشاركة ممارسة فاعلة وفعالة .

ولما كانت مصالح الناس تتدرج من احتياجات حياتهم اليومية ،

إلى ما يمس احتياجات ، بيئاتهم إلى ما يمس الوطن والأمة ، فلقد كان الرأى أن تتشكل مجالس للحكم الشعبى ، تكون قمتها من حيث هى سلطة ممثلة فى قواعدها ، وهى مجالس للقرى فى الريف ، ومجالس الأحياء فى المدن ، ثم تتدرج تجمعاً فى مجالس مركزية ، على مستوى القسم والمنطقة والمديرية والمدينة ، لتتجمع فى النهاية فى المؤتمر القومى للحكم الشعبى المحلى ، وهو السلطة العليا باعتباره الوعاء الأشمل الذى يضم القواعد بمختلف مستوياتها وانتشارها ، وتتولى تلك المجالس مسئولية التشريع على النطاق المحلى ، كما تتولى مسئولية التخطيط والتنفيذ والمتابعة لمشاريع التنمية المحلية والخدمات ، ويتم تشكيل المجالس فى غالبية عضويتها بالانتخاب ، وفى جانب منها بالتعيين من ذوى الاختصاص والخبرة فى الشئون الإدارية والفنية .

ولقد كان المقصود بمثل هذا التنظيم ، أن يكون بديلا للإدارة الأهلية ، والتى كانت تتجسد فيها سطوة المال وعراقة النسب والاتصال المباشر بالطائفية بإفرازاتها العرقية والإقليمية ، ولأن الإدارة الأهلية كانت هى سلطة الاستجابة لتطلعات الناس للعدل والتقدم والتحديث ، فإن التفاعل بينها وبين الناس كان محتوماً ، إلا أنه كان محكوماً وفى نفس الوقت بقبضة الإدارة الأهلية على عصب الحياة فى مناطق سيطرتها ، فلقد كانت هى الأمن والقضاء وجباية الضرائب ، كذلك فلقد كان التنظيم الجديد للحكم الشعبى المحلى هو البديل للممارسة الليبرالية والتى أثبتت تجربة السودان والعالم الثالث أنها لا تصلح لمواجهة واقع التخلف وغياب الوعى ، الأمر الذى أدى إلى أن تكون الديمقراطية الليبرالية مجرد واجهات مزيفة يختفى

وراءها سيطرة رأس المال والإقطاع والتسلط الطائفى والقبلى والعشائرى ، ولذلك فإن ما كان مطلوباً من الحكم الشعبى فى السودان هو أن يكون إلى جانب تجاوزه لكل سلبيات الممارسة الليبرالية ، مدخلا للناس لممارسة ديمقراطية حقيقية ، يتحقق لهم بها حق المشاركة فى السلطة الفعلية ، كما تتيح وفى نفس الوقت القضاء على الهيمنة المركزية ، التى تقصر إمكانياتها على أن تغطى احتياجات الناس فى بلـــد شاسع كالسودان .

تلك هى قصة التاريخ الطويل ، لا كما سردها المعارض المعترض على التجربة ، وإنما سرد نواقصها ، ولقد ردد ما رددت ، إلا أنه طرح دون أن يقصد سؤالا خطيراً .

هل تكمن حماية التجربة ، ومن منطلق الحرص عليها فى التستر على النواقص والأخطاء فيها . . ؟

أم أن حماية التجربة تتطلب قوة المجابهة ، حساباً عسيراً على الخطأ ، قبل أن تكون إشادة وتضخيما للنجاح ؟

سؤال أثـــاره ليضيف إلى هموم النفس هموماً ، خاصة أنه أنهى حديثه المعارض والمعترض على التجربة بكاملها ، بأن خير الشهود من كان بالمصلحة أو القـــربى فى غير مواطن التحيز ، فإذا شهد عدل ، وإذا قال أنصف ، وإذا أشار إلى مواطن النقص فلا يمكن أن يتهم بأنه ينكر الكمال .

ولقد كان فيما قال نصف عادل ، فما أنـــا إلا شاهد على نفسى

بحكم مسئوليه شاملة ، إلا أننى تحت وطأتها لا أستطيع إلا أن أحمى تجربة بشرت بها ، دعوت إليها ، وقمت على أمرها حتى قامت وذلك بكشف المستور من نواقص فيها .

وأرانى فى موضع آخر ، ألمح مظاهر ظلم وأبادر لتصحيحه فإذا بى والناس شهود ، ظالم فى الحالتين .

ظالم يوم وقع الظلم ، وظالم يوم رفعه .

ولقد كان الخيار كالصراط دقيقاً .

بـدأ ذلك فى تلك الشهور المبكرة التى تلت الزحف ليلة ذكرى مولد الهدى ، وهى الفترة التى أسميتها لو تذكرون ، طريـق الأشواك .

كان تجمعنا قد تم اختراقه بالتطرف بهدف اغتياله بالتطرف أيضاً ، وكنت بين من كنت معهم لا أملك إلا صوتى ، ومع ذلك فإننى لا أنكر أننى كنت مع التأميم وضد المصادرة ، فيما أجمعت الأغلبية على التأميم والمصادرة .

صدرت القرارات فى عجلة ، ونفذت فى عجلة مقصودة ، لتحدث دوياً حسبه الغافلون منا حماس الناس ، بينما تعمد المتربصون بنا أن يكون لغماً فى طريقنا .

ولقد مرت الأيـام .

تجاوزنا طريق الأشواك ، وغالبنا الغدر ، ونسى الناس التأميم

والمصادرة ، نسيها بعضهم حماساً بها ورضى ، ونسيها البعض إذعاناً لأمر واقع ولا جدوى حتى من الضيق منه .

إلى أن جـاء يوم . .

طلب منى وزير مسئول أن أقوم معه بزيارة لبعض المنـازل المصادرة ، تمهيداً لاختيار بعضها لإقامة ضيوف الدولة ، وذهبت معه .

وفى حديقة البيت الأول والأخير الذى شاهدته ، لمحت لعبة طفل أدركها الإهمال فأصابها عطب ظاهر ، وفى مدخل البيت لمحت حـذاء لطفل ، وربما لطفلة ، وعلى الفور خرجت .

وكانت ليلة . .

سألت نفسى فيها مراراً وتكراراً ، عن ذلك العدل المزعوم الذى يقوم على ظلم فادح .

أى عدل هو ذلك العدل ، الذى يسلب الطفل لعبته ، والأسرة مسكنها ، والناس حقهم المشروع فى المـأوى ، وفى صباح اليوم التالى ، طلبت قائمة كاملة بكل ما جرت مصادرته من أمـوال الناس .

تشكلت لجان وكان قرارها سابقاً على تكوينها . . إعادة المصادرات إلى أصحابها . . ومهمتها أن تعيد للناس حقوقهم بما هو أقرب إلى كمال العدل ما أمكن ذلك

وقامت ضجة . .

تذكر المظلومون ظلمهم فسخطوا ، وتنبه النـاس إلى ما كان منا فلم يرضوا . .

لم يرضوا عن الجميع وأنـا منهم ، لم يشفع لى ما لا يعلمون من ظروف أحاطت .

ويفرض السؤال نفسه . . هل يكون السكوت على الظلم أحياناً ، أقرب إلى الرفق بالنفس ، أم هو إلى ظلم النفس أقرب .

بل هو ظلم للنفس آثم وصريح ، ذلك أن الرحمن يرصد ، والنفس لا ترضى عن سكوت على ظـلم تبينته ولو كان صمتها ضمان رضى الناس عنها .

وأجدنى بين الكبار صغيراً . .

قاعة كبرى تضمنى وللمرة الأولى ، بين ملوك ورؤساء هم رموز أمـة بأكملها ، عرفـوا الحكم وتعرفوا على خفـايا السياسة العربية والدولية ، وأنا بينهم وافد جـديد ، لا أملك من الخبرة إلا طموحات التغيير ،ويتلون العالم بمساربه وخفاياه وحقيقة قضاياه بما كنت أقرأ فى الصحف والدوريـات ، وهى فى غالب الأحيان أبعد ما تكون عن الحقيقة ، بل هى فى بعض الأحيان تعتيم متعمد للحقيقة .

كان هذا أمرهم وأمرى ، يوم كنت بينهم فى لقاء قمة عربية طارىء ، عقدت بالقاهرة لمواجهة أحداث عمان الحزينة فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ .

تحدث بعضهم فى اتزان عن خفايا الصراع العربى باعتباره انعكاساً لصراعات دولية .

تحدث بعضهم فى حماس عن دور مجرم للصهيونية والإمبريالية لتحريك الأحداث فى المنطقة وبأيدى أبنائها لتحقيق مطامعها ، تحدث بعضهم وأسهب وأفاض فى تصوير بشاعة المذبحة التى تعيشها الثورة الفلسطينية .

تحدث الجميع ، حللوا واستهجنوا وأدانوا ، وتواصلت ساعات المؤتمر تبحث عن الحل .

وارتفع صوتى متردداً ومعترضاً .

إن عمان هى مسرح الأحداث الدامية ، والقاهرة مهما كانت مكانتها ومكانة المجتمعين فيها ، معزولة عن الأحداث ببعد المكان . ما أقترحه أن ينتقل المؤتمر إلى هناك ، أو أن يذهب إلى عمان بعض أعضائه نيابة عنه ، فهناك أطراف الصراع وهم إخوة هناك مسرح الأحداث الدامية وهناك يكون الحوار لإسدال الستار على بؤرة النزيف فى كيان الأمة العربية .

وافقوا . . لعجبى . .

فكيف يكون فاقد الخبرة ، هو صاحب رأى يتبناه أهل خبرة ، هى حكمة الممارسة .

وافقوا وذهبت . .

ذهبت إلى عمان مرة ، وعدت من عمان مرة ورحلت إلى عمان أخرى ، ورجعت ومعى ياسر عرفات ، وبعده وصل الحسين ملك الأردن .

وتحول المؤتمر من ساحة للمتابعة لأحداث تجرى ، إلى منبر للتوفيق بين إخوة .

وبغض النظر عن مخاطر الطريق والدروب والمأوى فى ليل عمان الحزين .

فإننى تعلمت يومها درساً لن أنساه أبداً .

. . بأن اقتحام المخاطر هو أقرب الطرق للقضاء عليها .

* * *

ذلك هو يوم عيد أمجد إنجازات العمر ، عام كامل مضى على اتفاقية السلام والوحدة بين الجنوب والشمال .

من أسهم فى عقد الاتفاق جاء يشارك فى الاحتفال بمرور عام كامل على انحسار ليل الفرقة فى السودان إلى غير رجعة .

حفل فى القصر وبهجة فى القلب ، وينحنى خلفى هامس بأن السفارة السعودية فى الخرطوم قد تم احتلالهـا ، وأن رهائنها هم : السفير السعودى والقائم بالأعمال الأمريكى والقائم بالأعمال فى سفارة بلجيكا فى الخرطوم .

ومن الذى احتل السفارة . . ؟ بعض الفلسطينيين ولهـدف غير معروف حتى الآن .

فليجر اتصـال سريع بمدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى الخرطوم ، فهو الأقدر على معـالجة الأمر دون مضاعفات غير مطلوبة .

ويأتى الجواب كالصدمة . .

لقد غادر الخرطوم قبل ساعات من الأحداث ، وتتشابك الظنون لتنسج تساؤلات مظلمة . . !

هل قصد بالتوقيت أن يكون كقطع الليل ظلاماً فى يـوم الفرح . . ؟

هل قصد أن يكون الرفض اللفظى والتى تبنته بعض الدوائر العربية للوحدة والسلام فى الجنوب ، قد تحـول إلى طعنة فى الظهر فى غفلة الشقيق استبعاداً لغـدر يأتيه من شقيقه . . ؟

هل المقصود ، أن نؤمن بأن الدم المهدور هو قدرنا الدائم ، إذا

توقف فى الجنوب بالاتفاق ، فلن يتوقف فى الشمال بالمباغتة . . ؟

هل المقصود أن أواجـه نفسى فأستشعر مرارة الجحود بعد أن افتديت بحياتى الثورة الفلسطينية فاستخلصت رموزها من براثن الدم فى الأردن . . ؟

تشابكت الظنون ، ولكننى كنت رغم ذلك مطعماً بالأمل ، ظننت أن ما جرى سينتهى حتما ، وبعدها من الممكن أن نفرغ للعتاب .

ألزمت نفسى ببرنامج الاحتفال ، غادرت الخرطوم إلى الجنوب فى صباح اليوم التالى ، ولكن أذنى وقلبى كانا يتابعان ما يجرى فى الخرطوم .

وانتهى ما كان يجرى فيها بمذبحة .

قتل القائم بالأعمال الأمريكى ، والقائم بالأعمال البلجيكى ، وأطلق سراح سفير المملكة العربية السعودية ، واستسلم الخاطفون لرجال الأمن .

ماذا بعد هذا . . ؟

* * *

أحس الناس فى السودان بأن ديارهم قد استبيحت وكرامتهم قد تأثرت ، وذلك بالمعنى الحميم لحمى الدار ومعنى الكرامة .

هى دار كل واحد فيهم ، هى كرامة كل فرد منهم ، رجل وامرأة وطفل .

أحس السودانيون أنهم ما استطاعوا أن يحموا ضيفاً ولا يجيروا لائذاً لحماهم ، ولا استطاعت أرضهم ولا سماؤهم ولا أشجارهم أن تظلل بالأمان من وفدوا عليها يحملون مشاعل صداقة شعوبهم .

أحس السودانيون أنهم بما حدث أنهم غبنوا فى مشاركة كانوا فيها كمن يدفع بجهده وعصب عروقه عربة معطلة انحدرت إلى واد سحيق ، فلما وصلت القمة واستعادت قدرة الحركة دفع صاحبها من القمة إلى الهاوية ظلماً وغدراً .

أحس السودانيون بهذا كله وغضبوا وغضبت لهم ومعهم ، ورغم الغضب ، وفى لحظة الاختيار ، كانت الموازنة بين مشاعر شعب وقضية أمة .

واخترت . .

أصدرت المحكمة أحكامها . .

وقررت أن يسلم المحكومون لمنظمة التحرير الفلسطينية بحكم مسئوليتها عن الفلسطينيين جميعاً ، ولتتولى هى تنفيذ حكم القضاء السودانى .

كان للقرار المحسوب صداه ووقعه وانعكاسات فى مجالات ثلاثة .

* لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ولقد كان أول اعتراف عربي ودولي بالمنظمة كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني .

* بالنسبة للساحة الدولية ، فقد قابلت القرار بالغضب.

بالنسبة للولايات المتحدة ، فلقدقرنت الغضب بالقطيعة .

قطيعة سوفيتية «قديمة» أعقبت الغـدر وكنتيجة له ، ثم قطيعة أمريكية مستحدثة ، وبالنسبة للسودانيين فقد اختاروا الصمت .

وهكذا واجه السودانيون قوى الدنيا منفردين .

تلقيت من العالم العربي بمختلف أقطـاره برقيات تأييد للقرار .. ومن السودان ولا واحدة .

رواسب مرارة رغم أنه لم يرتفع صوت معارض للقرار . ولقد كان ذلك هو الخيار الصعب دائماً .

هل الاندفاع مع مشاعر الناس إذا غضبوا ولو بالحق عدل .

أم بالالتزام بما ينفع الناس ، لا تنقطع صلاتهم بمنابع مصالحهم الأصيلة ، ولاء لقضية وانتماء لأمة .

وبين نظرة يصوغ منها الغضب هياج المشاعر ، وبين اختيار يفرق بين الأصيل والعابر .

تكون مشقة الاختيار .

* * *

ما الذى يعصم الإنسان من إثم الظنون . ؟

تعصمه هداية من ربــه لو شاء له الهــدى ولو تكاثف الإنس والجن على ضلاله ، فما كانوا يفلحون .

برقية عاجلة تخطرنى ، أن رئيس دولة أفريقية مجاورة للسودان سيصل مطار الخرطوم بعد ساعات لأمر عاجل ولا يحتمل التأجيل ، ثم إنه حدد لزيارته ساعة واحدة يعود بعدها إلى بلاده لارتباطه بما يحتم وجوده فى نفس اليوم ، ولذلك فإنه طلب أن يكون اللقاء فى مطار الخرطوم . يهبط من طــائرته ثم يعود إليها بغــير مراسم استقبال أو مراسم وداع ، ثم هو يطلب أن يكون لقائى به لقاءاً ثنائياً لا يشاركنا فيه أحد ، ويفضل أن لا يتسرب خبر زيارته إلى أجهزة الإعلام ، ذلك أدعى لنجاح مهمته .

وحضر . . والتقينا .

وقبل أن نتبادل كلمات المجاملة التقليدية ، وجدته يخرج من حقيبته مظروفاً يضم عدداً من الوثائق ، بعضها تقارير سفاراته فى الخارج ، وبعضها تقارير منسوبة لجهاز معلومات عالمى ، وكلها تتحدث وبتركيز عن مؤامرة وشيكة سيشهدها السودان ، ثم فى تماثل بلغ حد التطابق ، تشير الاتهامات كل الاتهامات إلى شخصية سودانية كبيرة ، كان لها دورها الأكبر فى عقد اتفاقية أديس أبابا ، بل كانت هى الطرف المقابل أثناء مباحثات الوحدة والسلام . ثم بعد ذلك يأتى تحديد الأهداف .

* هو طامع فى أحكام السيطرة على جزء من السودان ، بحكم وضعه السابق هناك فيما قبل السلام والوحدة .

* هو راغب فى الاستقلال بهذا الجزء ، بغض النظر عن أية محاذير وعقبات ، فله اتصالاته وعلاقاته الدولية ، التى يمكن أن تساعده على تحقيق هدفه .

* هو غاضب لأنه قبل السلام والوحدة كان هو الرجل الأول ، وإذا به بعد السلام والوحدة لا يأخذ مكاناً يتناسب مع وضعه ، سواء أيام الصراع أو الوفاق .

ثم بعد ذلك قائمة طويلة من الأسماء ، كلها متوجة باتهامات التعاون مع نفس الشخص ، وكلها أدوات مسخرة لخدمته .

قرأت ذلك كله وأعدته إليه فى هدوء .

لم يخف دهشته ، وسألنى هل كنت أعلم . . ولذلك فإن الأمر كله ليس مفاجئاً وبالتالى ليس صادقاً بالنسبة لى .

ولما أجبته نفياً ، أظهر امتعاضاً قدرت دوافعه . لقد غادر بلده فى سرية ، ووصل إلى بلدى فى سرية ، واقتطع من زمنه زمناً ليطلعنى على خطر داهم يتهدد بلادى ، ومع ذلك فإننى أقابل ذلك بهدوء يبلغ حد الاستهانة ، غضب وتململ وتهيأ للوقوف ليغادر المكان ثم المطار عائداً لبلاده .

استبقيته مستأذنا أن يسمح لى بأن أوجه إليه بعض الأسئلة . وسألته :

* ألم يلفت نظره ، ذلك التركيز حول موضوع واحد تستقبله عدد من سفاراته وفى فترات زمنية متفاوتة ؟

* ألم يتوقف ليسأل نفسه حول هوية ذلك التقرير (الثمين) الذى تبرعت به جهة مجهولة ، ليطلع عليه نقلا عن جهة معلومة ، ثم كيف اتفق أن يتصادف أن يكون موضوع التقرير ، هو نفس موضوع التقارير التى بعثت بها إليه سفاراته النشطة وفى نفس الوقت ؟

* ثم سألته لماذا يكون هو الوسيط المختار ، الذى يتلقى المعلومات الخطيرة لينقلها إلى السودان ؟

وأجاب بما أجاب .

وعلى سلم الطائرة ، التى لم تكن محركاتها قد توقفت منذ هبط منها إلى أن عاد إليها قلت له :

إن الكمال مطلوب ، إلا أنه غير ممكن ، أو على الأقل هو غير متاح إلا فى حالات نادرة ، فإذا صادفنا الكمال فعلينا أن نسأل أنفسنا ، هل هو كمال الدقة أم كمال التزييف .

استفسرنى عما أقصده .

صعــدت معه إلى طائرته بعد أن أمــر بوقف محركاتها حتى لا يغطى ضجيجها على حوار ظن أنه سيطول.

حدثته عن الرجل ودوره، عن الرجل وموقفه وجهده بل وجهاده فى تحقيق السلام والوحدة، حدثته عن كل الخيارات التى طرحت أمامه فاختـــار منها ما هو فيه، ومن يختار لا يتمرد على اختياره، وإنما يتمرد من يقبل تحت ضغط أو إكراه.

حدثته عن السلام الذى تحقق فى الجنوب، وكيف أنه فاجأ الأصدقاء فأسعــدهم، والأعداء فأغضبهم، وبعض الأشقاء، فاحتاروا وترددوا بين الرضا والإنكار.

حدثته عن السلام والوحدة فى جنوب السودان، وكيف أخل بمعادلات ومخططات إقليمية ودوليــة سعت لأن يكون مدخلها للتطويق ومدخلها للتسلل للقارة من جــديد لإجهاض نهضتها واستنزاف ثروتها.

حدثته عن هــذا كله وقلت له، إن الذين يفشلون إنما يفرقون عادة بين الفشل واليأس وخاصة بعــد صدمة الخيبة مباشرة، هم يحاولون بأساليب ووسائل جديدة، ومنها ما كان هو بحسن نواياه أحدها.

تتسرب المعلومات إليه، **تتأكد** حين **تتجدد** من مختلف المصادر، ثم تصل إلى غــيره فابتلع الطعم فهو بالنسبة لى ليس صاحب غرض ولا صاحب مصلحة، وتحت تأثير هذا كله تتصاعد الأفعال من

جانبي بردود الأفعـــال من غيرى ، يبدأ الشرخ فى البناء الحديث يتسع ، ثم يتسع ، ثم ينهار البناء .

ثم وجدتنى أحـــذره كأنى كنت أتنبأ مصيره ، حذرته أنه نفسه قد يكون ضحية نفس الأسلوب ، تتوافر له المعلومات المزروعة قصـــداً وتتكرر فإذا بمن يخلص له خائن فى نظـــره ، وإذا بمن يثق به موضع اتهام ، وهكذا ينفض من حوله المخلصون بعد أن يكون هو يد الإبعاد لهم ، ولا يبقى حوله إلا أصحاب الغرض ، ووقتها ، فإنه سيكون وحيداً رغم وجود العشرات أو حتى المئات من حوله . ووقتها فإنه سيكون كالشجرة الوحيـــدة ليس من حولها من يصد الرياح والأعاصير عنها ، فتقتلعها العواصف .

وللأسف الشديد كان هذا مساره باختياره ، اقتلعته الريح ، حين لم يتصد إلا النفاق لحمايته من العواصف .

* * *

يتصادم ما أسمعه مع ما أعرفه فأصمت .

يتزايد الضجيج ، فأراجع نفسى فى أمر نفسى ، استفسر لأزداد يقينا يؤكد قناعتى ، أو يثبت ظنونا علت أصواتها فتزداد قناعتى .

يتزايد اللغط فإذا به ظلم صريح ، بل هو ظلم مظلم ، ذلك أن من ناله الظلم كان قـــد تخلى مختاراً عن موقعه وأصبح بلا سلطة ولا سلطان يحميه من مقولات باطلة .

ولأننى أعرف ومن يسمع من الناس لا يعرفون ، فلقد قررت أن أتصدى للظلم بكشف الحقائق ، راجعنى من استشرت وكان له منطقه .

إن العاصفة أوشكت على الذبول بل إنها خمدت ، ثم إن من ظللته اتهامات الباطل قد انسحب من دائرة الضوء . وهو فى الظل لن يعكس حتى ظله .

سوف ينسى من قال أنه قال ، وسوف ينسى من سمع أنه سمع ، فلا داعى إذن للتصدى لظالم سكت عن ظلمه ، ومظلوم سكت عن ظالمه .

ولقد كان منطقه أبعد ما يكون عن مشاعرى ، كنت أعرف مالا يعرفه الناس ، ذلك كان أقرب إلى الإمساك عن شهادة حق وعدل ، وهو ظلم .

ثم كيف يمكن السكوت على حق مظلوم ولو قنع بقناعته بأنه برئ من كل ما يقال .

ثم من ينتصر للمظلوم ، إذا لم ينتصر له أكثر الناس قناعة ببراءته .

ثم الأهم والأخطر كيف أترك بعض الناس ، يأخذون بعضهم بالشبهات ، فلا أتصدى لهم بيقين الحقيقة .

وخاطبت الناس فى أمر المظلوم .

تحدثت عن عطائه حين تولى أمر الناس فى بعض أمورهم .

تحدثت عن تضحياته ، عندما تنازل عما هو حقه ، حين اقتنع أن ذلك أمر يفرضه عليه واجبه .

تحدثت عن الغرض وكيف يزور الحقائق ويمتهن الحقوق .

تحدثت وما استطعت خلال الحديث أن أغالب مشاعرى فغلبتنى .

كنت فى موقع المعـــرفة أعرف حجم العطاء ، فكبر فى نفسى وقع الظلم على من أعطى فى صمت ، فناله الحقد بالباطل وبأعلى الأصوات .

واستمع الناس وسكتوا .

واستمع الحقد ، فنالنى منه ما نالنى .

وصبرت . . واحتكمت إلى الله فى أمرى ، وأشهدت الله على قصدى ، وسألته سبحانه أن يكون وحده الحكم . وحكمه العدل على آثم الظنون .

ومرت شهور .

واحتكم المظلوم للناس فنصروه ، ولم يكن النصر له بقدر ما كان الانتصار على من تصور أنه يستطيع أن يخدع الناس . فما خدع إلا نفسه .

* * *

هو صديق ، جاءنى يوماً وعرض صداقته ، بأنها لوجه الله وحده ، بلا غرض ولا مطمع وتقبلت بالامتنان صداقته ، لم يكن طامعاً فى سلطان فما كان بالمقيم بيننا ، ولا طامعاً فى مال فلقد أنعم الله عليه بما يفيض ويفيض عن حاجته ، ركنت إليه بالثقة ، فأصدقنى النصح . . صافياً صادقاً وأمينا .

ما انتصحته إلا نصح ، ما سألته إلا صدق ، وفى رحاب صداقته استشعرت اطمئناناً أفتقده حين أسمع من بعض الناس فى بعض الناس ما تثبت الأيام أنه لم يكن خالصاً لوجه الحق وحده .

ويجئ يوم ، ليته ما جاء .

استقبلته مرحباً به ، ثم أسمع منه بعد ذلك ما تلقيته فى البداية فى دهشة ، فلما استطرد ، استقبلت ما يقوله فى وجل ، وتركنى بعد ذلك فى حيرة من أمر نفسى .

ذلك أنه فيما قال ، إنما نال من أمانة من أثق به ، وهى ثقة عززتها حادثات وأحداث وتعاون طويل ووثيق . وها أنذا أجد نفسى حائراً بين أمين ومؤتمن ، وأحدهما ينال أمانة الآخر بما يعرفه معرفة اليقين .

وتمضى ليلة ككل الليالى ، نسج ساعاتها أرق ، وأشرق فجرها وأنا مازلت أسير الحيرة بين ما سمعت وما أعرف ، وأيقنت أننى وحدى الخاسر فى الحالتين .

إذا صدق فيما قال ، فلقد ضاعت الثقة فيمن افترضت فيه الأمانة .

وإذا كان كاذباً فيما ادعى ، فبماذا أفسر طمأنينة نعمت بها فى ظل صداقته .

وسألت دون أن أكشف عن هدفى .

سألت . . هل يرتبط الصديق بمصلحة مباشرة أو غير مباشرة ، عند من قال فيه ما قال :

وجاءنى الجواب . . صاعقا .

نعم . . كان يطلب منه ما ليس من حقه فرفض . . وسألت نفسى ، كيف يكون اليقين .

وترددت فى الصدر آيات ربى ، فكانت هى طريق هدى لكل يقـــين .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

* * *

وأخيراً تلك لمحات من وقفات مع النفس ، على طـــول مسيرة مازالت إرادة الله وبيعة الناس تضعنى فيها موضع المستشعر ثقل الأمانة ، الراضى بتبعاتها ، المقر بمسئوليته عنها.

وهى وإن كانت فى جانب منها مواجهة مع النفس ، فإنها فى الأساس والأصل خشية من الله

فخير للمخلوق أن يسأل نفسه ، قبل أن يسأله ربــه لعله يوم الحشر يحسن الجواب .

وأقول هذا نهج فى الحياة وبالحياة ، سعياً طموحاً لما هو أفضل ، إلا أن ما هو أفضل مرهون بكمال لا يبلغه إلا من بلغ غـــاية المؤمن ومنى المسلم ، أن يكون نهجه هو نهج الإسلام ، للناس قبله ، للناس معه ، للناس بعده . فما كان الإسلام إلا كمالا .

* * *

حالت [illegible] هل يرتبط الصديق بصديقه [illegible]

[illegible] قال ما قال

نعم [illegible] كان [illegible] من جهة [illegible]

نفسي ، كيف يكون اليقين

وترددت في الصدر آيات ربي ، فكانت هي طريق هدى لكل يقين .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦ ﴾

* * *

وأخيرا تلك لحظات من وقفات مع النفس ، على طول مسيرة مازالت بإرادة الله وبرحمة الناس تقتضي فيها موضع المستشعر لثقل الأمانة ، الراضي بتبعاتها ، المقر بمسئوليته عنها .

الفصل الثامن

النهج الإسلامي لماذا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ (41) ﴾

النهج الإسلامى لماذا

تقلبت المسالك على دروب المحــاولة ، فما أصابت النفس سكينة ترجوها .

أيام تراكمت فيها الجــدب وفيها العطاء ، فيها خطى تسارعت ، وأخريات تباطأت ، ومعايير الحساب ينقصها العدل ، فلقد أعطى الناس الكثير فماذا أصابوا ؟

ثم ماذا يربح الإنسان لو صادف فى النــاس من يرون فى الرجل موقعه ، فيزيدون المنقوص ، ويزينون الخاطئ ، وينسجون الثناء معابر لخطاه ولو سلك بهم دروب المهالك .

ماذا يجد فى الناس لو صادف فى الناس من تعصب بالحقد ، فلا يرى فى النهار إلا سواداً .

هو بين النفــاق والحقد يقلب الأمر وحده ، يغــالب هوى

النفس فتغالبه أنها أمارة بالسوء . يثنيها الثناء ، من أن تتبين الرشد من الغى فتكون الضلالة .

هى الشورى .

ولنا فى نهج الرسول شوامخ .

ولدينا هداية الإسلام تراث .

نراه صلوات الله وسلامه عليه ، مكللا بالظفر بعد بدر ، لا يقطع فى أمر الأسارى ، وهو النبى المرسل .

يسأل :

فيسمع عمر يقول :

أخرجوك وكذبوك ، فاضرب أعناقهم .

ويسمع عبد الله بن رواحة :

أنظر واديا كثير الحطب فأدخلهم فيه ، وأضرم فيه النار .

ويقول الصديق أبو بكر :

قومك وأهلك يا رسول الله استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم .

ويأخذ بالرأى الأخير .

ويعاتبه العزيز الحكيم .

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

يا سبحان الله ، عتاب أم وعيد . ؟

بل تلك آية القرآن ، وذلك برهان النهج العظيم ، لا تشفع الرسالة للرسول إذا أخطأ ، ولا تشفع المكانة لولى الأمر لو حاد عن رشد السبيل .

هى الشورى

أرادها ومال بها نحو ما تهفو له نفسه ، برأ بذوى القربى ورحمة بصلات الأرحام .

سمعها من الصديق فأخذ بها ، وسمع غيرها من ابن الخطاب وابن رواحة فما صادفت فى النفس قبولا فأنكرها .

وهو حكم بين ثلاثة :

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

هى قداسة الشورى :

وهى قداسة يلزم ابن عبد الله بها نفسه ، ولو مست شئوناً هى من خواص خاصته ، تلك التى تتعلق بالزوج والولد .

لا يترك عنان الأمــور تسوقها خيول العاطفة ، وإنما يلجمها ربما قبل غيرها بالشورى ، فينادى صحبه يسألهم المشورة فــيما بعثت به زينب بنت محمد تطلب أن تفتدى زوجها أبى العاص بن الربيع بقلادة هى كل ما تبقى للرسول ولها من ربح خديجة .

غلبت عاطفته أن يقطع فى الأمر وحده فيقبل . وعصمه دينه أن يجاوز العدل فيرفض ، وأشاروا عليه .

وعادت زينب من ديار الشرك لتلحق بالمسلمين فى يثرب .

والصديق أبو بكر :

ونراه فى يوم الهول يغالب الهول ولكنه لا ينسى الشورى .

هو بين ذلك الذى ذهب الحــزن برشده يمتشق سيفه ويهدد

من يقول بأن محمداً قد مات . . فلا يلقى إليــه بالا وإنما ينشد أسماع من التفوا حوله بالروع فى يوم الهول العظيم .

يسمعونه يقول :

« أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت » .

ثم يتلو :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

يزرع السكينة فى قلوب أدماها الحزن على رحيل النبى الأمين ، ويهرع إلى السقيفة حيث تجمع الأنصــار والمهاجرون وبوادر فتنة تطــل برأسها بين فئتين من المسلمين ناصرت الرسول ، وكأنها من صدمة الحزن ترتد لعصبيتها القديمة .

هناك من ينادى بأن تكون الخلافة للأنصار ، وهناك من يدعو بأن تكون الخلافة للمهاجرين ، ويرتفع صوت أبى بكر فوق لجاجة هى بوادر فتنة ، لا يوجه الحديث إلى أهله من المهاجرين ، وإنما يواجه به بعض نفسه بين الأنصار الذين ناصروه فى دينه يوم أقبل عليهم فى رحاب رسول الله ، وهم ناصروه فى أنفسهم بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى حبيب الله يخاطبهم :

(يا معشر الأنصار) :

« انكم لا تذكرون فضلا إلا وأنتم له أهل » .

ويواصل حديثه .

ثم يطلب البيعة لأحد اثنين ويطلب مشورة الناس فيهم .

ليس بينهم الصديق بن قحافة ، ليس منهم أول من آمن من الرجال وافتدى الأولين من المسلمين بحر ماله ، ليس فيهم من كان أحد اثنين إذ هما فى الغار ، هجر البلد والزوج والولد مؤثراً رسول الله وناصراً لدين الله .

ليس معهم من كادت أن تكون خلافته لرسول الله وصية منطوقة ، ما أراد النبى أن يصوغها بالكلمات حرصاً على حق المسلمين فى البيعة ، وحق ولى الأمر فى الشورى تحميه وتصونه من عثرات لا يطيقها قلب مؤمن .

كادت أن تكون .

فلقد أوصى صلوات الله عليه ، وهو فى فراش المرض بأن

يصلى أبو بكر بالناس ، راجعته عائشة لرقة تعرفها فى الأب والصديق خشية أن تغالبه دموعه حين يأخذ بين الناس مكان الرسول ، فراجعها صلى الله عليه وسلم ، مرة منكراً ومرة مغضباً ، وأصر على ما قطع .

بل إنه صلوات الله عليـــه خرج إلى المسجد وصلى مع الناس خلف الصديق فى يوم غالبه فيه المرض وقضى فيه أمر الله فكان مآبه إلى الرفيق الأعلى .

هل هناك ما هو أكثر ليقطع بيقين الوصية . . ؟

ولكن الصديق أبى .

رفع ساعدى عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح وطلب من الناس البيعة لأحدهما إذا أرادوا .

فأحـــدهما ، من دعا الرسول ربه أن يعز الإسلام به ، وثانيهما هو من وصفه الرسول بأنه « أمين هذه الأمة » .

ويصيح عمر :

« والله لأن أقدم فيضرب عنقى فى غير إثم ، أحب إلى من أن أؤمر (أكون أميراً) على قوم فيهم أبو بكر » .

ويحتبس صوت ابن الجراح بشوارق الدمع .

ويرى الناس غير ما يراه صفى الرسول وصهره ، ويمتثل .

هى الشورى

ويفتح عهده بكلمات مشرقات ، هى الشورى ، هى الشورى ، هى الشورى ، لا يطلبها مقولة ورأياً ، بل يطالب الناس بأن يعينوه على أمر نفسه إن جاوز فى مسلكه مشورتهم .

« إنى وليت عليكم ، ولست بخيركم . إن أسأت فقومونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم » .

هى الشورى

قبل الخلافة وبعدها . لم يأنس فيها لرأى صديق ولو كان عمر ، وعمر هو ما نعرف شديد فى الحق يأخذ الناس بما يأخذ نفسه وأهله به ، حتى ظنها الغافلون غلطه .

هو سيف الله البتار إذا ما شاب مسلك الناس ما يظنه خروجاً على قيم دينهم .

هو ما نعرفه فى بدر والخندق ويوم الفتح ، بل هو ما نعرفه غضوبا حانقا يوم الحديبية ، يوم غابت عنه حكمة صلح أراد به الرسول أن ينتصر لدين الله ففتح الله قريباً كما وعد .

هو ابن الخطاب ، لا يراجع أعرابياً يغلظ للرسول المقولة وإنما ينشد سيفه ولا يتركه ، إلا بعد أن يسمع النبى يخاطبه :

« أتركه يا عمر إنه صاحب حق » .

هو عمر إذن .

فما بال أبو بكر لا يأخذ برأيه وحرصه على الإسلام ما يعرف ونعرف . . هى الشورى .

لا يقطع أمير المؤمنين فى أمر الناس بغير مشورتهم ، ومشورتهم هى صلاحهم ، وصلاحهم فى صلاح دينهم ودنياهم .

هى الردة . .

مات الرسول فحسب المنافقون ومن ضعف إيمانهم ولم يستقر إسلامهم بأنه ملك ولى ، فأحل لهم الخروج عن كل طاعة وامتنعوا عن أداء الزكاة .

وطلب خليفة رسول الله المشورة .

رأى البعض ومنهم عمر ، أنها ليست ردة ، فليس فيها خروج على الإسلام ، فلنتأن بهم لعلهم يثوبوا إلى الرشد .

ورأى الصديق .

أنها خروج على الإسلام ، فما الإسلام إلا أركانه . والزكاة منها . ويقسم

« والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله ، لقاتلتهم عليه » .

ويسأله عمر :

« كيف تقاتل قوماً يشهدون أن لا إله إلا الله ، وقد أخبر الرسول أن من قالها فقد عصم دمه وماله » .

ويحتكم الصديق لما فيه صلاح الناس من أمر دينهم .

هل هو صلوات تؤدى ، وشهادة تتلى ، أم هو واجبات وحقوق ؟

بل كذلك هى . .

فالإسلام لا يتجزأ ، والدين ليس لغو لسان . وإنما هو نهج حياة .

ويخوضها الصديق ، ويتراجع الضلال .

تلك هى الشورى ، ينشدها ولى الأمر ليلى بها أمـــر نفسه ويرعى الله فى أمر عباده ، فلا يضله عن الحق حواجز النفاق أو الحقد ، ولكن أين نحن منها فى هذا الزمان . ؟

فى هذا الزمان .

حيث تراجعت خطى المسلمين عـــن نهج الإسلام حيث غاب تراث السلف تحت وطأة التقليد والوافد .

حيث انفصمت الغايات عن الوسائل ، فلم يتبق لنا من المجـــد القديم إلا تاريخ وكأنه الأساطير ، لاتساع الهوة بين ما كان وبين ما هـــو كائن .

نتشدق بإسلام الأندلس وإسلام الفرس وسقوط دولة الروم تحت سنابك المسلمين ، نتحدث عن رايات الإسلام ترسو بالهداية على شواطئ

الهند والصين والساحل الشرقى لأفريقيا ، ثم ننسى ما تسلح به المسلمون الأوائل ، نزهـو بابن رشد وابـن المقفع وابن الرومى والفارابى والخوارزمى وابـن سينا ونتغافل عـن أن دولـة العلم إنما قامت فى رحاب دعوة الإيمان . نفخر بالعمارة الإسلامية ، والملاحة الإسلامية والصناعـة الإسلامية ، ونتجاهل أنها حضارة قامت فى رحاب عدل الإسلام .

عدل الإسلام :

ذلك الذى دعا ابـن عبـد الله أن يكشف صدره لأعرابى طلب أن يقتص منه لأنـه غلط عليه بقدح فى يمينه حتى يستوى مكانه فى صفوف المجاهدين قبل بدر .

عـدل الإسلام ذلك الذى يرتفع فى رحابه صوت رسول الله فوق المنبر :

« من كنت جلـدت له ظهراً فهـذا ظهرى فليقتد منه ، من كنت أخذت له مالا ، فهـذا مالى فليأخذ منه » .

عدل يتساوى فيه الراعى مع الرعية ، عدل تغيب فيه كافة مظان الظلم ، ولو كانت أقرب إلى العدل بل هى إلى العدل أقرب .

يسأله عمـه العباس أن يوليه ما يولى المسلمين من أعمال فلا ينتهى

منه متعللا بما لا يصيب حرجاً ، وإنما يريدها سابقة لعـدل الإسلام وقاعدة يلى الناس فيها أمور الناس .

يقول له الرسول الكريم :

« وإنا والله ياعم لا نولى هذا الأمر أحـداً يسأله ، أو أحداً يحرص عليه » .

وكانت سابقة جرت عليها الأمور بعده ، اختص بها من الناس أقرب الناس إلى رسول الله ، العباس مرة أخرى والزهراء فاطمة ، ما تبقى له من البنين والبنات .

توجها إلى خليفة رسول الله ، يسألانه حقهما فى قطعة أرض صغيرة كان الرسول قد أصابها فى بعض الفئ ، وكان يجرى بعضاً من نتاجها لفاطمة ولبعض أهله .

فيذكر الصديق قولا للرسول :

« نحن معاشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة » .

وتلحف الزهراء فيما تطلب ، وهى ما يعلم خليـفة رسول الله من رقـة حال وكثرة عيال ، فما يذكره إلحافها إلا بما إستنه أبوها ، أن لا يلى الناس ما يطلبون وما يحرصون عليه .

وهو يأخذ نفسه بما أخـذ الناس وآل البيت به فما تدنو ساعته ، إلا وعائشة فى حضرته يقول لها :

« أنظرى ما زاد فى مال أبى بكر منذ ولى هذا الأمر فرديه على المسلمين » .

وما حملته عائشة لعمر بعد أن استخلف الصديق إلا ثلاثة :

« بعير . . كان يستقى عليه الماء » .
« ومحلب كان يحلب فيه اللبن » .
« وعباءة كان يستقبل بها الوفود » .

مخلفات رجل كانت بداية عهده بالإسلام ، هى بداية الإسلام ، افتداه وهو دعوة بجل ماله ، وافتداه وهو دولة بحياة أقرب إلى المسغبة ، ومات قرير العين ، موعده الجنة .

هو عدل الإسلام .

مدخل المسلمين للفتح والحضارة حين كان فيهم عمر ، يمنع الطعام عن زوجه بعد أن قارب فاها ، ويرده لمال المسلمين ، يقتص للمحكوم من الحاكم محرضا « إضرب ابن الأكرمين » .

ويخاطب عامله فى البصرة :

« قد صحبت رسول الله ، فعززت به بعد الذلة ، وقويت به بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مسلطاً وملكاً مطاعاً ، تقول فيسمع منك ، وتأمر فيطاع أمرك فيالها من نعم . . إن لم ترفعك فوق قدرك وتبطرك على من دونك ، تحوط من

النعمة تحوطك من المعصية ، فلهى أخوفها عندى عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بك إلى جهنم ، أعيذك بالله وأعيذ نفسى من ذلك » .

ثم هو يودع دنياه بمقولة يلخص فيها كل حياته ، ويفسر فيها كل انتصاراته .

يرد على المغيرة بن شعبة ، عندما اقترح عبد الله بن عمر ليكون خليفة لعمر فيقول :

« لا أرب لنا فى أموركم التى ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ، إن كانت خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كانت شراً فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ، إلا أننى قد جهدت وحرمت أهلى وإن نجوت كفافاً ، لا وزر ولا أجر . . إنى لسعيد » .

ثم نراه يضع مواصفات رجل يريد أن يوليه أمر أحد الأمصار فيقول :

« أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميراً لهم بدا وكأنه أميرهم ، وإن كان فيهم وهو أميرهم بدا وكأنه واحد منهم » .

ولا نرى جبروت عمر إلا أمام الباطل ، ولا نلمح خضوع عمر إلا للحق ، هو بين الناس يقول :

« لا تزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية ، فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال » .

فتراجعه امرأة وعلى مشهد من الرعية :

هى ليس لك يا عمر . . ألم تسمع قول الله :

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾

وعلى مسمع من الناس يقول عمر:

« أصابت إمرأة وأخطأ عمر » .

* * *

ذلك هو النهج الذى اقتحم به الإسلام ساحات الحرب وساحات العلم وساحات الحضارة ، فما كان السلف من المسلمين يقتحمون تلك الساحات إلا بالإسلام ونهج من اتبعه .

ذلك كان نصر الصمود يوم (مؤتة) ، يوم رجحت كفة الروم بمائتى ألف مقاتل لا يقابلهم من المسلمين إلا ثلاثة آلاف رجل ، وبدا لكل ذى عينين أن لا تكافؤ ولا توازن ولا تقارب بين قوة البغى وقوة الحق فقام فيهم ابن رواحه يقول :

« يا قوم . . إن التى تكرهونها هى الشهادة التى خرجتم تطلبونها ، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة جنود ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . . انطلقوا فوالله ما رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان ، ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد . انطلقوا فإنها إحدى الحسنيين إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ورسوله وليس لوعد الله خلف ، وإما الشهادة نلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان » .

وانطلقوا وكان صمودهم كالنصر ، بل هو من النصر أكرم ، فحين يسقط قائد المسلمين زيد بن حارثة ، يحمل اللواء عنه جعفر بن أبى طالب ، وحين يترجل يقاتل واللواء فى يمينه ، وحين تبتر يمينه يأخذ اللواء بيساره ، وحين تبتر ، يمسك اللواء بعضده ، وما يسقط إلا وقد ازدان جسده بتسعين طعنة . . فأى بطولة . . وأى نصر .

ذلك هو نهج الإسلام ، تمثل فى الرعيل الأول من المسلمين ، يستوى فيهم الأمير والرعية ، كلهم فى العـدل سواء وكلهم فى البذل سواء ، وكلهم فى سبيل الله ، فكان نصره .

* * *

ماذا تبقى لنا من عصور الظلمات . . ؟

حين تباعدت مساحات الزمن فاصلة بين ريادة السلف وضلالة الخلف ، فانحسرت الأمجاد .

يوم ولى الرعيل الأول ، فما ارتجت من بعدهم المنابر لبكاء أبى بكر خشية لله أن يكون بالظن ظلم نفسه ، فغفـل عـن حـق أو نأى عن عدل وهو يحكم بين الناس .

يـوم خلت الأسواق مـن هرولة عمر ، يتفقد الناس يطعم الجائع ويجير الخائف ويرد الظالم وينتصر للمظلوم .

يوم تخلى ابن الوليد عن حمل اللواء إطاعة لولى الأمر ، ومضى فى صفوف المجاهدين يقاتل فى سبيل الله .

يوم اشترى عثمان الآخرة بالأولى ، وضوعف له أجر ما وهب بعشرة أمثالها .

يوم سقط سيد الشهداء ابن أبى طالب ليكون دمه الطاهر صيحة الحق أمام الخوارج الذين سفكوا دمه الطاهر .

يسقط الشهيد وابـــن الشهيد وابـــن الشهيد حفدة رسول الله ، ليسكتوا صوت الفتنة يطلقه معاوية بن أبى سفيان ، يخاطب من الناس من عارضوا نزوعه إلى ما ينزع إليه الأباطرة والملوك :

« بلغنى أنكم تنقمون قريشاً ، وإن قريشاً لولاها لعدتم كما كنتم أذلة ، إن الله بنى هذا الملك على قريش وجعل هـــذه الخلافة فيها ولا يصلح ذلك إلا لها ، وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها . . إلا ما جعله الله لنبيه » .

هى ردة إذن عن البيعة والشورى ، هى نكوص إذن عن نهج الرسول وخلفاء الرسول ، هى عصبية طائفية وكأنها صدى الطغيان القديم ، ذلك الذى اجتاحه الإسلام كما اجتاح أصنام الكعبة .

عودة لتصنيف الناس بالعرق والنسب ، وحديث عن ملك موروث

ذلك ما سقط دونه سيد شهداء أهل الجنة ، وذاك ما سقط فى فى سبيله ولدا الزهراء ، ولتسقط من بعدهم أمجاد السلف العظيم تدرجاً ، لا بيعة لمن يرى الناس أن فيهم صلاح دنياهم ، وإنما هى بيعـــة يفرضها ولى الأمر فى حياته وامتداداً لحياته لمن يرى أن يورثه . تقليد لم يعرفه الإسلام ولا أقره رسول الإسلام .

لم يحدد للناس خليفة ، لم يشر للناس على واحد من أهلـــه أو

واحد من صحبه ، وكان منهم من هو أعز عنده من الولد ، فيهم على قرة عينه ، أول من آمن وأول من حمل سيف الجهاد .

فيهم أبو بكر ، وعمر وعثمان والزبير وطلحة ، فيهم العباس وابن الوليد ، وكلهم وغيرهم كانوا أكفاء لحمل الأمانة ، **إلا أنه تركها للناس .**

ما اختلف عليها إلا عمر بن عبد العزيز حينما ردها عن نفسه ، وما أباها إلا سمى عمر يوم رد البيعة للناس وفوض الناس فى أمرهم فبايعوه .. ولكنه كان ومضة نور فى ظلمات ما بعد الراشدين ، فما بقى الخليفة عمر بن عبد العزيز يلى أمور الناس إلا سنوات ثلاث ، وما كان قبله تفاقم بعده .

وبدأ انحسار النور .

تحولت الدولة الإسلامية التى أقامها الإيمان إلى ساحة للفتن . سقط الأمويون فى دمشق ، وبعدهم العباسيون فى بغداد ، وتحولت الأندلس من منارة للإسلام وروضة من رياضه ، إلى ملاعب للهو والمجون والتآمر ، دويلات إسلامية تتحالف مع أعدائها ضد بنى عقيدتها ، تراجع الزحف الإسلامى عن انطلاقه الظافر فى أفريقيا ليبقى بقعاً من الضوء على سواحلها .

اجتاح التتار الثقافة الإسلامية يوم دمروا مكتبة بغداد العظيمة ، فما تصدى لهم من تبقى من بنى العباس ، شغلهم عن حماية الدولة فتن

القصور ومجالس المجون ومحكاة الأكاسرة وبقايا البرامكة الذين حكموا من وراء الستار .

صمت علماء الحديث ، وعلماء الفقه وعلماء الفيزياء وعلماء الطب وعلماء الفلك وعلماء الكلام وعلماء الفلسفة وأساطين الترجمة ، ليعلو صوت شعراء النفاق على أبواب الخليفة . تراجع العدل من باب الولاة ، ليتربع الظلم متسترا بضرب الدفوف وغناء الجوارى .

ثقل على الأسماع شعر المعرى وأبى العتاهية وابن الرومى لتصبح النواسيات فى ديوان الملك ، كالمعلقات أيام الجاهلية فى أستار الكعبة .

وانقسم المسلمون إلى عرب وموالى ، إلى شيع تنقسم على أمور دينها ، إلى دويلات تتقاتل ، وجاء عصر التغريب .

هجمات الصليبيين استهدفت الحضارة الإسلامية قبل أن تستهدف بيت المقدس .

تمكن الموالى من السيطرة على أجزاء الدولة الإسلامية ، ثم خضوع الدولة الإسلامية لسيطرة الإمبراطورية العثمانية ، حيث اللغة حاجز ، وحيث نوعية الثقافة حاجز ، وحيث اختلاف المنبت الحضارى حاجز ، وكلها حواجز دون التطابق المطلوب بين فلسفة الحكم وجوهر الإسلام ، رغم وحدة العقيدة ، ذلك أن القرآن ركيزة

الإسلام هو المدخل وهو الجوهر وهو الأساس ، وما عداه فهو شروح لا تضيف إليه وإنما تنهل منه .

فهو الجامع الشامل المانع لأى اجتهاد يخرج بالعقيدة إلى نطاق التحريف ، وهو المرتكز الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية حين شمخت ، وهو منهل الفكر والتشريع والفقة الإسلامى ، وهو دستور الدولة الإسلامية الأوحد ، التى أوجدت الدولة الإسلامية على اختلاف المكان والزمان .

وهـــو بهذا السند للمسلم حاكمــاً ومحكوما . وهو الفيصل بين المسلم حاكماً ومحكوماً ، وهو المرجع للمسلم فى أمور دنياه ودينه ، فإذا عز على الحاكم فهمه ، فقد عز عليه أن يحكم بما جاء فيه ، وهو بنص آياته عربى مبين :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾

﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾
عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ ﴾

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا
عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ
ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

هو عصر للتغريب إذن .

باعتباره غربة مفروضة على الدولة الإسلامية عن منبعها الأصيل .

ثم ماذا بعده . . ؟

تولى أمر المسلمين حفدة الصليبيين سقطت الدولة الإسلامية بالقهر الأوروبى ، لا لتعايش الغربة عن منابعها الأصيلة ، وإنما لتمارس الإنكار لتلك المنابع .

وفد الإستعمار الغربى ليستبدل الزائف بالأصيل . وبالرغم من كل ما واجهه الاستعمار الأوروبى فى كل أجزاء الدولة الإسلامية القديمة من ضروب المقاومة الباسلة لوجوده ، إلا أنه رحل منها ليبقى فيها .

يبقى وفى ظل معادلة مستحيلة ، معادلة يكون فيها ولا يكون .

يكون بسلبيات ما غرسه ، يكون بنموذج ارتضاه ، يكون بأسلوب فى الحكم وأسلوب فى الحياة وأسلوب فى الاقتصاد وأسلوب فى العلاقات الإنسانية هى نتاج بيئته وتطوره التاريخى وظروفه المناخية وعقيدته الدينية والطبيعة الجيولوجية لأرضه والعلاقات التى تحكمه بغيره .

ومع هذا فإنها ظلت رغم رحيله باقية ثابتة بإرادة من تمردوا عليه .

هكذا رحل الاستعمار الغربى وبقى ، هكذا تواصل وجوده رغم رحيل جنوده عن أراضينا وغياب أساطيله عن سواحلنا وتنكيس راياته فوق صوارينا ، بل ويكاد يكون فى غيابه أقوى مما كان فى وجوده .

ذلك أن ما فرضه الاستعمار الأوروبى فى أجزاء الدولة الإسلامية بالقهر ، تواصل وجوده بالرضا والقبول والاختيار .

انقسمت الدولة الإسلامية إلى كيانات تفصلها حدود ويحرسها جنود وترتفع فوق صواريها رايات من الممكن أن تتصادم رغم وحدة العقيدة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة المصير .

بل إنه وفى داخل الكيانات المنفصلة ، إذدهرت عصبيات للفكر والعرق والدين والعقيدة ، فهناك الشوافع والزيديه ، وهناك العرب والزنوج ، وهناك الشيعة والسنة ، والعلويون والدروز ، وهناك العرب والبربر ، وهناك الأقباط والموازنة ، الأرمن والكاثوليك والأرثوذكس ، وهناك الفينيقيون والفراعنة ، وهناك الأنصار والختمية ، وهناك الإقليميون والشعوبيون من كل ملة ونوع وصنف .

كل ذلك والدولة الإسلامية الأولى ما تعلم .

من روادها ، سلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى ، ومن حلفائها صلحمة ملك الحبشة المسيحى الذى هاجر إليه الرواد الأوائل من المسلمين .

ومن أركانها قول العزيز الحكيم :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ * قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ
وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم
مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ
تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ
بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ
سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾

لا إكراه فى الدين . . مبدأ لدولة الإسلام منذ كانت دولة الإسلام فى عهد روادها الأوائل وينص دستورها الإلهى الملزم ، فإذا الاستعمار يفرض التجزئة ومع التجزئة يبذر بذور الفتنة ، فلا يتواجه المسلم مع من يحاربه فى دينه أو يحاربه فى رزقه أو يحاربه فى عرضه ، وإنما يحارب المسلم المسلم لاجتهادات فى الدين ، وينفصم التعايش الذى

أقره الإسلام بين مختلف الأجناس والديانات والعروق ، فتكون المواجهة بل ولتكون الخلافات مدخلا لصراعات تهدد الجزء المبتور بمزيد من التجزئة ، وتنتقل التجربة الأوروبية رغم اختلاف الظروف إلى أجزاء الأمة الإسلامية ، فإذا بنا على أبواب مرحلة الدويلات الطائفية والعنصرية والعرقية والدينية بعد أن توحدنا بالإسلام فى دولته العظمى .

تنتقل التجربة الأوروبية رغم اختلاف الظروف فى أجزاء الدولة الإسلامية كما بناها الرواد الأوائل ، لا فواصل جيولوجية كجبال الألب ، ولا تفصلنا مسطحات مائية ولا حواجز لغوية كتلك الفاصلة بين شعوب أوروبا ، ولا يعزلنا صراعات عقائد ولا خلافات مذاهب كتلك التى أشعلت الحروب فى أوروبا فى العصور الوسيطى ، ولا تتعارض مصالحنا وإنما تتكامل مواردنا فلسنا فى سباق على أسواق ولا تنافس على خامات والتى أشعلت الحروب العالمية بين الدول الأوروبية .

ومع ذلك فنحن نعيش عصر الانقسام ، حتى الخطر الماثل ، والذى يستهدف الدين والحضارة والمصير ويعيد صياغة تاريخ الإنسان على الأرض ليبرر مطامعه التوسعية على أرضنا ، ما استطعنا أن نواجهه إلا بالخلاف فيما بيننا .

وعلى مدى ثلاثة عقود من الزمان تحول الصراع مع إسرائيل إلى خلاف بيننا حول وسيلة إدارة هذا الصراع وحسمه ، وهى

خلافات لا تعكس اجتهادات متباينة ، بقدر ما هى خلافات ترتد مباشرة إلى محاور عالميه ، نرتبط بهـا ونتصارع لحسابها وعلى حساب قضيتنا المصيرية .

وفى مجال السياسة ونظام الحكم ، فلقد نقلنا وبغير تعديل النموذج الأوروبى ، وحسبنا أننا وصلنا إلى الكمال . الديمقراطية الليبرالية .

وفى ظـــل ظروف اقتصـادية واجتماعية وثقـافية يستحيل أن يصمد فيها الفرد ، أمام قهر مؤسسات قادرة على سحق إرادته وتطويعها بما يتفق ومصالحها ، مؤسسات أفرزتها عصور التغريب والاستعمار الأوربى وعهود القهر .

المؤسسة الإقطاعية :

وهى القادرة بحكم ملكيتها لوسيلة الإنتاج الرئيسيـة أن تطوع إرادة المزارع لما يخدم مصالحها .

المؤسسة الطائفية :

وهى القادرة بحكم صراعاتها المحتومـة أن توظف إرادة المقهورين لما يدعم موافقتها .

المؤسسة الرأسمالية :

وهى بسطوة سيطـرة رأس المال قادرة على تطويع الإرادة ، كما هى قادرة على تحديد الفاصل بين الجوع والكفاف .

المؤسسة الحزبية :

وهى فى كل الحالات واجهة لأى من المؤسسات الثلاث ، ولن يكون لها سوى دور التضليل .

بالإضافة إلى عوائق الاتصال وانتشار الأمية وغيبة الوعى ، وكلها تحيل الديمقراطية الليبرالية إلى واجهة تتحرك عبرها مصالح القوى المسيطرة باسم الشعب وضده .

انتقلت إلينا الديمقراطية الليبرالية من أوروبا الغربية دون أن نلتفت إلى خلافات فى التكوين النفسى والثقافى والاجتماعى والتطور التاريخى الذى يفصلنا عنها .

فالديمقراطية الليبرالية الأوروبية إنما قامت على ركائز ثلاثة :

* فهى عائد الصراع الناجح ضد سطوة الكنيسة ورجال الدين ، والذين كانوا يساندون حق الحكام فى السيطرة الموروثة تحت شعارات التفويض الإلهى ، وذلك مالم يعرفه الإسلام ، ولا عرفته الدولة الإسلامية الأولى .

فما ورث محمد ﷺ دعوته ، ولا أورث سلطانه .

* وهى عائد الثورة الصناعية ، والتى قهرت ثم حررت الفرد الأوروبى من عبودية الأرض ، حققت له من عائد العمل ما مكنه من أن يتخلص من كل احتمالات القهر السياسى .

ثم هى عائد التاريخ الاستعمارى الذى مارسته أوروبا عبر الثلاثة قرون الماضية ، والذى أفرز سلسلة من التفاعلات :

* توفير عائد للخدمات الاجتماعية حقق للمواطن الأوروبى التخلص من المرض والأمية .

* تضخم جهاز الدولة التنفيذى ليتسنى لــه القدرة على إدارة المستعمرات ، مما أدى تبعاً لذلك إلى تقلص سلطات الملوك حتى أصبحت سلطات رمزية . ولمــا كانت هناك استحالة فعلية لإمكانيات الصراع داخل الجهاز التنفيذى المتضخم ، فلم يكن هناك مفر من تجديد قيادته عبر الاستفتاء المباشر من الشعب ولفترات زمنية محدودة .

وبالنسبة للنظام الاقتصادى السائد فى أوروبا المسيحية فإن انتقاله وبغير تعديل ، إلى أجزاء الدولة الإسلامية القديمة ، إنما كان صدمة وبكل المقاييس .

صدمة للبيئة الحضارية الإسلامية ، لا من حيث هى نظام اقتصادى متكامل تواصل وجــوده منــذ فجر الإسلام إلى عهد الاستعمار الأوروبى ، وإنما هى صدمــة لما تبقى منه من قيم صاغت وجدان المسلم وشكلت ركنا أساسياً فى علاقاته الأسرية والاجتماعية .

فالإسلام الــذى يدعــو للتكافل ووصل الأرحام وإيتاء ذى القربى يحض على رعاية اليتيم والمسكين وابن السبيل ويضع الزكاة فى مرتبة

العبادات ، وينهى عن اكتناز المال ويحرم الربا ، ويضع الميسر فى مرتبة الكبائر ، ويدعو للجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال .

وهو بهذا إنما يتعارض بل يتصادم مع القيم الاقتصادية الرأسمالية التى نقلها الاستعمار الأوروبى إلى أجزاء الدولة الإسلامية الرائدة .

فهو يقـوم على التنافس المطلق وعلى الفـردية المطلقة وعلى الاعتراف بالقوة المستقلة لرأس المال ، ويضع المضاربة فى مصاف النشاط الاقتصادى المشروع ، ويحمل الفرد مسئولية وضعه الاقتصادى دون أى تدخـل ، أن يربح الملايين أو يعيش دون الكفاف ، ولا تتوقف مناشطه إلا بضوابط القـانون الوضعى حيث لا حلال ولا حرام .

وهنا تسقط كل المحـاذير أمام ما حرمه الإسلام ، الميسر والربا وتجارة الخمور ، وحيث يسود التنافس المطلق فى مجال النشاط الاقتصادى فإن السمة الغـالبة التى تلاحقه هو سقوط كافة صور التكافل الاجتماعى ، وبسقوطها يتهاوى صرح القيم الإسلامية العميقة الجذور ، وتتشكل أنمـاط جديدة من العلاقات الاجتماعية تسقط بـدورها مفهـوم الأسرة ومفهوم الجـوار ومفهوم التعاطف الإنسانى مع اليتيم والمسكين وابن السبيل ، ويسقط معهـا جميعاً مـا أحله الله ، فهو مرفوض مادام لا يؤدى إلى الربح ، وما حرمه الله فهو مقبول مادام لا يؤدى إلى خسارة .

وفى ظل ظروف تاريخية تعيشها أجزاء الدولة الإسلامية الرائدة ، فإن توزيع المناشط الاقتصادية فيها لا يتوازى مع المناشط الاقتصادية فى أوروبا ، وبالتالى فإن انتقال النظام الرأسمالى إليها ، إنما هو تكريس للتخلف والظلم ، فحيث يتجه النشاط الاقتصادى لاستثمار رأس المـــال فإنه يختار دورة الربح السريع والتى لا تحققها سوى المنـــاشط التجارية والوساطة والمضاربات ، وكلها مناشط غير إنتاجية بالإضافة إلى أنها لا تتسع إلا لقطاع محدود من القوى العاملة .

وبانصراف رأس المال عن الاستثمار الإنتاجى ، فإنه بذلك يعطل الدورة الإنتاجية ويقلل من الإنتاج ، ممـــا يؤدى إلى التضخم بكل مضاعفاته الاقتصادية والاجتماعية ، وهنا تكمن أولى بذور التبلور الطبقى ، فالصراع الطبقى غير المتكافئ .

ففى تجمعات تتجه بغالبيتها للزراعة والصناعات الحرفية ، وينسلخ منها مئات يتفرغون للمناشط التجارية ، فإن الفارق الملموس لتوزيع الثروة سيبدو صارخاً فضلا عن أنـــه ظالم ، كما أن المقارنة العددية بين فئة الفقراء وفئة الأغنياء إنما تغرى بحسم الصراع عن طريق الفوضى ، وذلك كله هو ما نهى عنه الإسلام وحذر ، بل نظم الإسلام وقنن .

فجعل من أموالهم حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، وتوالت الآيات المنزلات تضع الفواصل بـــين الربح والاستغلال وتحدد العلائق بين العمل والعائد .

يقول الرحمن :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) ﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٨) ﴾

ثم فيما بعد نظام الحكم ونظم الاقتصاد الغربى ، والذى جاء فى ركاب الاستعمار ، جاءت سنن فى الحياة اليومية .

ليس أخطر ما فيها ما بدى منها تعارضاً مع الإسلام ، إنما تحدياً وخروجاً عليه .

ذلك أن الإسلام ليس دين كهانة ، يتستر الناس فيه بما هو باطن عن ما هو ظاهر ، وإنما الإسلام هو دين مظهر ومخبر .

لا يأخــذ الناس بعضه فيؤدون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون أياماً معدودات ، وإنما الإســلام بما يصون قداسته وهو ما يظهره المسلم من آيات إسلامه ، أن لا يجاهر بمنكر ، فإذا جاهر به فهو صاحب دعوة للخروج على الدين .

وبنظرة على كل أجزاء الدولة الإسلامية الرائدة ، بعد أن تحررت من الاستعمار الأوروبى ، فإننا نجــد مظاهر الإنكار للدين هى أوضح ما ترك الاستعمار .

* * *

كيف إذن يكون الخلاص .

كيف ترتد لنا الأصالة ، أو نعود إلى الأصالة الإسلامية ؟

كيف يتسنى لنا أن نراجع الزمان فــلا نطالبه بأن يتوقف لنعود إلى ما كان عليه السلف العظيم ، وإنما نسايره ونحن ننشد الاقتداء بالنهج العظيم .

وإذا أردنا ، فما هى غاياتنا ، وإذا عزمنا فكيف يكون السبيل ؟

أما عن الغايات فهى محسوبة :

* هى الوحدة التى يتعايش فى رحابها الناس لا تفرقهم عقيــدة ولا عرق ولا عصبية .

* **هى العدل** ، حيث لا يتمايز النـــاس إلا بما ينفع الناس عمـــلا صالحاً وقولا معروفاً .

* **هى العزة** ، حيث تصان إرادة الفرد وإرادة الأمة من احتواءات الفكر ومحاور العدوان ، وحيث لا تصرف طاقات الفرد والأمة إلا لصالح الخير والعدل والسلام .

* **هى القدوة** على مغالبة هوى النفس ، عند المحكوم والحاكم ، فلا يضل المحكوم بقصوره ، ولا يضل الحاكم بغروره .

* **هى المقدرة** على مغالبة الحاجة وبلوغ الكفاية .

* **هى الإيمان** بأن الجهاد فى سبيل الله ، إنما هو جهاد فى سبيل خير عبادة .

* **هى الجهاد** فى سبيل الحق ، حيثما غابت للحق راياته .

* **هى المحبة** والتعاون والتآخى والتكافل والتساند بين الناس .

* **هى مغالبة الشر** ، ونصرة الخير .

* **هى نصرة المظلوم** ، وسد حاجة المحروم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

تلك هى بعض غايات العودة إلى رحاب الإسلام ونهج الأولين من دعاته فكيف الطريق إليه وإليهم . . وقد تباعـــد الزمان وتكاثفت الأستار وامتلأ الدرب بمظالم السنين .

الفصل التاسع

على الدرب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ
أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا
نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

على الدرب

قادتنا عصور التغريب إلى عصر الغربة ، وعندما تخبطت خطانا ، كان الاستعمار على الباب وفى عينيه مصباح الضلالة ، وفى التيه الجديد ، تطلعنا إلى العـــدل ونحن نرسف فى أغلال التخلف والانقسام والفرقة ، فإذا وهم تنجذب إليه فئة منا تصادمت مع التراث والعقيدة بل هى تصادمت مع العـــدل كما ينبغى أن يكون العدل فى مواجهة ظالمة ، صورت فيها العلم وكأنه يتناقض مع الإيمان ، صورت فيه الدين كأنه يتعارض مع التقدم .

وإذا كانت تلك الفئة قد أفلحت ، فذلك بما أضافته لجهد الاستعمار لإنكار جوهر التقدم فى الإسلام ، فاستسلم الناس حيناً من الدهر لمعادلة مغلوطة ، وضعتهم أمام خيار خائن ، بين العدل والدين ، كما وضعهم الفكر الليبرالى الأوروبى من قبل فى حيرة من أمرهم ، بين صيغة تتداخل فيها الحرية الفردية مع الاستغلال .

هى غربة أدت إلى غربة ، أدت بدورها إلى ضلال ، فما كان الفكر المـــاركسى إلا وليد ظروف نشأته ، ولست فى مجال تبرير التناقض بين الماركسية والمسيحية الأوروبية فى أواخر القرن الماضى ، ولكننى وبمنطق الفكر المـــادى نفسه لا أنكر أن أية ظاهرة فكرية إنما هى وليدة ظروف موضوعية ســـواء جاءت موازية لها أو كانت نقيضاً يصارعها .

فالفكر الماركسى هو الابن المتمرد لأوضاع سادت فى أوروبا لعدة قرون ، تدرجت فيه علاقات الإنتـــاج من العبودية الكاملة حين كان الإقطاع والنبلاء يملكون الأرض ومن عليها ، إلى الرأسمالية الصناعية وما مارسته من قهر للعمال وخاصة فى بدايات الثورة الصناعية ، إلى الرأسمالية التجـــارية والتى هى نتاج لتراكم الأرباح الصناعية مما حقق لرأس المـــال وجوداً مستقلا قادراً على الاستثمار والاستغلال عن طريق الائتمانات المصرفية ، وبغض النظر عن القيمة الفنية لأعمال شكسبير وديكنز وتولستوى وتشيكوف وموباسان وغيرهم ، فإنها جميعاً كانت شهادة على الظلم الصارخ الذى عاش فى ظله الناس ، بما عكسته من صور الاستغلال والبؤس المميت التى كانوا يعيشون فى ظلها .

لم تكن الكنيسة محايدة فى ظل تلك الظروف وإنما كانت منحازة وبصورة قاطعة للاستغلال ، بل وكانت فى ظله تمارس الاستغلال لحسابها الخاص وفى ظل حماية متبادلة .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وكان ذلك الفشل ، دليلا مازال باقياً على أن القيم الروحية لا يمكن التضحية بها فى مقابل إشباع احتياجات اقتصادية ، بشرط أن لا تكون تلك القيم موظفة لصالح قوى الاستغلال بصورة سافرة .

وبعبارة أخرى فإن هناك استحالة فى التضحية بالدين والقيم الروحيــة إذا كان هذا هو الثمن المطلوب للإنعتاق من الاستغــلال مادام الدين لا يقف سنداً لهذا الاستغلال ، أما إذا كان العكس صحيحاً كما كان الحال فى أوروبا عندما تحالفت الكنيسة مع الإقطاع والنبلاء وملوك التفويض الإلهى ، فإن هناك إمكانيات للتمرد عليهما معاً ، وفى هذه الحالة ، فإن التمرد لا يواجه الدين وإنما يواجه الفراغ الروحى الذى نشأ من تفريغ الــدين من محتواه الحقيقى كدعوة للعدل ومنع للظلم ومقاومة للاستغلال .

فالدين أى دين فى جوهره ، إنما هو حلقة متصلة من القيم تستهدف سعادة الإنسان ، فإذا سادت ظروف أفرغ الدين فيها من هذه القيم ، فإنه لا يفقد مبرر وجوده فحسب ، وإنما يصعب تصور وجوده أساساً ، وفى هذه الحالة من السهل نجاح أية اتجاهات فكرية أو سياسية تشكك أو حتى تنكر وجود الدين . ولقد يكون هذا هو السبب فى مواجهة الماركسية لأولى هزائمها ، تلك الهزيمة التى جرتها وإلى الأبد مما تدثرت به من ادعــاء بأنها نظرية قادرة على التحليل والتنبؤ .

ويرجع هـــذا الفشل إلى أن الماركسية تطرح نفسها طرحاً اقتصادياً وفلسفياً متكاملا غير قابل للتجزئة ، وتدعى فى إطاره أن توافر الظروف الموضوعية المثـــيرة للصراع الطبقى لن تؤدى فحسب إلى تغيير علاقات الإنتاج فى المجتمع ، وإنما ستؤدى أيضاً إلى القضاء على الأرضية الفكرية التى يقوم عليها وعلى رأسها الدين . ورغم أن الظروف الموضوعية حسب المنظـــور الماركسى كانت قد توافرت فى انجلترا ، إلا أن النظام الرأسمالى ظل راسخا فيها ومازال .

كانت تلك مواجهة بين الجانب الفلسفى للماركسية والذى ينكر الدين والجانب الاقتصادى فيها ، والتى توافرت فى انجلترا كل أسباب تقبله حسب النظرية الماركسية ، ليسقط من خلال هذه المواجهة كل ادعاء بأن الدين حاجة ثانوية يمكن التضحية بها ، كثمن لسد الاحتياجات المادية ، إلا أن السؤال يظل مطروحاً .

كيف نجحت إذن الماركسية فى إقامة دولتها الأولى فى روسيا القيصرية . . ، ولماذا فشلت فى إقامتها فى انجلترا الرأسمالية ؟

والإجابة على مثل هذا السؤال تثـــير سؤالا حول وظيفة الدين هنا وهناك . . ؟

فى أواخر القرن الماضى ، كانت سلسلة من التطورات التاريخية والاقتصادية بمـــا فيها الثورة الصناعية والنمو الرأسمالى قـــد أدى إلى انفصال فعلى بين سلطة الدولة وسلطة الكنيسة ، وسقط بذلك

التحالف الذى كان قائماً بين الكنيسة وقوى القهر الاقتصادى والاجتماعى ، واستعادت الكنيسة دورها التقليدى كمرشد ينظم العلاقة بين الإنسان وربه .

واستعادت القيم الدينية بريقها من حيث هى تبشير بالعدل أو هى دعوة إليه ، حتى ولو كانت دعوة سلبية غير مؤثرة ، ولأنها تشبع احتياجات أصيلة عند الإنسان والذى تنكر فطرته إنكار الله ، فإنها تصدت للفلسفة الماركسية التى تعادى الدين وعاقت تقدمه وأسقطت رهانه ، وبينما كان الدين يسترد مكانته الروحية فى انجلترا وأوروبا عموماً ، فإنه كان فاقداً لهويته فى روسيا القيصرية قبل اندلاع الثورة الماركسية فيها ، كان التحالف بين رجال الدين والبلاط كاملا ، كان الكرادلة هم السلطة الفعلية فى البلاد ، أو هم كانوا واجهة الظلم الذى كان يمارسه القياصرة رجالا ونساءاً .

كان القتل والذبح والشنق والنفى لسيبريا يتم بمباركة الكنيسة . كان الاستيلاء على الأرض وتشريد ملايين الفلاحين يتم بمباركة الكنيسة .

كانت الحروب التوسعيـــة الخاسرة والهزائم العسكرية المتوالية تبرر بواسطة الكنيسة ، ولقد كان الكاردينال راسبوتين رمزاً للفساد والمجون والظلم والقهر فى بلاط القيصر .

لقد نجح فى خلط الدين بالشعوذة ، فأفرغ الدين من جوهره الحقيقى ، وتلك ظروف تضعف إلى حـــد الاستسلام أية مقاومة

لفسلفة مادية تنكر الدين مادام الدين من خلال الممارسة الخـــاطئة أصبح مقترنا بالمجون والشعوذة والظلم والقهر .

وذلك قد يكون العامل الفارق بين فشل الماركسية فى أن تغزو انجلترا رغم وجود قاعدة عمالية عريقة ، وأن تنجح فى اقتحام روسيا القيصرية رغم أن النشاط الزراعى كان هو النشـــاط الاقتصادى الغالب فيها .

وهو فارق لم يصادم التنبؤ فحسب ، وإنما صادم مادية الفكر الماركسى المنكر للأديان كذلك .

* * *

ذلك عن الغرب البعيد ، فماذا عن الشرق القريب . . ماذا عنا . . ؟

عن فئـــة منا ، مهما كان نصيبها الفشل فلابد من التقصى عن أسباب الغواية .

لن تجدى اتهامات العمالة ولن تفيد اتهامات الخيـــانة ذلك أسهل الطرق لتجريد أنفسنا من مسئولية التصدى بالفكر للفكر ، حتى ولو كان وافداً وغريباً .

ذلك لا ينفى أننا معهم اغتربنا عن منابعنا ، وفى الغربة مخاطر الحيرة ، وفيها أيضاً احتمالات الضلال .

هل هم على ضلال . . ؟ نعم .

ولكن أين تكمن مسئوليتنا فى ضلالهم ، وأين تتوقف جهودنا لاستعادتهم ، ونحن نملك لذلك أعظم سبيل، نملك الإسلام ، نهجاً ومنهجاً للعدل فى الحياة ، يقولون العدل ، ونقول العدل ، فأين الخلاف . . ؟

نرى عدلهم ظلمـــاً ، ولا يرون من عدلنا إلا كلمة العـــدل تصوغها حروفها الخمسة ، لم نبـــذل جهداً لاستعادتهم ذلك لأننا وإياهم نعيش تيه الاغتراب .

فى قلوبنا عقيدة ، ندين بالإسلام ، ولكن ما هو الإسلام . . ؟

مدارسنا ، مناهجنا ، ما نقرأ ، وما نسمع وما نرى فى أجهزة الإعلام ، تقول العدل فى الإسلام . . ولكنها كيف تقول . ؟

تقولها وكأن السحر فى الكلمة ، قادر على استيعاب كل المعانى ، وكأنها كافية وحدها لشرح الأصول والفروع .

نتحدث عن الإسلام ، وكأنه بدأ وانتهى بالمناسك والعبادات ، وننسى أنه الإسلام ، يتساوى فيه من ينكره بمن يؤمن بـــه ولا يكون للناس عوناً ولن تشفع له صلاته :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ (٧) ﴾

ثم إننا نفسد على الناس فطرتهم والإسلام فطرة . فلا نطرح الإسلام عليهم بجوهره ، وإنما نطرحه بما يتجادل المتجادلون حوله ، مجاهدة فی الاجتهاد ، خلافات حول النصوص ، وحديثاً منسوخاً عن ماهية الناسخ والمنسوخ فی آيات كتابه ، نتعمد فی الشرح الغموض ، ونتعمد فی التفسير الإبهام ، ونتباهی بالإغراق فی طرح خلافات الأئمة ومناظرات الشراح واجتهادات السلف ، ثم ننهی الحديث كل حديث بعبارة ظاهرها حق وباطنها حق ، ولكنها تورث فی قلوب الناس حيرة . . والله أعلم .

هو العليم نعم ، لكنه آتانا من لدنه علما ، وأتاح لنا بالعقل والفؤاد فهما ، فما بالنا نوحی للناس أن لا يقين فی أمور دينهم .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

يقولون : إن الإنسان ليس إلا رزقه ، فإذا انقطعت أمامه سبل الرزق ، فهو منكور من أهله ونفسه وقومه ، فحق العمل كحق الحياة من يسلبه فكأنه قتل نفساً والحياة قصاص . . ألا يبرر ذلك أن يكون الدم هو سبيل العدل المتاح .

هم يقولون ما قالوا .

وعلى مبعدة أربعة عشر قرناً من الزمان يعيش رسول الله محنة نفسه ، ويعيش الصديق أبو بكر طعنة فى عرضه ويلوك حديث الأفك من الناس ، المنافقون ومن فى قلوبهم مرض .

ومنهم « مسطح » .

« عامل » يستخدمه أبو بكر وهو من ذوى قرباه . يتصل به بالدم والرزق ، ومع ذلك يلوك مع المنافقين مالا يرضاه الله ورسوله ومن يتصل به بالرزق والقربى .

وبمشاعر المسلم والصاحب والأب يغضب الصديق ، غضبة مشروعة بدواعيها الثلاثة ، ولا يجد حرجاً أن يصرف الرجل بمعروف ، فيراجعه الرسول فيما قضى .

ويرده الله عما قطع ، ليصل الرزق والقربى وتنزل الآية الكريمة :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ

وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

يقولون :

ليس فى قيم الناس وأديانهم ما يفرض على من يتولى أمر الناس أن يعيش حياة (الكادحين) منهم ، ولأنه لا يفعل فهو لا يستشعر جفاف أيامهم ، ولأنه لا يعرف فإنه لن يمد يد العون لهم . ولذا فعليهم أن يكونوا الداء والدواء ولو خاضوا بحر الدم وأنكروا الدين وتولوا زمام الأمور فى أيديهم . يقولون ولا يقال لهم كذبتم فحسب ، بل ولا يقال لهم إنكم لا تعلمون فالإسلام فوق ما تطمحون .

ليس لولى الأمر إن صح إسلامه إلا السعى ما وسعه السعى للتطلع للنهج الكريم للرسول الكريم وخلفائه . والذين كانوا دون كل الناس رزقاً ، وهو رزق ما امتنع عنهم وإنما امتنعوا عنه .

ذلك رسول الله له العزة بالرسالة وله الأمر فى الناس وله خراج فى أرض الإسلام بعد نصر الله والفتح وطوع يمينه الزكاة والصدقات والغنائم وعلى بابه زوجاته ، تجمع ما شهده الرسول من قبل ، ويسأل هل من حاجة يقضيها . ويجبن . . بل فى النفس

حاجات . . ما جرأت أيا منهن أن تفضى بها إليه فى خلوة ومنهن بنت الصديق ، وبنت ابن الخطاب ، وكلهن من بنات الأكرمين .

ما الذى يمكن أن يكون بهذا الخطر ، حتى يسبقه تشاور فتجمع .

أى حاجة فى النفوس تتطلب الحذر للإفصاح عنها، هى ما سمعه غاضبـــاً أن يوسع عليهن فى الرزق هوناً ما ، وهو ما تعرف البرية ، وهن ما يعلم من ضيق فى النفقة بما يقرب الكفاف .

ويغضب صلوات الله وسلامه عليه ، ويغضب له المولى .

ويتلو على النـــاس ما أوحى إليه ليكون نـــبراسا للراعى كل راع :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

ويقول للزهراء فاطمة بنت محمد ﷺ وهو يعلم ما بها من رقة فى الصحة ورقة فى الرزق :

« لا أعطيك يا فاطمة وأترك أهل الصفة » .

وأهل الصفة هم الفقراء .

ويرتد عن باب بيتها حين يرى على الباب ستراً موشى ، ويقول لابن أبى طالب أول من آمن به من الصبية وابن العم ، وزوج من بقيت له فى الدنيا من البنين والبنات ، إنه كره أن يدخل بيته وفيه ما يحتاجه من هو أولى به منه .

ويقولون :

إن الأديان تعصب .

وهى كل ما نرفضه من تعصبات اللون والعرق والعنصر بل وحتى الأوطان ، فنحن لا ننتمى لوطن ولا لأمة ، وإنما نحن ننتمى لطبقة تقوم بدورها (التاريخى) لقهر كل الطبقات .

ولا نناقشهم ولا نناقش الطبقية فما عرف الإسلام ولا عرفت عن الإسلام ، وإنما نردهم عما نقلوه من أعداء الإسلام من باطل .

فالصليبية هى الصليبية مهما تـدثرت بادعاءات التقدم ، فهى عن جدود عن جدود عن جدود تتوارث الحقد على الدين الحنيف .

فلا عصبية فى الإسلام لجنس أو عرق أو عنصر . ونتلو من الكتاب آياته :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

امتلاكه ، لأنه يتعالى على مصالح الفرد والطبقة ، وينبغى أن يوظف لمصلحة الناس جميعاً وكأنهم يأتون جديداً .

ذلك ما فرضه الله ، وفصلته آياته :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ثم بعد الآيات وقفة .

أمام أولى بوادر النكوص عن عدل الدين الحنيف . . هى وقفة الصديق أبو بكر مع ابن الخطاب أولا وابن رواحة ثانياً . حين ظنوا أن سلامة الإسلام فى مناسكه ، ورآها خليفة رسول الله فى التمسك بحقوق الناس من الناس قبل ذلك .

فليس الإسلام هو التسليم بوحدانية الخالق والإقرار برسالة

رسوله وحسب ، وإنما الإسلام هوما أقره الإسلام من حق للناس على الناس فى أموالهم .

فقـــاتل ضد من منعوا الزكاة رغم أنهم يقولون لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

إنهم يقولون أن أعداءهم **(الطبقيون)** يتسترون بالدين ويحتمون فيه ، وإن أهل الثروة هم أهل الحظوة فى الآخرة والدنيا ، وإن حتمية الانتصـــار عليهم لا يؤجلها إلا حماية الدين لهم ، وهم لهذا يعادون حليف عدوهم .

ولا يقول لهم من يعرف الإســـلام إلا أنهم لا ينطقون إلا عن جهالة قبل أن تكون ضلالا ، هى جهالة من يعرف الإسلام وكتابه المنزل ، والذى حوت آياته ما يعبر عن موقف الإسلام من المفسدين فى الأرض ، وهم أصحاب مال لا ينفع الناس ، وأهل ترف يناصرون الظلم ويرفضون عدل العقيدة ومنهم من كان من الغابرين ، فحق عليه القول دماراً ، ومنهم من كان من السابقين فنال وعيداً وكلهم فى النار . يوم لا ينفع مال ولا بنون ، وتلك هى آيات الذكر الحكيم :

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

هم فيما يذهبون إليه قد جاوزوا حتى الضلالة ، تواصل الغى منهم إدعاء بقداسة الإنسان إلى حد امتهانه .

تراجع الوعى فيهم فهم لا يبصرون لا يسمعون لا يفقهون حتى مقالتهم ، تناقضوا بين النهج والمنهج ، بل تناقضوا فى النهج والمنهج ، دون أن تفرز التناقضات جديداً .

تحدثوا عن إرادة الإنسان وتركوا حركة التاريخ تشكل مصيره .

قالوا بصراعات الأضداد وتناسوا أن من بينها صراعات الأجناس والعروق والثقافات والبيئة النفسية واختلافات القدرات وتباين المواهب ، ومع ذلك ورغم الصراع المحتوم ، بشروا لمجتمعات المحبة .

تحدثوا عن مادية المادة ومادية الفكر ومادية العقل ، إلا أنهم ركنوا لمثالية فرضية أوكلوا إليها مهمة التطور تحت اسم حركة التاريخ .

شبهوا الطيب بالخبيث وهم يدعون له القداسة . فلا قداسة لصانع يقارن بالمصنوع ، ولا قداسة لخالق يقارن بالمخلوق ، والمال بمنطقهم عائد جهد الإنسان ، فكيف تتدرج قيمة الإنسان قياساً بالمال ولو اتسعت فوارق الكم . . ؟

هم يعادون الاستغلال . . هكذا قالوا . . فماذا عن وضعية الفرد . فى ظل هيمنة الجماعة ؟ وماذا عن حتمية الصراع وتجدد الصراع إلى مالا نهاية .

[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وكما يقنن الإسلام منع الاستغلال بإعادة توزيع الثروة ، فإنه يقنن منع الاستغلال للإنسان فى ماله ، واستغلال الإنسان بماله.

فى المال . . فتقول الآيات :

« ليس للإنسان إلا ما سعى » .

« إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا » .

كما قيل :

« بئس العبد المحتكر إن أرخص الله تعالى الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح » .

وقيـــل :

« من احتكر طعاماً أربعين يـــوماً يريد به الغلاء ، فقد برىء من الله تعالى ، وبرىء الله تعالى منه » .

ويأمر محمد بن عبد الله ﷺ :

« أعطوا الأجير حقه ، قبل أن يجف عرقه » .

ويعلن للناس أن النار والكلأ والماء متاع للناس ، وكانت فى عهده صلوات الله عليه أخطر وسائل الإنتاج .

وينهى أحيا الله ذكره وحفظ دعوته ملكية الأرض إذا ما مر عليها حول فحول دون أن تستزرع .

هى الأرض لمن يفلحها ، منذ ألف وأربعمائة عام .

* * *

ولنستمع إليه صلوات الله عليه ، يجمع الناس يوصيهم بعد أن أتم الله نعمته عليهم بالإسلام ، فى خطبة الوداع فيقول :

« ألا أن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، وإن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أن لا ربا ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس ألا هل بلغت اللهم فاشهد » .

ويقول **« أيها الناس ، إنما المؤمنون أخوة ، ولا يحل لامرىء أكل مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وإن أكرمكم**

عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقـوى . ألا هـل بلغت . . اللهـم فاشهد » .

* * *

ماذا بعد يمكن أن يقال لهم . . ؟

هم فئة منا على ضلالة .

أضلها اغتراب المسلمين عن الإسلام ، فاغتربت مرتين هاجرت فى التيه وما صمدت ، وانكفأت فى الكفر وهى تظن أنها تنشد العـدل فكانوا لأنفسهم ظالمين .

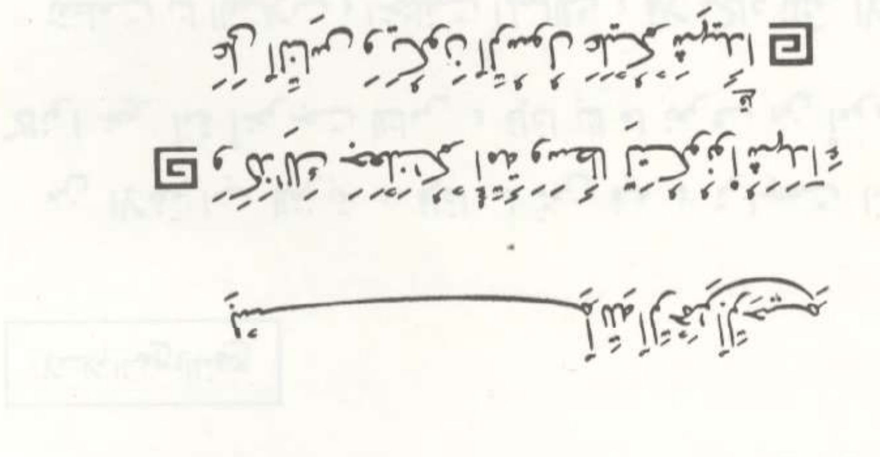
ذاك سبيل للضـلالة فمن اهتدى فهو ناج بنفسه من عذاب الجحيم

وذاك درب ليست المشقة فيـه سوى تخبط الحائرين الذين لا يميزون الضلالة عن الهدى ، وينكصوا عن نهج الدين الحنيف .

* * *

الفصل العاشر

الإسلام النهج والمنهج



من الاغتراب للغربة ، فإذا ما نحن فيه ، تراجعت الخطى بمن كانوا خير أمة أخرجت للناس ، فإذا بنا ما نعرف من أمور أنفسنا .

تقطعت بنا الصلات واختلفت المسالك ، فلا نكاد نلتقى إلا صداما .

تجمعنا شهادة لا إلـــه إلا الله وتتلى علينا آياته وتتجه بنـــا القلوب إلى بيت بارك الله حوله وإرادة رمز لوحدتنا . . فما توحدنا .

أخذنا من الدين مظاهر الدين ، فما اقتربنا من جوهره . عمرت مساجدنا وما عمرت قلوبنا ، ارتفعت مآذننا وما ارتفعت راية الإسلام بيننا ، تعايشنا مع الحق والباطل . وتلك فى الإسلام للمنافقين راية .

تجمعت لنا أسباب القوة كما لم تتجمع لأمة فى تاريخ الإنسان ، فإذا بنا يضعف الإيمـــان فينا نهب المطامع وفى مهب الأخطار ، تكاثرنا فما أغنتنا كثرتنا فإذا بمئات الملايين منا دون آحاد تجمعوا حول الرسول فى دار الأرقم ، وبهم انتصرت الدعوة وانتصرت

الرسالة ، وقامت دولة الإسلام تدك عروش الروم والفرس فى بضع سنين .

ملكنا العدد والعدة ، ومع هذا فما أبعدنا عن المسلمين فى بدر ، وما أقربنا للمسلمين فى أحد ، يوم اهتز اليقين فيهم بإغراء المطامع ، إلا أنهم عادوا للإيمان فصمدوا وما عدنا للإيمان فاستسلمنا للمذلة .

نتنادى للصلاة فلا نلتقى ، ويؤذن فينا للحج ولا نجتمع ، وعندما ينادى المنــادى حى على الجهاد فلا تستجيب منا الأسماع والقلوب .

ذلك أن الصلاة ليست صفوفاً مرصوصة ، ولا كان الحج منازل ومناسك ، ولكن الصلاة جامعة لأنها تجمع ، والحج فريضة على المسلمين ليلتقى فيه المسلمون تضامنا وتعاونا وتشاورا فى أمور دينهم ودنياهم .

نقول بالإسلام ولا نؤدى فروضه ، ومن فروضه الزكاة وقــد تلت الصلاة وسبقت الصوم والحج حينما فرضها الله على عباده ، كما أن البر فى النفقــة فى سبيل الله نصرة لدينه ونصرة لعبــاده وعونا للناس أجمعين .

نقول بالإسلام وننسى أحكامه ، فلا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر ونأتى الفاحشة وما حــرم الله جهراً . وكأن البلاء فخر لا نستره ولا نتستر عليه ولا نداريه . نقول بالإسلام وننسى أوامره فيضيع فينا ذوو القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل .

نقول بالإسلام وننسى آدابه ، فنتنابذ بالألقاب ويغتب بعضنا بعضاً ونأخذ الناس بالشبهات والظن .

نقول بالإسلام وننسى قيمه ، فلا ننتصر للحق ، ولا نثور للظلم ، ولا نعين الظالم فينا على ظلم نفسه ونردعه ، ولا المظلوم منا على ظالمه فنمنعه .

نقول بالإسلام ونحن للجاهلية أقرب ، تمزقنا العصبية وتشتتنا الطائفية ، بل نحن فى رحاب ديننا الواحد وإلهنا الواحد نتصارع فى الدين فرقاً ومذاهب .

نقول بالإسلام وما أبعد الإسلام عنا ، فالإسلام ما تمثل فى نهج محمد ﷺ وحلم الصديق وايثار عثمان وعدالة عمر وشجاعة على وتضحيات بلال وبطولة خالد وزهد أبى ذر ، فأين الخلف من السلف . . ؟

* * *

خير أمة أخرجت للناس بالإسلام كانت ، واغترابا عنه كيف تكون ؟

وكأنها حكمة من الرحمن مقصودة ، بل هو وعد من الرحمن أنفذه .

«ولينصرن الله من ينصره»

ولا ينصر الله إلا من صدق إيمانه وصح إسلامه وتوافق

ظاهره مع باطنه ، وكان فى السر طهراً وفى العلن عفة ، ثم هو صادق الإيمان .

كانت تلك أمة الإسلام فيما قبل غربتها ، فكان نصر الله وعداً حقا ، ذلك أن إيمانها كان عدتها ، وهو عدة أرهبت الروم يوم مؤتة ، فتراجعوا وهم مائتا ألف فى ديارهم أمـــام ثلاثة آلاف مسلم وفدوا عليهم .

وهو عدتهم يوم الخندق ، رغم حصار حولهم فرضته قريش ومن تحالف معها ضدهم ، ورغم عهد منقوض من الداخل ، يوم تعاون يهود يثرب مع أعدائهم .

فماذا يعنى انكفاء هذه الأمة فى ليل غربتها عن الإسلام . . ؟ هى أقرب إلى الـــروم يوم مؤتة ، وقريش يوم الخندق ، اللهم إنا نعيذك أن نكون من الظالمين ، ولكننا نسينا ديننا فكنا لأنفسنا ظالمين.

* * *

خير أمة أخرجت للناس بالإسلام كانت ، واغتراباً عنه كيف تكون ؟

هى أمة توحدت بالدين والعقيدة ، هى أمة تجانست باللغة والحضارة ، هى أمة لا يقف العدو على أبوابها وإنما هو فى موضع القلب منها .

ومع ذلك يمزقها الخلاف .

* * *

هى أمة تجمعت لها كل أسباب الثروة . .

ففيها الغابات والأنهار ، وفيها الذهب والفضة وما هو أغلى من الذهب والفضة ، فيها السهول الخصبة والمراعى الغنية وفيها قبل هذا سواعد الرجال ، تطل على محيط وبحار تتداخل فيها وتتواجه القارات ، وتتصل بالدنيا بأكثر من سبيل ، ومع ذلك فثرواتها مهددة ، وطاقاتها معطلة ، ومظاهر الترف فى بعض مناطقها لا تعادل حقيقة فقر غالبية بنيها ، فهى كما ترفض التعاون ترفض التكامل ، وفى رحاب خلافاتها فإن بعض أوصالها تتجه لخارجها تطلب العون والمساعدة .

* * *

هى أمة تجمعت لها كل أسباب القوة ،

ملايين سكانها طاقة متاحة لتشكيل أكبر الجيوش ، أموالها الطائلة قادرة على صنع السلاح ، عمقها واتساعها ساحة توفر لها أفضل إمكانيات الدفاع . إلا أنها فى خضم خلافاتها تنجذب إلى من يهددها تطلب حمايته ، وتطلب نصرته ، وهؤلاء وهؤلاء لا يتفقون إلا عليها ، فإلى جانب الطمع فى ثروتها فهناك الحقد المنكر لعقيدتها ، وهناك الحقد الناكر لعقيدتها وكل عقيدة .

* * *

هى أمة تجمعت لها كل أسباب القدرة

لتتحمل مسئوليتها فى الانتصار لدينها ، لا تبشير ولا دعوة ، وإنما لتبصر المسلمين من غير بنيها بشئون دينهم ، وخاصة أنهم يتطلعون لها ، فلسانها لغة القـــرآن دستور دينهم ، وأرضها رحاب كعبتهم وقبر رسولهم ومسجدهم الأقصى الـــذى بارك الله حـــوله ، وعلماؤها هم المسئولون شرعاً فى حمل رسالة الإسلام إليهم ، ومع ذلك فلقد كادت رايات الإســلام أن تنتكس فى ديـــار المسلمين وخارجها ، حيث لا تكافؤ بين تجاهل حملة الدعوة لأمرهم وحملات الاضطهاد والعزل والغزو الفكرى المعادى للإسلام والذى يعمل لإخفاء نور الإسلام فى عقولهم وقلوبهم .

* * *

تلك الأمة هذا شأنها . . فهل هناك ما يدعـــو لسؤال حول سر عزتها أيام عزة الإسلام فيها ، وأسباب نكبتها فى ليل غربتها عن الإسلام . . ؟

ذلك سؤال تجيب عليه البداهة ، وبغض النظر عن أية مناظرات أو نظريات عن دورات الحضارة المغلقة التى تولد وتزدهر فتشيخ وتذبل فتموت ، أو تلك التى تتحدث عن حركة غامضة للتـــاريخ تحركها قوة مجهولة ، فإن الحقيقة التاريخية الثابتة تؤكد أن البشرية شيدت حضارة عظمى بدأت بدعوة ورسالة ، وازدهرت وانتصرت وحققت وجودها الفاعل فى زمان محدود وعبر مكان غير محدود .

فعـــلى مدى ثلاثة وعشرين عاماً هى عمر الدعوة منذ الوحى إلى

انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ، بل والأصح أنه على مدى ثلاثة عشر عاماً هى عمر علنية الدعوة والتى بدأت بهجرة الرسول إلى حين وفاته قامت حضارة جديدة لم تتصل بجذور حضارية سبقتها بحيث تكون امتداداً لها ، ولا هى انتشار لحضارة نبعت فيها هذه الدعوة واتسعت من خلالها .

فالدعوة والتى قامت فى ظلها الحضارة الإسلامية الجديدة ، إنما قامت فى مكة حيث النظام السائد هو النظام القبلى بل العشائرى المحدود ، والذى ينقسم بدوره إلى بطون وأفخاذ فى وحدات مستقلة بعضها عن البعض ، بل ويسود الصراع إلى حد القتال فيما بينها فى كثير من الأحيان .

وفى مثل هذه التكوينات الاجتماعية البدائية يستحيل وجود نظام للضبط الاجتماعى أو التنظيم الاقتصادى ، فالتسلسل القيادى داخل أى منها إنما يحدده عامل السن فى غالب الأحيان ، كما أن القيادة هى قيادة إشرافية وشرفية أقرب إلى طلب المشورة وبغير سلطات تشريعية ، إذ أن مصدر التشريع هو العرف السائد الذى تكون جرأة الخروج عليه أو سلبية الامتثال له مرهونة بتسلسل آخر يتعلق بشرف النسب وكثرة الولد داخل القبيلة أو العشيرة أو البطن أو الفخذ أو حجم القبيلة وعدديتها وقدراتها الاقتصادية ، وفى حالة المواجهة فيما بين القبائل فحتى الاحتكام إلى العرف فى مثل تلك البيئة يظل نسبياً ومرهونا باعتبارات لا تتعلق بالقيم المعيارية التى يتضمنها .

وفى إطار هـــذا الفهم ، فإن المقارنة بين النظام الاقتصادى والاجتماعى والعسكرى والسياسى والذى قام فى ظل الدعوة الإسلامية حال تم لها الاستقرار فى المدينة ، مع النظام الاجتماعى السائد قبلها ، إنما يقطع بانقطاع الصلة فيما بينهما بصورة لا تقبل الجدل ، مما يسقط بداهة افتراض أن الحضارة الإسلامية التى قامت فى ظل الدعوة ، إنما كانت امتداداً لحضارة قامت فى ظلها وفى إطار الظروف السابق ذكرها حول الواقع الاجتماعى والاقتصادى حيث بدأت الدعوة ، كذلك فإنه يستحيل أيضاً القول بأن التطور التاريخى أو حركة التاريخ كما يسميها الماديون هى التى صاغت الحضارة الإسلامية فى ظل الدعوة ، بالإضافة إلى أن إفرازات التطور التـــاريخى إنما تتم فى حركة بطيئة ونتيجة لتراكم وتفاعل أحداث على مدى زمنى طويل ، وهو زمن لا يمكن أن يستوعبه عقد وبعض عقد من الزمان .

ولما كانت الحضارة الإسلامية فى ظل الدعوة قد تجاوزت الحيز الجغرافى الذى نشـــأت فيه وامتدت وتشابكت وتصارعت وانتصرت على حضارات قائمة وعريقة هى حضارات الروم والفرس ، فإن ذلك يعنى وبالحسابات المألوفة أنه قد توافر للحضارة المنتصرة امتيازات مرجحة لها فى إطار افتراضين :

إما أن تكون تلك الحضارة قد توافر لها من أسباب القوة المادية وفرة فى العـــدد وتطور فى التسليح ، يفوق مـــا يتوفر للطرف المقـــابل فى المجالين ، ومن الثـــابت والمؤكد أن العكس كان هو الصحيح .

فلقد توافـــر للروم والفرس تفوق عددى كاسح ، كما توافرت لهم نوعيات من الأسلحة والتدريب والمهارات القتالية ما لم يتوافر للوافدين من الصحراء والمطبوعين ببداوتها .

وإما أن تكون تلك الحضارة الوافدة قد استوعبت فى مكونات نظامها الاقتصادى والسياسى والاجتماعى عوامل جذب تسهل لها اختراق الحضارة المقابلة وتنتصر عليها .

وذلك صحيح جزئياً وجانب الصحـــة فيه ، يتعلق بالترحيب والتقبل والاقتناع والاعتناق لمكونات الحضارة الإسلامية وعلى رأسها العقيـــدة الإسلامية من جانب سكان الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، إلا أن ذلك جاء تاليا للانهيار العسكرى والاقتصادى والسياسى لدولتى الروم والفرس ، والذى حدث بضغط الاقتحام الإسلامى .

نحن إذن بإزاء ظاهرة تاريخية فريدة ، يستحيل تفسيرها فى إطار النظريات العلمية القديمة والحديثة ، وهى تستعصى على الفهم فعلا مالم يقترن مثل هذا الفهم باقتناع كامل بدور الإيمان والدين ، وهو العامل الوحيد الطارئ على الفاتحين العرب ، والذى اندفعوا فى ظله وحققوا انتصارهم العظيم .

* * *

كانت تلك وقفة ضرورية ، قبل الانتقال إلى ما بعد السوٴال حول الداء والدواء ، لما تعانى منه خير أمة أخرجت للناس ، بعد أن اغتربت عن الإسلام .

إن ارتباط العلة بالمعلول هو نصف الطريق ، إلا أنه وبالنسبة لما نخوض فيه هو كل الطريق المطلوب لهذه الأمة لتسترد عافيتها وتواصل دورها وتقوم برسالتها بالنسبة للبشرية وصلا لدورها القديم ، واتصالا بأهداف دينها الحنيف .

لقد كان الاغتراب عن الإسلام هو العلة ، إذن فالعودة للإسلام هى الدواء . . ولكن كيف . . ؟

هنا لابد من وقفة استأذن فيها لأقول ، إننى أعترف بداية أننى لست خير من يمكن أن يجيب على هذا السوٴال ، فأنا لا أملك سوى فطرة المسلم الموٴمن بغير زيادة ، لم تواتنى فرصة ولم تتوفر لى قدرة لأتعمق فى شئون دينى ، هناك من هو خير منى ألف ألف مرة تبصراً وعلماً ومعرفة بالإسلام ، وما أنا فى رحاب الدين إلا على مشارف شواطئه ، أتطلع إليه باليقين والإيمان والتسليم والقناعة والاقتناع بأنه زاد للإنسان فى الدنيا والآخرة إما بعمقه واتساعه ، أما فقهه وتشريعه ، أما نظمه وأحكامه ، فأنا أعرف وأعترف بقصورى ، فتلك ساحة اختص بها الله من عباده العلماء .

وإذا كان الرسول الكريم عبس للأعمى حينما خاض فيما يعز عليه فهمه ، فإن الله سبحانه وتعالى قد عاتب نبيه فى منزل كتابه لأنه

تولى عن الأعمى وعبس فى عينين لا تريان النور ولا تبصران العابس من الراضى .

وذلك ما أراد الرحمن أن يقره كسابقة حق لكل مسلم أن يخوض فى شئون دينه ، وأن يجتهد على طريق تثبيت إيمانه ، فلا حواجز ولا حدود ولا سدود أمام مجتهد مهما كان نصيبه من العلم أو حظه من المعرفة .

ومن باب هذه الرحمة الواسعة ، أستأذن مرة أخرى لأخوض فيما أريد أن أخوض فيه كمسلم لا حول له ولا قوة ، مجرداً من كل مكانة إلا أسمى مكانة ، تلك التى يملكها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهى مكانة تتيح له الاجتهاد فى شئون دينه ، وتتيح لغيره حق الاعتراض عليه لو وجد فيها شططاً أو خللا يحرفها عن هدفها الوحيد المقصود ، وهو هدف الانتصار للمسلمين والإسلام .

* * *

كيف السبيل إلى إنهاء الغربة ، وعودة الأمة إلى دينها الحنيف .

وأقول رأيى وأتوكل على الله .

كما بدأت الدعوة أول مرة .

وقد بدأت الدعوة وانتصرت فى إطار منهج التزم به الرسول

[illegible]

السرعة ، خشية على ثروتها من بطش قريش ، وخشية ملى مكانتها بينهم .

إن خديجة التى عايشت زوجها فيما قبل الوحى معتكفاً فى غار حراء ، إنما كانت تدرك معنى تلك العزلة الاختيارية وكانت تدرك أسبابها ، كانت تدرك أن الشاب الذى بنى بها إنمـــا يعانى حيرة روحية عانت هى منها ومازالت تعانى لأن عقلها وقلبها يرفض الركون لتلك الأوثان المعلقة فى جدران الكعبة كعلة وراء الكون بظواهره المختلفة . وسواء كان هذا الشك فطرة ، أو كان هذا الشك نتيجة لحوار يتصل بينها وبين قريبها ورقة بن نوفـــل إلا أنه ساعدها فى أن تساعد زوجها أن يجتاز محنة الحيرة معتكفاً ، كما مكنها أن تصمد أمام ما زلزل زوجها حينما جاءه الوحى لأول مرة ، بل وأن تسعى لنفس الرجـــل ورقة بن نوفل تستفسره عن كنه هذا الحدث العظيم .

هى دعوة إذن صادفت فطرة فكان الإيمان . .

والصديق أبو بكر ما نعرف ، رجل اتسعت أبواب الرزق له ومعها أبواب المعرفة ، فقرأ عن الأقدمين وتأمل وأجهد فكره ، ولابد أنه صادف ما صادفته خديجة من قبل ، صبر وقلق وتشوق إلى يقين ، وعندما آمن برســـالة محمد فإنه آمن بما استوعب حيرته ، وقضى على ذلك القلق المبهم الذى كان يناوش صدره ، وهو يقارن بين أحجار معبودة وأفكار مضيئة قرأها فى كتب الأقدمين .

وعلى بن **أبى طالب** ، ذلك الصبى والذى كان أول من آمن بالدعوة من الصبيان ، ولعل مستقبله الذى نعـــرف شاباً وكهلا

وشيخا ، يكشف لنا عقل الصبي فيه ، فهو الفقية العالم الخطيب الثائر المفكر.

هل يمكن أن يتقبل مثل هذا العقل الذكى فى أى من مراحل تطوره ، فكرة عبادة الحجر دون أن يستثير عقله أكثر من سؤال.

ثم غير هؤلاء من سارع للإيمان بالدعوة ، المستضعفون فى الأرض الذين يرسفون فى أغلال العبودية والرق.

منهم بلال بن ربـــاح ، عمار بن ياسر ، صهيب بن سنان الرومى خباب بن الأرت ، وغيرهم ممن وقعوا فى أسر الرق والذل والعبودية.

ماذا يعنى تمرد هؤلاء على دين سادتهم . . ؟ أى قوة عظمى أتيحت لهم لاتخاذ هذا الموقف الشجاع وفى مرحلة كانت الدعوة بلا سند ولا نصير.

لا مجيب على هذه الأسئلة ، سوى هول العذاب الذى تحملوه فى سبيل إيمانهم بالدعوة العظيمة ، ولكن لماذا . . ؟ لأنها فى مضمونها ومبادئها وأهـــدافها تلتقى مباشرة مع أشواقهم المقهورة للعدل والتحرر ، فتشبثوا بها واستماتوا عليها.

ذلك كله يعنى أن الدعوة إنما تمكنت فى الناس لأنها كانت تلبى احتياجاتهم الفكرية والنفسية والمـادية جميعاً.

جاءت ليست متخلفة عن تطلعاتهم ليتجاوزوها بالإهمال ، ولا تقدمت على أمانيهم لينكروها باليأس ، وإنما جاءت مطابقة تماماً لظروف عصر بكل ملابساته الاجتماعية والاقتصادية ، فدخلوا فى دين الله ودخل الناس بعدهم فى دين الله أفواجاً .

ويبقى للقرآن إعجازه .

ويبقى للإسلام إبداعه .

وإعجاز القرآن المعجز فى شموله للزمان والمكان فكما لم يحط بامور الناس حيث هبط الوحى فحسب وإنما كان هدى للعالمين ، فهو شامل أيضاً لبعد الزمان استوعب الماضى بما ذكر من قصصه وعبره ، واستوعب الحاضر ، والحاضر هنا هو الحاضر المطلق .

الحاضر وقت نزول القرآن حيث استوعب كل قضايا ذاك الزمان ، ثم الحاضر المتصل والممتد إلى ما شاء الله .

فهو يستوعب قضايا كل عصر ، قضاياه الفكرية والاقتصادية الاجتماعية والحضارية مهما كانت الحداثة فى هذه القضايا ، وكأنه ما نزل إلا ليعالجها ، أو كأنها ما وجدت إلا فى إطاره .

إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت.

آية كريمة عمرها فى سمع الزمان ألف وأربعمائة عام كيف يمكن تصورها يوم هبط الوحى بها على رسول الله الكريم وفى ظل ظروف لم يتوفر الناس فيها على دراسات متخصصة فى علم الحيوان .

يرجع الذهن فى ظروف مثل ذلك الزمان ، إلى ما هو واضح من وهن (ضعف) فى نسيج بيت العنكبوت والتفسير صحيح ومقبول .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]
[illegible]

ثم نرى أن العلم يطفر والتفسير يجمد عند القديم . وعندما يتعارضان فقد يلجأ الجامدون إلى إنكار العلم بظواهره المحسوسة دون أن يجهدوا أنفسهم فى التأمل فى آيات الكتاب ، **فاذا هم فعلوا فسيجدون منها أن الجديد قديماً سطره الكتاب المحفوظ** ، ولأضرب لذلك الأمثال :

لقد أنكر البعض حقيقة هبوط الإنسان على سطح القمر مبرراً إنكاره بأنه يرجع إلى أن ما لم يرد نصه يبطل وجوده ، ورغم أن القاعدة خاطئة ، إلا أن النص فى الكتاب الكريم حيث لا يدع مجالا لأى غموض ، فالإسراء والمعراج وهما حقيقتان قرآنيتان ، فذكرا أن « محمداً » رسول الله قد صعد إلى السموات العلا .

ولما كان (محمد) مأمورا من ربه بأن يؤكد طبيعته البشرية كما جاء فى الآية الكريمة :

« قل إنما أنا بشر مثلكم » .

فإن ما وقع له ، لايستبعد أن يقع لغيره من البشر مع اختلاف الوسيلة والهدف والمدى .

بل إن النفاذ فى أقطار السموات والأرض متاحة للجن والإنس كما جاء فى الآية الكريمة :

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

فهى قدرة متاحة للإنسان غير مشروطة إلا بسلطان ، والسلطان من السلطة ، وقد تكون إلهية ومباشرة كما فى الإسراء ، وقد يكون السلطان هو العلم ، وهو من الله أيضاً يخص به من عباده من يشاء .

ثم إننا نرى فى الكتاب آيات تكاد تنطق وتشير إلى اكتشافات لم يلحق بها العلم إلا متأخراً عن الوحى بمئات السنين ، ومع ذلك يسكت التفسير عنها ولا يشير إليها ، فى وقت يرتفع فيه صوت الضلال بأن هناك انفصاماً بين الدين والتقدم .

هناك الآية الكريمة التى تشير بوضوح ليس إلى استدارة الأرض فقط ، وإنما إلى ما فى هذه الاستدارة من انبعاج أثبتته الأجهزة الدقيقة منذ عدد قليل من السنين فتقول الآية الكريمة :

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ ﴾

والدحى هى البيضة ، وآخر صورة للأرض كما نقلتها الأقمار الصناعية تؤكد الشكل البيضاوى للأرض ، وليس المستدير كما كان شائعاً .

ما أذهب إليه من هذا كله ، أن عدم الجمود أمام التفسيرات القديمة للقرآن ، ليس فقط جهداً مطلوباً لدحض الإدعاء الباطل بأن هناك خصومة بين الدين والعلم ، بل ولإثبات إعجاز القرآن وسبقه الدائم لكشوف العلم .

وبهذا يتواصل الدور العظيم للإسلام ، والذى بدأ منذ بداية الدعوة ملبياً لاحتياجات الإنسان فى ظل ظروف مجتمعه ، مجيباً

تساؤلاته متبعاً لاحتياجاته بل ومواكباً لتطوره العقلى والاجتماعى ، والإسلام على ذلك قدير .

* * *

تلك خطوة أولى على طريق العودة بالأمة إلى رحاب دينها الحنيف ، ولكنها ليست كل الخطوات ، فالإسلام نظام متكامل تتحدد فى إطاره علاقة الإنسان بربه ، وعلاقة الإنسان بغيره ، فى تبادل مبدع .

فليس المسلم ، هو من يؤدى صلاته ويحسن صيامه ويحج البيت ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، بل إن المسلم لن تقبل له صلاة ولو قام لها آناء الليل وأطراف النهار ولن يقبل صيامه ولو صام الدهر كله ولن يقبل حجه ولو أقام عند البيت منذ مولده حتى الممات ، مالم يقرن ذلك كله بما يحقق من نفع للناس ، وبما ينهى نفسه عن إلحاق الأذى بهم . وحتى الكبائر ، الخمر والميسر ، فإن الأصل فى التحريم فيها ليس مجرد منع الإنسان من إلحاق الأذى بنفسه ، ولكن لأنها أيضاً مدخل لإيذاء الآخرين .

فالخمر بمضارها الغيرية تتمثل فى التعامل مع فاقد الرشد مع ما يحمله مثل هذا التعامل من مخاطر .

والميسر بمضاره الغيرية هى تتمثل فى الخسائر المتبادلة بين أطرافها ، فمادام هناك مكسب لطرف ، فهناك خسارة محققة لطرف آخر .

والزنا وإن كان طرفاه يتحملان مسئوليته باختيارهم ، إلا أن ذلك على حساب طرف ثالث غائب فى هذه العلاقة المنكورة

سيضار بها حتماً ، وهو ما تثمر هذه العلاقة ، فالطفل الغير الشرعى هو الطرف الغائب خلال واقعة الزنا ، ومع ذلك فهو يتحمل تبعاتها الاقتصادية والنفسية والاجتماعية .

كذلك فإن الإسلام هو مجموعة القيم وآداب المسلك والتعامل المنظم فى إطار أحكامه مع المجتمع .

والعودة بالأمة إلى الإسلام بعد غربتها ، إنما تعنى بالضرورة أن يلتزم أفرادها بكل هذه الأحكام والآداب والقيم .

ولكن كيف . . ؟

مرة أخرى كما بدأت الدعوة ، ولا أريد هنا أن أبرر ما أقصده بما ذهب إليه غيرى ، من أننا نعيش مجتمع الجاهلية مرة أخرى ولذلك فعلينا أن نبدأ من جديد .

حاشا لله ، فالإسلام فى المسلمين فطرة وهى فطرة تعصمهم من الجاهلية ، بل هى فطرة عصمتهم بالفعل من الانزلاق وراء الفكر المادى رغم كل بريق الادعاء والدعاية بإقامة درب العدل الاجتماعى المتاح .

ما أذهب إليه أنه ليل الاغتراب ، فالغربة الطويلة عن الإسلام لم يكن ليلا فارغاً دخلنا فيه ونخرج منه بغير أن يترك فينا بصمات بعضها عميق وبعضها سطحى .

هو ليل طويل لم يكن الفراغ شاغله ، بل كانت تشغله مؤثرات ثقافية وعادات سلوكية وقيم اجتماعية انغرست عميقاً فى الوجدان ، وليس

الخطر فى انتقال الطفرة مجرد استحالة حدوثها ، وإنما الخطر الأكبر أن تؤدى الطفرة إلى صدام لم يسبقه تمهيد بين ما هو متأصل من القيم عميق فى وجدان النفس بحكم طول المعايشة والممارسة ، وبين ما هو أصيل ونبيل ومطلوب غرسه .

هنا تكمن المخاطرة لا فى رفض الجديد فحسب وإنما التحيز ضده كتبرير لعدم تقبله ، وهكذا نخسر قضيتنا وهى فى أولى مراحلها ، بل نخسر حتى الأمل فى مواصلة الجهد لتحقيقها .

ذلك ما قصدت إليه ، بأن نبدأ كما بدأت الدعوة ولقد بدأت الدعوة بالتدرج ، حتى بالنسبة للنبى :

* أوحى إليه بالرسالة مقرونة بالتكتم عليها خشية القضاء على البرعم قبل ثبات الجذور .
* ثم أوحى إليه ، بالدعوة لها سرا .
* ثم الدعوة لها جهرا ، بعد ذلك .

وعندما تنادى الرعيل الأول من المؤمنين حى على الإسلام ، استجابت الجاهلية بالبطش والقهر والتعذيب وهنا كانت حكمة الرسول الكريم .

لم يدع النبت الطاهر يواجه أعاصير الطغيان قبل أن يشتد عوده ، بل أمر المؤمنين الأولين أن يهاجروا إلى الحبشة حرصاً عليهم وعلى الدعوة الكريمة فى صدورهم .

فهاجر عثمان بن عفان وعمر بن سعيد بن العاص والزبير بن العـــوام والأسود بن نوفل وغيرهم .

ولو شاء الرسول لاستبقاهم معه يشدون أزره فى مواجهة أذى ، ولكنه آثر أن يحميهم فى هـــذه المرحلة تأهبا لما سيليها من وقفات المواجهة القادمات هو التدرج إذن .

وحتى الصـــلاة فقد كلف بها وحده ، ثم كلف بها أهله ، ثم المؤمنين .

ولقد تدرجت الأركان ، فسبقت الزكاة الصـــدقة تدرجاً حتى تروض النفوس على البذل والعطاء .

وحتى المحرمات ، فلقد كان التدرج فيها شهيداً على حكمة الداعى الخبير بنفوس البشر .

هو التدرج إذن .

* أن تبصر الناس بنور الحقيقة فى دينهم .
* أن ننقل الناس من عهد ادعى فيه الضلال أن هناك خصومة بين الدين والعلم ، إلى عهد يتأكد فيه الناس أن الدين هو العلم .
* أن نتدرج فيما ننشده من الناس تمثلا بقيم الإسلام العظيمة .

ثم لا نعسر على الناس دينهم ، وأن لا نلجأ إلى التعميم فى التحريم بالحق والباطل ، وأن لا نروع الناس بالدين ، فإن الإسلام للناس

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾

وها هو سلمان الفارسى ، وهو من نخبة الصحابة الأجلاء ، ينهى أبا الدرداء عن مجاهدة نفسه فى العبادة ، فقد كان يقوم الليل ويصوم النهار .

نسمعه يقول له :

« إن لعينيك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً ، صم وافطر . . صل ونم » .

وسمعها الرسول العظيم . . فيقول :

(لقد انبع سلمان علماً » .

هو التدرج إذن ، وهو التيسير على الناس .

* * *

ثم أواصل الخوض فيما أخوض فيه مستأذنا ومتحرجاً أيضاً فأقول :

إن العودة بالأمة للإسلام بعد ليل الاغتراب الطويل إنما ينبغى أن يبدأ ومرة أخرى كما بدأت الدعوة وأسوق براهينى .

• إن الدعوة استقرت فانتصرت فانتشرت بمن آمن بها إلتزاماً ولم يؤمن بها إلزاماً .

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

پیوستها و اسناد

[illegible]



الراعى وصلاح الرعية

كيف تستنير السبل للناس حتى يتبينوا خطاهم فى ليل الغربة . ؟

بما يستضاء للناس على درب العودة بعد اغتراب طال عن الإسلام ونهجه وقيمه .

هى مسئولية الراعى ، يلزمه بها الإسلام ويلزمه بها الإيمان ويلزمه بها صلاح الناس فى آخرتهم ودنياهم .

وإن كان صلاح الناس فى الآخرة موكولا للناس كل بما كسب ، فإنها ليست مقطوعة الصلة بصلاح أمرهم فى دنياهم وتلك علة وجود الراعى فيهم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويرسم حدوداً فاصلة للناس بين الحق والواجب يأتيهم بما هو بالحق لهم ، ويطالبهم بما هو بالحق منهم ، يحتكم للعدل ويأمر بالإحسان ، ويعينهم على قضاء حاجتهم ما داموا عونا لأنفسهم بالمال والجهد والنفس .

وتلك فى الإسلام آية الإيمان تتوجها الشهادة وما دونها فـــلا يغنى عنها حتى صـــلاة تؤدى آناء الليل وأطراف النهار ، **فلا انقطاع بين صلاح الناس بدينهم ، وصلاح الناس فى دنياهم .**

وما صلح أمر الناس فى صدر الإسلام إلا بالعمل متوجا بالإيمان ، وما توعـــد الله ورسوله المنافقين بعذاب السعير إلا لأنهم كانوا يقولون مالا يفعلون ، يظهرون مالا يبطنون ، يتلون الشهادة ويقيمون الصلوات وهم بأعمالهم إلى الكفر أقرب إلى الشرك أدنى ، فهم من النار أقرب من حبل الوريد .

* * *

هى مسئولية الراعى ، صلاح الناس فى الدنيا والآخرة ، فكيف السبيل . . ؟

تباعد الزمن حتى امتنع على النـــاس إدراك الصلة الموصـــولة بين أمجاد السلف وقيم الإسلام فالتمسوا لأنفسهم طريقاً غيره ، فما أورثهم إلا ضلالة أورثتهم ضعفاً ، فما زادهم الضعف إلا ضلالا عن طريقهم القويم .

تكاثر على الإسلام أعداؤه فما نالوا منه ، وإنما نالوا من قيمه فى صدور النـــاس فهانوا بعد عزة ووهنوا بعد قـــوة وضاقت بهم أرض اتسعت لهم يوم عمرت قلوبهم بالإيمان .

كانت قيم الإسلام هى رايات طارق يـــوم خاض البحر طريقاً ولا عودة ، فإما النصر وإما الشهادة .

كانت غربة الإســلام فى أرض طارق يوم غابت قيم الإسلام عن صدور الرجال ، هى أنين الباكى يــوم غروب شمسه « يبكى كالنساء ، على ملك لم يحفظه كالرجال » .

تغافل الناس عن سر كبوتهم ، فما أدركوها علة موصولة بعلة ، وإنما حسبوها فيما أخفقوا فى الوصول إليه .

ليس عودة إلى منــابعهم ولا تمسكاً بقيمهم الإسلامية الأصلية ، وإنما تهافتا على الوافد عليهم ، غير مدركين أن الوافد لا يصلح لهم وإنما هو عليهم ، فهو منهم كمرض فى جسد ألفــه فزاده حصانة رغم أنه مرض ، فإذا انتقل إلى جسد لم يألفه أنهكه وأضاعه .

هو عليهم لأنه يوم استشرى فيهم ، إنما جاء مفروضا بقهر قاهــر وإرادة مستعمر ، وما يفرضه القهــر لا يقبله القلب السليم ولا الإرادة الحرة ، فإذا استسلمت فإنها تكون قد سلمت بأن تأخذ ولا تعطى ، تستكين ولا تبادر .

هو عليهم ، لأنه جاءهم موصولا بتاريخ غير تاريخهم وقيم غير ما يؤمنون ، وتطور فاقوه وقعدوا عنه يوم اغترب الإسلام فيهم ، فاستبدلوا الخبيث بالطيب ، الأدنى بالأعلى .

هو عليهم لأنه زادهم على تفرقهم فرقة ، فلقد تجنبه منهم من هو وفى لدينه ، وأقبل عليه منهم من ضعف إيمانه ، فإذا الناس

اثنان ، من ينكر المنكر ولا يملك صده ، ومن يأتى المنكر وهو . يستشعر إثمه فى عيون الأهل والجار .

هو عليهم ، لأنه انتزع منهم مقدرات التغيير والتعمير وبناء التقدم .

فلقد غرس فيهم عادات التبطل ، فصنفوا العمل وصنفوا عبره المكانة ، فما تنتجه اليد فهو وضيع وما ينشغل به العقل فهو رفيع ، قيم لم يعرفها الإسلام ولا هو دعا إليها .

ها هو رسول الله يخصف نعله .

ها هو رسول الله يغبر لحيته ويرفع معوله ويشارك المؤمنين حفر الخندق .

ها هو رسول الله ، ينهى المجاهدين ، إذا فتحوا قرية :

« أن لا يقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلا فى صومعة » .

ثم وفى نفس الدرجة .

« ألا يضربوا نخلا ، ولا يقطعوا شجراً ولا يهدموا بناء » .

ها هو رسول الله يراجع المجاهـــدين ، وهم يقاتلون فى الطائف

بنى ثقيف وهــوازن ، ويرجعهم من قطع الأعنــاب لأنها ثمرات عمل أرادها الله رحمة للناس .

تلك قيم الإسلام .

فما تلك التى وفدت إلينا . ؟

هى افرازات قرون الغربة .

فتضخمت المــدن وهجرت القــرى وأصبح الزرع والضرع مهانة وأصبحت حرفة اليد هواناً .

هو عليهم ، لأنه وفد معهم هؤلاء الذين وفدوا بالتعالى علينا ، ورحلوا وأورثونا مرض الكبر لا الكبرياء .

هو عليهم ، لأنه وفد من أقوام هم كالنــاس يوم القيامة كل طائر معلق فى عنقه ، لا ينشغل عن نفسه بسواه ، فلا تكامل ولا تعاون ولا تراحم بين الناس ، لا جار يجار ، ولا ضعيف يرحم ، ولا سائل يجاب ، ولا مسكين يستجاب له سؤال .

هو عليهم لأنه منقول من ناقل ، فإذا تواجهوا فلا مناص من أن يقهر الأصل الفرع ، وهكذا كان .

هو عليهم ، لأنه كفاهم حاجة العقل إلى ضغط الحاجة لكى يبدع ، فانقلب الزمن بهم ، فما عادوا كما كان السلف ، رواداً فى العــلم رواداً فى الكشف تأخــذ منهم الدنيا ، فإذا بهم على أبوابها يسألون .

هو عليهم ، لأنه صور لهم الـــدين كأنه خصيم الفكر والإيمان ، وكأنه خصيم العلم ، فصار منهم من لا يرى فى الدين إلا جهلا ، ولا يرى فى العلم إلا كفرا . . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

تلك هى بعض من بعض إفرازات ليل الغربة عن الإسلام .

فما هو درب الراعى ليقود الرعية على درب العودة ؟

هنـــا تفرّق السبل باجتهاد المجتهدين وأنا فيهم لا أقطع برأى ، وإنما أسوق ما قد يكون خطأ ، وما قد يكون خللا ، قد يكون فيه ما ينفع الناس .

فهناك من يقول ، سبيلنا هو إرغـــام الناس على اتباع دينهم ،

وهناك من يقول ، بـــل بالقول المعروف والموعظـــة الحسنة ،

وهناك من يقول بالقدوة .

وهنا لابد من وقفة للتفكير والتأمل .

وعلينا بداية أن نقرر أن الناس هم على دينهم يعمرون مساجد الله ، يؤدون الصلاة ، يصومون الشهر المبارك ، يؤدى الحج منهم من استطاع إليه سبيلا ، ليس فى المسلمين من ينكر دينه حتى نشهر عليه سيف المرتد ، فإذا فاء سلم ، وإذا بغى قتل .

ليس فى المسلمين من لا يعـــانى حنينا بأن يتصل إسلامه بإيمانه ، ويتصل يقينه بعمله ، وأن يتسق جوهره بمظهره ، وتتفق نواياه بعمله .

ولكنه ليكون ، فإن ذلك فى مجتمع تظلله رايات الإســلام وقيم الإسلام الأصيلة ومن منابعها .

يكون السؤال هــو كيف يمكن إقامة المجتمع الإسلامى الأصيل .

هل يملك الراعى أن يقرر ، أن يأمر فى العشية فتنحسر أستار ليل الغربة قبل أن يطل الصباح ؟ وهل إذا فعل ، هل يفعل بالناس ، أم يفعل للناس . ؟

بداهة إنــه لا يستطيع إلا بالناس ، فلو كان الأمر أمر فرد وإرادته ، لما عانى النبيون والرسل من تبعات الدعوة ومسئولياتها ، فلو شــاء ربك لآمن الناس جميعاً إلا أن مشيئته سبحانه قضت أن تكون قناعة الناس مدخلهم للإيمان ، وأن تكون حرية الإنسان هى معـــبره إما إلى الهــدى وإما إلى الضلال ، ولقد أراد سبحانه ، بكتبه ورسله أن يساعد الإنسان على أن يبلغ رشده ، وبعدها فإن الهدى لمن اهتدى .

ثم إننا فى ليـــل الغربة لا نتطلع إلى فجر يعود فيه الإسلام إلى النـــاس حتى نفرضه بإرادة الراعى ، وإنما نريد أن يعود الناس إلى الإسلام ، وهنا فذلك موكول بإرادتهم .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فسلطة الراعى إذن موصولة بإرادة الرعية ، فإذا أرغمها على ما لم تتهيأ لـــه فإنها قد ترضخ عن غير قناعة أو تنهى ولايته عليها .

وهنا تتكاثف ظلمات ليل الغربة بمـــا ينكره كل مسلم لدينه ، وما يأباه كل مؤمن يعصمه إيمانه ، من أن يعرض الخير لامتحان ، يقول فيه الناس له . لا ، بالصوت الجهير .

ثم إننا لو مضينا على طريق إرغام الناس على اتباع قيم دينهم ، فأى الثمرات نجنى . . ؟

ذلك أننا إذا ملكنا على الناس ظاهرهم ، فإننا لا نملك على الناس باطنهم ، فإذا أرغموا على غير قناعة فإننا لن نضئ فى ليل الغربة سوى ظلام النفاق .

ثم إننا لو أرغمنا الناس على الالتزام بما نحب لهم وارتضوا ذلك بغير قناعة . . فمن ذا الذى يستطيع أن يصد عنهم ما يدور حولهم من مغريات الضلال ، ذلك أن وقفتهم ضد ما يفسد عليهم دينهم لا يمكن أن ينبع إلا منهم .

ولعل الذين يذهبون مذهب الإرغام يقصدون غير ما أقصد .

لعلهم يقصدون أن يحاسب النـــاس على مظاهر خروجهم على قيم الإسلام وآدابه .

وأسأل على الفور . . هل قيم الإسلام تتبدى فيما هو ظاهر ، أم

تكمن فيما هو باطن فى النوايا ، وماذا إذا تستر الناس على أعمالهم ، ألا نكون مرة أخرى فى مواجهة النفاق ، وهو عند الله قرين الشرك أو هو إليه أقرب .

ثم لعل الذين يذهبون هذا المذهب ، يرون بالتشدد والتأثيم والتخويف ، بما يعنى أن لا ننشد فى الناس قناعة الملتزم ، وإنما ننتزع من الناس روع الملزم .

وهذا طريق لا يتعارض فحسب مع نبل الغاية بل هو يتعارض وفى الأساس مع الإسلام والقرآن ونهج الرسول جميعاً .

فنى الدين الحنيف ، الحسنات يذهبن السيئات والحسنة بعشرة أمثالها ، والغفران يسبق الذنب ، والعفو يسابق الخطأ ، والتوبة باب مفتوح لكل تائب وتتعدد الآيات المنزلات :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾

وتحدث الرحمن عن المغفرة ، فى خمس آيات فى البقرة ، وثلاث آيات فى آل عمران ، ويتكرر الفعل المضارع المستمر الأبدى (يغفر) فى آيات تتكرر خمس مرات فى سورة النساء ، وثلاثة فى آل عمران ومرتان فى كل من الأنفال ، والشعراء .

ذلك بخلاف ما جاء فى باقى الكتاب ، من ذكر للتواب والمتاب والصفح والعفو .

ليس الإسلام إذن دين تخويف وتأثيم وتهديد ، بل هو دين قناعة وتقبل وصفح ومغفرة ، ووعد بجنات تجرى من تحتها الأنهار .

وها هو الرسول الكريم ، يوم الفتح فى مكة ، يطلق صيحة العفو العظيم ، على من أخرجوه من أهله وضيقوا عليه فى الأرض ، حتى ضاقت بهم الأرض على ما رحبت .

فيسأل الكافرون ، ماذا تظنون أنى فاعل بكم . . ؟

ويجيب .

إذهبوا فأنتم الطلقاء .

ها هو الرسول الكريم . . ها هو الرسول الكريم ، وقد أوحى إليه ، ليبعث بابن أبى طالب ، والزبير بن العوام وراء امرأة تسللت من المدينة ، ويعودون ومعهم منها رسالة كانت فى طريقها إلى كفار قريش ، تنبئهم بأن محمداً يعد العدة لفتح مكة .

ويقف من بعث بالرسالة أمام الرسول ، فيقول حاطب بن أبى بلتعة

« يا رسول الله لا تعجل على ، فوالله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت أمرؤ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بنين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم ، فأحببت إذ فاتنى النسب فى قريش ، أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى » .

ويرتعد ابن الخطاب مما سمع ، فالرجل مهاجر مسلم شهد بدراً ، وأبلى فيها ، فيرى فى الأمر نفاقاً أو ما هو أشد من النفاق ، يظاهر الناس على دينهم ويكون عينا عليهم لأعدائهم .

ويعلو صوته رضى الله عنه :

« دعنى أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله » .

ويبتسم الرسول غير مبال بغضبه ويقول :

« وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم ، اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وحول هذا الحدث ، يوحى للرسول بآيات منزلات لا تراجعه فى عفوه ، وإنما تتخذ من الحدث عبرة للمؤمنين :

يسمع عبد الله بن عبد الله بن أبى يخاطبه :

(يا رسول الله ، إنه قد بلغنى ما كان من
أمر أبى وما بلغك ولما كان يريدها فتنة وهى
شر من القتل ، فالقصاص عدل ، فإذا كان
كذلك قضاؤك فلا تأمر غيرى ، فأنا أحمل
إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان
لها رجل أبر بوالده منى ، وإنى أخشى أن تأمر
غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى
قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل رجلا
مؤمنا بكافر فأدخل النار) .

يصدر الرسول حكمه :

(بل نترفق ونحسن صحبته ما بقى معنا) .

ويذهب الإسلام فى تحقيق الحصانة للناس ضد الترويع والتخويف والتأثيم ، إلى ما يصل إلى حد إنزال العقاب فى الدنيا والآخرة بمن يأخذ الناس بالظن ، بل أنه إحاط قرن بعض الظن بالإثم ، وحدد لقرائن إثباته من البراهين ما يعز وجوده إلا لو كان هو اليقين .

ثم جعل للظن مطعنا لا ينجو منه إلا إذا صادف الظن من يقربه ، فإذا أنكر فأمره عند الله .

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible] (٧) [illegible]

[illegible] (٨) [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

وقد أقسم ألا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى يموت أو يمن الله عليه بالتوبة .

وتمر ستة أيام وهو فى موضعه لا يغادره إلا للصلاة ليعود إليه ، حتى شارف الموت ، وأوحى الله لرسوله الآية الكريمة .

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

ويهرع إلى رسول الله بعد أن من عليه الله بالتوبة عارضا أن يهجر دارا اقترف فيها ذنبا ، ويبرأ من مال هو كل ما يملك .

ثم يسمع من الرسول الكريم قوله :

« يجزيك الثلث أن تتصدق به » .

ها هو الرسول الكريم ينهى بعض المسلمين يقضون يوم الصوم فى العراء ليكسبوا ثواب المشقة ، فينهاهم لأن المشقة بغير اضطرار عصيان لله ورسوله .

وها هو الإمام الأعظم أبو حنيفة يرتعد أمام رحمة الله وعفوه فلا يصدر فى الناس حكما بالتأثيم ولو كان افتراضاً .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

ويكرر أبو ذر السؤال مرات ثلاث .

ويكرر الرسول الكريم ما قاله ، ويزيد فى الرابعة .

« وإن زنى وإن سرق ، على رغم أنف أبى ذر » .

يتشدد الناس على أنفسهم لذنب ، فيسبقهم الله بالعفو .

يسرف الناس فى التشدد ، فييسر الرسول عليهم ، فما هو إلا رحمة للعالمين .

ليس الإسلام إذن دين ترويع وتخويف وتأثيم ، وليس الطريق إليه درباً يقهر الناس فيه على اتباع نهجه ، ذلك أن الإسلام إيمان ، والإيمان التزام ، وإذا التزم الناس بما يفرضه عليهم إسلامهم فإن صلاح الراعى إنما يكون من صلاح الرعية .

* * *

إن انحسار ليل الغربة الطويل وعودة الأمة إلى دينها ، ليس ما يظنه البعض مجرد إعلان قيام الدولة الإسلامية ووضع دستور إسلامى وسن قوانين إسلامية ، فما أيسر على الراعى أن يعلنه وعلى الرعية أن تتقبله ، ولكن هل يعنى ذلك انحسار ليل الغربة الطويل . ؟

كانت رايات الإسلام ترفرف على قصر الخليفة فى دمشق ، وأسباط الرسول يذبحون فى الكوفة .

[illegible]

ليس البديل لليل الغربة عن الإسلام ، هو إعلان الدولة الإسلامية ، وإنمـا قيام المجتمع الإسلامى ، ولا يقوم المجتمع الإسلامى بما يفرض على الناس ، وإنما مما ينبع من الناس ، أن يكون سلوكهم انعكاساً لإيمانهم ، أن تكون صلاتهم كصلاتهم خالصة لوجه الله ، أن يلتزموا ولا يلزموا بقيم الدين الحنيف ، أن يكون كل منهم رقيبا على نفسه لا رقيباً على غـيره ، يخشى الله فى الناس فلا يضلهم ولا يكذبهم ولا يؤذيهم فى أموالهم وأنفسهم ، يعين ضعيفهم ، ينتصر لصاحب الحق منهم ، لا يماطل فى حق ولا يجادل فى باطل ، يفى إذا وعد ، ويصدق إذا عاهد ، لا ينكر على الناس ما يستحله لنفسه ولا يساير الناس فيما يغضب ربه ، يصل الأرحام ويجير الجار ، لا يحل ماله لنفسه ، ولا لأهله إلا بعد أن يوفى لله حقه ، وهو حق للسائل والمحروم وزكاة مفروضة وإنفاق فى سبيل الله ، يرعى الله فى عمله فيعطيه بقدر ما يستوفيه منه من رزق ، يرعى الله فى نفسه ، فلا يعرضها لمهانة الدنيا وعذاب الآخرة ، فلا يأتى فاحشة ، ولا يأتى منكراً ، ولا يحل لنفسه ما حرم الله .

يبذل فى سبيل الله ماله ونفسه ، ويفتدى العدل فى داره وكل دار بالنفس والمال ، يعفو فما هو إلا طالب عفو من الغفور الغفار ، يرحم فما هو إلا طالب رحمة أرحم الراحمين .

يكظم الغيظ ويعفو عن الناس ، لا يمشى فى الأرض مرحا ، لا يبخس الناس أشياءهم ، لا يغتاب ويجتنب الظن ، ولا يقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق .

[illegible]

ثم يدرك أن مسئولية الراعى إنما هى من مسئولية الرعية فما كان فيهم إلا ببيعتهم ، فإن عدل فقد أحسنوا البيعة ، وإن لم يفعل ولم يردوه فلقد أعانوه على ظلمهم وظلم نفسه .

تلك بعض مواصفات المسلم والذى يشكل المجتمع الإسلامى المنشود ، المجتمع الإسلامى وليس الدولة الإسلامية ، ذلك أنه هو الأساس ، التى تقوم عليه الدولة ، ولا قيام لها إلا بوجوده .

* * *

ذلك هو الدرب فيما أرى ، فكيف السبيل إليه . .؟ هنا يكمن مخاض البداية العظيمة ، وهو يبدأ بإدراك ما وصلت إليه الأمة فى

ليل غربتها ، ثم تقدير أمين لوعورة الدرب وقدر المشقة ، وذلك وحده هو الضمان كى لا نستهين فنتهاون ، أو نصدم فنيأس ، ذلك أن الأمة تواجه تراكمات سنين وتفاعلات أجيال وتأثيرات حضارات كلها خصيمة لنا ، وأن علينا أن نجاهد ونجتهد ، نتقدم ولا ننعزل ، نتحرك ولا نتجمد ، نبنى للحاضر بإمكانيات الحاضر وظروفه ، ونعد للمستقبل بإمكانياتنا دون أن نخضع لضغط .

علينا أن نبلور أمانينا فى منهج ، وخطانا فى نهج وأن نمهد قبل أن نقدم ، ونتحرج من مخاطر طفرات غير محسوبة .

علينا أن نتعرف على أرضية واقعنا ، فندعمه بما يمكنه من احتمال شموخ البناء الجديد .

علينا أن نمتحن وسائلنا ، فنستبقى مالا يتعارض مع أهدافنا ، ونحذر مالا يلائمها ، ونطور ما يقربنا إليها .

علينا أن نبدأ بالبذور ، فهى ثمار المستقبل ، ولا ننسى ما شب على الطوق منها ، وما استوى عوده واكتمل نضجه .

ذلك يضعنا مباشرة أمام مسئوليات جديدة للتعليم والإعلام .

علينا أن نشرك الناس فيما نهدف ونطالب الناس بالإسهام فيه ، وذلك دون أن نحملهم ما يفوق طاقتهم فالظلام كالوهج ، كلاهما تعجز العيون على إبصار النور فيه .

علينا أن نساعد الناس على تلمس نتائج الغاية عبر آثار تحققها ، خطوات على طريقها مهما كانت محدودة .

علينا أن لا نثقل على الناس قولا ، فما أجدت فى ليل الغربة ملايين الخطب والمواعظ ، وإنما علينا أن نطلب من الناس عملا يحددون أبعاده ، ويقترحون وسائله ، ويوقتون مراحله ، ويجنون ثماره .

علينا أن ننهى مأساة الانفصام بين العلم والعمل ، بين الدين والتخصص المهنى والحرفى ، وأن يكون ركيزة مجتمعنا الجديد ، المهندس المسلم ، والطبيب المسلم ، والصحفى المسلم ، والحرفى المسلم ، والمزارع المسلم ، والعامل المسلم .

ذلك يعنى ربط التعليم بالدين وفى كل المراحل ، بعد أن كان الدين جزيرة منفصلة عن كل مناهج التعليم .

علينا أن نربط الحياة بالدين ، فلا تكون مساجدنا عامرة وقت الصلوات خاويــة فيما بينها ، وإنما يكون المسجد جامعاً لكل ما ينفع الناس ، هو للعلاج والتعليم والإرشاد ، هو منارة تشع بالنور وواحة تفيض بالخيرات .

علينا أن نكف عن مقارنة حاضرنا بماضينا ، حين كان المسلمون بالإسلام قوة ، وكيف أصبح المسلمون باغترابهم عن الإسلام ضعفاً .

علينا أن نواجه بالإسلام تيارات الفكر ومختلف العقائد فى عالمنا ، فهى متغيرة والإسلام ثابت ، وهى زائلة والإسلام خالد ، وهى انفصام عن الدين وكأنه لا يناسب الدنيا ، والإسلام عقيدة للدين والدنيا .

• • •

كان ذلك دوراً للراعى فى إطار منهجه .

ماذا عن الراعى فى إطار نهجه .

لعلى حياءً استأذن فى طرح نهج لا فضل لى فيه ، ذلك أن الفضل لصاحب الفضل الذى هدانى إليه وما يهدى الله اللائذين به إلا رشدا .

لقد عشت ليل الغربة شبابى ، وخضت فيما يخوض النــاس فيه ولا مهرب لى منه إلا عفوا أطلبه ، وصفحاً أنشده ، وغفراناً أطمع فيه من الغفور الرحيم .

خضت فيما يخوض فيه الناس ، ثم كان هدى الله فاهتديت ، وتأملت بعد ذلك نفسى فعجبت .

ملأتنى السكينة حين اهتز الناس فى ساعات الروع ، وصمدت .

احتوانى اليقين ، فما عرفت اليأس فى ظلمات تبعث على اليأس ، وأيقنت أن بعد العسر يسراً فنجوت .

شرح الله صدرى ، ويسر الله أمرى ، وأعاننى على نفسى فراجعتها فيما وجدته خطأ ورجعت . ما سألت الله إلا أجابنى ، وما توجهت إليه إلا وأرشدنى ، وما لذت به فى وقت ضيق إلا ولاحقنى الفرج .

شكرت الله على ما أنعم ، وحمدت الله على ما أعطى ، ثم أدركت أننى أمامه سبحانه مسئول عما أولانى على الناس من الولاية .

وللحق أشهد ، أننى تقلبت على فراش السهر ليال طويلة ، سائلا نفسى كيف أبدأ .

ولقد هدانى الله بما حسبه الناس نقمة ، وهو نعمة .

نقلت إحدى الإذاعات نبأ عن سفير يمثل بلادى فى أحد العواصم ، فذكرت أنه كان يقود سيارته تحت تأثير الخمر ، مما أجبر السلطات على إجباره على التخلى عن قيادة السيارة .

كان يمكن أن ينزلق هذا الحدث ، وينتهى باستدعاء السفير ومحاسبته بمقتضى القوانين واللوائح ، إلا أننى توقفت أمام دلالة

ما حدث ، فوجدت نفسى أمام حكمة المشرع الأعظم ، والذى قضى بتحريم الخمر على المسلمين ، ثم تساءلت لو كان هذا السفير وهو مسلم قد التزم بتعاليم دينه ، هل كان وضع بلاده ونفسه فى موضع الحرج ، وهو فى بلد ينظر إليه لا كشخص وإنما كرمز يمثل شعباً ودولة . ؟

ثم عدت لأسأل نفسى ، هل الخمر وحدها ما حرم الله . ؟

حـــرم الله الميسر والفاحشة والمنكر لحكمة غير منكورة ، فهو يحمى الناس من ظلمهم للناس وأنفسهم ، وما الفاحشة إلا وترتد لصاحبها بقـــدر ما تنعكس على غيره ، وما الميسر إلا ضعف نفس ومـــذلة تضع الإنسان فى مواضع الظـــالم إذا ربح والمقهور إذا خسر والمـــأخوذ دائماً بعادة غلابة لا يستطيع منها فكاكا ولو بذل فى سبيلها رزق أهله أو امتـــدت يده للمال الحرام ، وما المنكر إلا ما ينكره الله والناس فى الناس .

فاستباحة الحرمات عدوان وعداوة ، وهى مطعن فى كمال الرجال ، فلا كمال لمن هو عبد لشهواته .

ثم عدت أسأل نفسى من جديد .

كيف آمن على النـــاس من بعض الناس يتـــولون أمورهم وهم لا يرعون حدود الله ولا ينتهون عما نهى .

إن كل نفس بما كسبت رهينة ، ولكن ما هى الحدود الفاصلة بين مسئولية الإنسان عن نفسه ومسئوليته عن غيره إذا كان فى ضلالة

يؤثر فى النـــاس ولا يفيهم حقهم فهو بحكم موقعه فيهم قدوة ، فإن ضل أضل الضعفاء منهم ، وإن صلح ، أضاء الطريق أمامهم للتمثل به والاقتداء بنهجه .

ثم هو بضعف الضلالة قد يضل نفسه فيظلمهم فكيف نتوقع من شارب الخمر كفاءة . . ؟ وكيف نتوقع من لاعب الميسر أمانة . ؟ وكيف نأتمن من لا يرعى الحرمات ، أن يرعى مصالح الناس وحرماتهم . . وتوكلت على الله .

صنفت الناس حسب مواقعهم ، واخترت منهم من هو فى أعلى المواقع ، وأكثر قرباً من مصالح الناس ، وبعثت لكل منهم كتاباً هذا نصه :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ
مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ
فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة) .

[illegible]

حتى يأخذ الحق منه ، كما كان ظهيراً للضعيف حتى يأخذ الحق له ، لم يكن الحب فى شرعته مرادفا للمحاباة ، فآثر أمته على عشيرته وآثر أهله على نفسه ، وما رأى فضلا لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ما فاضل بين الناس لكرم عرق أو أصالة منسب ، أو سعة رزق أو وفرة مال ، وإنما الناس عنده سواسية كأسنان المشط ، فيما يأخذون ويؤخذون .

ثم كانت الأمانة فى نهج الرسول ﷺ ومنهجه هو ماوجده الناس فيه.

حيث كان الرحب صدراً ، الرحيم قلباً ، العف لساناً ، المستقيم مسلكا ، العادل حكما ، الحازم حكما ، الأمين عهدا ، الوفى وعدا ، المتواضع فى غير ذلة ، القادر فى غير صلف ، المتسامح فى غير تهاون ، الكابح لأهواء نفسه ، فما أخذ رعيته إلا بما هو دون ما أخذ نفسه به ، فما كان مستأثرا بمغنم ، ولا كان طامعاً فيما لا يستحق لا يخطو إلا لحكمة ، ولا ينكص إلا لحكمة ، لا يتعالى على نصح لا يترفع على شورى ، يراجع نفسه ، قبل أن يراجع غيره ، لا يعالج هفوات حسبت عليه بالإنكار أو التقاضى وإنما كان يأخذ نفسه به مأخذ النادم عليها .

تلك تأملات فى سيرة نبى حمل الأمانة وتحمل تبعاتها ، فجاهد نفسه قبل أن يجاهد لدعوته ، فانتصر لأمة كانت قبله تمزقا وشتاتا

ولقد كان بما أوحى إليه داعياً للتفكر فى خلق السموات والأرض وفى أنفسنا كمدخل لتحمل الأمانة . . أمانة الإيمان بما أمرت الشرائع

[illegible]

فإنى لن أكون محايداً بالنسبة لما هو ظاهر وملموس ولهذا فإنى لن أجد لنفسى بعد الآن عذراً ، إذا ما قبلت فيمن يعاوننى اعوجاجاً فى مسلكه ، ذلك أننى لن أستطيع أن أواجه بالصفح والتقاضى ، وعلى هذا فإن الخيار أمام القيادى المسلم هو :

إما أن يكون قدرة على مغالبة أهواء نفسه . . أو أن يكون شجاعاً فى طلب التنحى .

وعلى مدى أسبوعين من الآن . . هناك مساحة من الوقت للفكر والتدبر أمام اختيارين بلا ثالث :

إما عهد ووعد بتجنب الخمر ومثيلاتها ومادونها من النواقص . وإما اعتذار أقدره وأقبله عن المشاركة فى حمل الأمانة وتحمل مسئولياتها .

ولسوف أكون بعد استلام الرد وليس قبله عينا ترصد الصادقين للعهد ، الحانثين الوعد لأكون للأولين نصيرا ، وللآخرين أمينا مع عقيدتى وشعبى وضميرى ، فأضعهم حيث أرادوا لأنفسهم بمنأى عن الأمانة وتحملها ، والله يهدى من يشاء .

* * *

وتلقيت إجابة على ما طلبت ، وقد تعهد الجميع بالالتزام به ، ما عدا واحد فقط ، يقول فى وضوح أنه لا يستطيع ، ولأنه لا يستطيع فقد أعفيته من منصبه ، كان هذا هو شرطى ، وكان ذلك هو اختياره .

وتوالت الأيام وأنا أرصد نتائج ما فعلت ، ولا أستطيع أن أجزم حتى الآن أن من عاهدته التزم ، ولكنى أشهد ويشهد الناس معى ، بأن ما كان مألوفا حدوثه قد تلاشى ، وما كان يجرى بالجهر بل بالزهو توارى ، واختفت من حياتنا قيم كانت ترى فى الخمر تحضراً ، وفى الميسر رياضة ، وفى استباحة الحرمات ذكاء وفطنة ، ولقد تعدى الأمـــر ما عنيتهم فى كتابى لمن هم دونهم ومن هم دونهم ، وأنا أتحدث هنا عن الظاهر ، أما عن الباطن فيعلمه الله وحده .

ومع هذا فإنه ليس حقاً أن يقال ، إن الناس قد انتهت عما نهى الله عنه ، ولكنها على الأقـــل قد تحولت بـــه من الممارسة فى العلن إلى الممارسة فى الخفاء ، من الممارسة بالزهو إلى الممارسة بالتستر ، وتلك خطوة على طريق الالتزام ، بل إن الأمور مضت بحمد الله إلى ما يجاوز تلك الحدود ويتعداها فلقد أصبح النـــاس يقيمون من يتولون أمرهم على أساس هـــذا المعيار ويطالبون بالحساب على أساسه .

وأذكر أننى تلقيت فى بريدى رسالة يذكر مرسلها أن قيادياً كبيراً

مازال على غيه القديم ، يعاقر الخمر ويعتدى على الحرمات ، وللحق والصدق فلقد أبت نفسى أن تصدق ، فمن يعنيه وحتى الأمس القريب كان يزاحمنى فى الصف وهو يؤدى صلاته وما فتأ يذكر نعمة الله عليه إذ أكرمه بما وجهته فامتنع عما كان يسئ له عند الله والناس وأهله ، ولقد اعتمر بالبيت ، وعاد أكثر إيماناً وتقوى ، فكيف أكذب عينى وأمضى وراء اتهام قد يكون وراءه غرض ، ولقد كان محالا أن آخذه بالظنون والشبهات ، كما كرهت أن أتحقق فأرتكب معصية ، فلقد أمر الله الناس ألا يتجسسوا ، وفوضت فيه لله أمرى إذا كان قد ظلم فخان ميثاقه وعهدى ، وسألت له هدى ورشداً إذا ما كان ظاهره كباطنه ، ومرت الأيام وكانت تواليها أقوى من حرصه على أن يكتم عن الناس أمره وما استطاع أن يمارس غيه القديم فى عزلة ، فما ألف إلا صحبة سوء ومجلس سوء ، فانكشف أمره وهتك سره وطويت صفحته .

وهناك من استفسرت عنه ، فأبلغت مرضه ، فعدته وعدت من عنده وبى يقين أن الخمر علته ، فما استطاع أن يكتم أنفاسه ليكتم رائحة الخمر تفوح منه ، وطلبت أن يسأل فما أنكر وإن ادعى أنه أراد بالخمر علاجاً ، وأعفيته مما كان يقوم عليه .

ولست بغافل حتى أدعى أن كل من عاهد صدق ، وكل من وعد أوفى ، فالله أعلم بالسرائر والضمائر .

وعلى الظاهر يكون حسابى ، وعلى الظاهر والباطن فحسابه عند من له الحساب يوم الحساب .

إلا أننى توقفت بالدهشة أمام ذلك الذى انفرد وقال إنه لا يستطيع ، فما مرت أسابيع على ما قرره حتى أقلع عن الخمر ، ولقد طلبت أن يسألوه فيما كان إذن رفضه قطع العهد .

فقال : إنه لم يكن على ثقة من قدرته على الوفاء بما وعد ، وخاف أن يضيف إلى معصية الخمر خيانة أمانة العهد ، فامتنع عنه .

وطلبت أن يعود إلى ما كان يقوم عليه فأبى خشية أن يبرر انقطاعه عن الخمر بانقطاعه عن العمل وأكبرته وسأظل .

ما أردت أن أقوله فيما قدمت أن القدوة هى مسئولية الراعى أمام الرعية ، فهو فى الناس ما يحب الناس لأنفسهم ، فإذا صلح صلح من هم دونــه ، ثم من هم دونهم ، ثم من هم دونهم ، وخاصة إذا اقترنت الأقوال بالأفعال ، وصحت النوايا .

* * *

لا أريد أن أقول أن تلك هى بداية الطريق ونهايته ، وإنما هى خطوة على درب طويل ، على الراعى أن يواصله مع الناس وبالناس ، لا يتقدمهم بحيث يقعدهم اليأس فلا يلحقون به ، ولا يتخلف عنهم بحيث يفقدون الدليل والمرشد ، إنما يحثهم ويمهد لهم ويعينهم على السعى لبناء المجتمع الإسلامى ، الذى هو هم أنفسهم .

فما يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، حسبهم منه نفسا يروضها ، وعونا يقدمه . وطريقاً يمهده ، ونهجا يلتزم به .

نهج الراعى الذى يؤمن ، بأن صلاح الراعى من صلاح الرعية .

* * *

لمحات من الدرب

ملحقات

إلا أنى فوجئت بالدهشة أمام ذلك الذى انفرد وقال إنه لا يستطيع ، فما مرت أسابيع على ما قرره حتى أقلع عن الخمر ، ولقد طلبت أن يسألوه فيما كان إذن رفضه قطع العهد .

فقال : إنه لم يكن على ثقة من قدرته على الوفاء بما وعد ، وخاف أن يضيف إلى معصية الخمر خيانة أمانة العهد ، فامتنع عنه .

وطلبت أن يعود إلى ما كان يقوم عليه فأبى خشية أن يجر انقطاعه عن الخمر بانقطاعه عن العمل وأكرمته وسألته .

ما أردت أن أقول إلا أن الأسوة هى مسئولية الراعى أمام الرعية ، فهو فى الناس ما يحب الناس لأنفسهم ، فإذا صلح صلح من هم دونه [illegible] ، ثم من هم دونهم ، وبخاصة إذا اقترنت الأقوال بالأفعال ، وصحت النوايا .

* * *

لا أريد أن أقول أن ذلك هى بداية الطريق ونهايته ، وإنما هى خطوة على درب طويل ، على الراعى أن يواصله مع الناس وبالناس ، لا يتقدمهم بحيث يتقدم اليأس فلا يلحقون به ، ولا يتخلف عنهم بحيث يفقدون الدليل والمرشد ، إنما يجمعهم ويتهدد لهم ويعينهم على السعى لبناء المجتمع الإسلامى ، الذى هو هم أنفسهم .

فما يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، حسبهم منه نفسا يروضها ، وعونا يقدمه ، وطريقا يمهده ، ونهجا يلتزم به .

نهج الراعى الذى يؤمن ، بأن صلاح الراعى من صلاح الرعية .

* * *

لمحات من الدرب

كان عسيراً إلا أن القبـــول به أكرم ، ثم أن الخيار كان عصيباً إلا أن الله أرحم . وهكذا كان الفداء العظيم ، وكان العيد الكريم ، تكريماً لمن يطيع الله فيما يأمر ، ويرتضى بحكمه فيما يحكم ، ويصبر على مقاديره موقناً أنه هو الرحيم المعين لعباده الصابرين .

وإذا كان الحج كفريضة يواكب ذكرى هذا الحدث العظيم ، فلقد أراده الله يسراً لا عسراً ، لم يفرضه إلا للقادرين عليه ، ولم يطلبه إلا ممن استطاع إليه سبيلا مؤكداً على حكمته كجوهر لا مظهر ، باعتباره سعياً فى سبيل الله،غير منفصل على ما يسبقه وما يلحقه،ليس باعتباره توقيتاً لتوبة، ولا مدخلا لمغفرة ، فالتوبة لا ترتبط بميقات ولا ترتبط بمكان ، والمغفرة مكفولة بالنية الصادقة والعزم الأكيد والعمل الصالح والانتهاء عن المنكر . ورحمته ، جلت قدرته ووسعت رحمته ، تتسع للقادرين على السعى إلى بيته ، وللعاجزين عن الوصول إليه ، فهو المطلع على السرائر والضمائر . وهو الحكيم العليم فيما تظهر وتبطن ، فلا جناح على من تطلع وعجز ، ما دام صادق العزم على مرضاة الله والامتثال لحكمه والالتزام بما أمر . عملا صالحاً فى الدنيا والآخرة .

أعاد الله علينا مثل هذا العيد ، بما يحب ويرضى ، مخلصين عاملين آملين وطامعين فى مغفرته ورحمته ، إنه سميع مجيب الدعوات .

فليكن هذا العيد مودة بين الناس ورحمة وليكن هذا العيد صلة بالمحتاج ، عوناً للعاجز وعطاءاً من القادر بغير من وبغير أذى . وليدرك المسلم المؤمن بأن العيد ليس مناسبة ترف للتفاخر والتظاهر ، ولا هى تحمل لما لا طاقة لنا به ، وأن الضحية فرض على من استطاع ولا حرج على من لا يستطيع فلا ترهقوا أنفسكم جرياً وراء شراء الذبائح إذا لم تكونوا قادرين عليها فالله تعالى يضحى عنكم ويفديكم .

بسم الله الرحمن الرحيم

فبراير ١٩٧٨ لقاء المكاشفة (٢)

الإخوة المواطنون الثوار الأحرار . . .

أحييكم أيها الإخوة ، تحية ثورتكم الخالدة ، ثورة الخامس والعشرين من مايو الظافرة أبداً والمنتصرة بإذن الله .

أحييكم أيها الإخوة ونحن نلتقى فى رحاب مناسبة إسلامية عظيمة ، بل مناسبة إنسانية خالدة فما كان مولد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، إيذاناً بانتهاء الضلالة بظلمها وظلامها عند أهل له وعشيرة ، وإنما كان مولده تمهيداً لرسالة تنتشر بنورها هداية للعالمين .

وما كان ابن عبد الله ، يوم ولد ، ويوم بعث ، ويوم أكمل رسالته وأدى أمانته ، إلا هادياً للناس كل الناس .

فما كان فى صباه منحازاً إلا للحق ، غضوباً إلا للظلم ، تواقاً إلا للعدل ، لم يرى فى الناس إلا جوهر الإنسان فيهم ، لا تتشكل أقدارهم عنده بتمايز فى اللون ، أو سعة فى الرزق ، أو منعة بالأصل ، أو نبل فى النسب ، فما انتسب صلوات الله وسلامه عليه فى صدر شبابه لقبيلة ولا لعشيرة ، ولا تعصب لصلات دم أو ذوى قربى ، وما ناصر ولا انتصر إلا لما رآه حقاً وما ابتغاه عدلا ، ولقد كان ذلك كله آية أمانته ، حتى قبل أن تبلغه رسالته ، ، فكان الأمين فى قومه ، بل كان الأمين لقومه ، ينتصر للمظلوم

اللقاء الشهرى يونيـــو ١٩٧٧

الإخوة المواطنون الثوار الأحرار

إننا على طريق الالتزام بنهج ديننا الحنيف نمضى ، وعلى هدى قيمنا العظيمة القوية ننطلق ذلك أنه ضماننا وأماننا ونحن نخوض أشرف المعارك لتنمية السودان وتأكيد عزته وسيادته وكرامتـــه .

ولقد مضى العهد ، أيها الإخوة ، الذى كان فيه الحديث عن الالتزام بالدين ، شعاراً ينطلق بغير محتوى ليصبح فى عهـد ثورتكم الالتزام به نهجاً مقنناً ومسلكاً مطروحاً للتطبيق وفى كل المجالات .

وعلى هذا الدرب أيها الإخوة سوف تجتمع فى أوائل أغسطس القادم اللجنة المكلفة بإعادة النظر فى القوانين لتطويرها بحيث تتكامل مع الشريعة الإسلامية باعتبارها وتحكم الدستور مصدراً أساسياً من مصادر التشريع وهى لجنة تضم كفاءات سودانية وعربية وعلى هذا الدرب أيضاً فإننى أوجه ومنذ الآن أن تعى دور العبادة فى جميع أنحـــاء السودان من قيمة استهلاك المياه والكهرباء وذلك لكى يتيسر توفير الإمكانيات لتطويرهـا وتخفيف الأعباء عليها .

إن الاعتصام بالدين إنما هو مدخل الشعوب العظيمة إلى دروب نهضتها وتقدمها . ذلك أن الثراء هو ثراء النفوس أولا وأخيراً وأن الفقر والحاجة إنما هوافتقار إلى القيم التى تعصم من الخطأ . والمبادىء التى تنهى عن الانحراف والمعايير التى تضع الإيمان والعمل كوجهان لحقيقة واحدة هى العمل من أجل بناء المجتمع الفاضل والقادر على حفظ جهـد أبنائه من أن يستثمر إلا فى الخير وأن لا يستغل إلا لصالح الإنسان حفاظاً على دينه وضماناً لدنياه .

اللقاء الشهرى نوفبر ١٩٧٧

الإخـــوة المواطنون الثوار الأحرار

يأتى هذا اللقاء ونحن على مشارف عيد الأضحى المبارك ، أعاده الله عليكم وعلى أمتنا الإسلامية والعربية بالنصر والمجد والعزة .

وهو عيد يجب أن يتأمل الإنسان مغزاه ودلالته ومعناه ، فهو ليس عيداً للترف والبذخ ، ولا هو مناسبة للإسراف فى الطعام والشراب ، وإنما هو مناسبة يفترض فى المسلم المؤمن أن يراجع فيها نفسـه بما هو مطلوب منه بل هو ملزم به تجاه خالقه .

أن يتفانى فى طاعته ، وأن يلتزم بأوامره ، وأن يؤكد إيمانه بالعمل لا بالقول ، بما يظهر وما يبطن على حد سواء .

ذلك أن عيد الأضحى هو عيد الفداء الأكبر ، بل هو عيد الوفاء الأعظم ، وفاء المخلوق المدرك لحكمة ربه ، الصابر على أمره ، المتمثل لحكمه ، المعترف بقصور إدراكه ، وحدود معرفته ، المتعالى على مشاعره ، الكابح لعواطفه ، المتفانى فى إنكار ذاته ، المضحى بما هو أغلى من حياته مرضاة لله وطاعة لأوامره .

هكذا كان الخليل إبراهيم حينما أطاع وامتثل ، وهكذا كان إسماعيل الذبيح حينما جسد طاعته ، صبراً على ما لا طاقة للبشر للصبر عليه .

ولقد كان البلاء عظيما ، إلا أن الصبر عليه أعظم ، كما أن الامتحان

[illegible]

الحق والعدل والسلام . هاجر من أرض هي الأحب إلى قلبه . وهجر عشيرة هم الأقربون إلى نفسه . وتخلى مختاراً عن مكانه ومكانته . حيث كان فى قريش هو الأعلى نسباً . والأرفع أصلا . والأكرم عرقاً . إلا أنه اختار عزة الإسلام بديلا لعزته . كما اختار نصر المسلمين بديلا لسلامته . إلا أنه رغم ذلك ما هاجر . ولا هجر . فلقد ظل بالقلب والوجـدان حيث البيت العتيق . أينما ولى وجهه اتجه قلبه لله . وأينما امتد بصره تعلقت آماله به . ولقد دعى ربه فاستجاب لدعائه . وابتغى فضله فأتم نعمته عليه . فوجهه إلى قبلة يرضاها . واتجه والمسلمون المؤمنون من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام .

وهكذا كان الفتح قبل الفتح . وكان النصر الكريم قبل النصر العزيز . وعـداً صدقاً وعهداً أوفى . ذلك أن الله ينصر من ينصره . وقد انتصر المهاجرون لدين الله فانتصروا . ورفعوا لواء دينه فأعزهم الله فى غربتهم . بل أعزهم الله بغربتهم . حيث تآلفوا مع أهل يثرب . وحيث تآخوا فى الإسلام . وحيث نبذوا التعصب لغير الحق . والتحزب لغير الخير . فكانوا مع أهل المدينة . إخوة فى الله . لا اعتداداً لعشيرة ولا اعتزازاً بقبيلة . ولا انتماءاً لطائفة . ولا انتساباً إلا للإسلام . ولقد كانوا جهـاداً فى سبيل الله سواسية كأسنان المشط . يتنافسون على الشهادة . ويتسابقون إلى الجنة . ويحملون لواء الحق تحت راية لا إله إلا الله . محمد عبده ورسوله .

ما تمايزت صفوفهم بتمايز الأصل والنسب . ولا اختلفت خطاهم بدواعى التفرد والامتياز بل وما نكصوا أو وهنوا وهم يقاتلون أهلا لهم وعشيرة . حيث تقطعت صلات الأرحام أمام دعوة الرحمن . فكان المؤمنون إخوة . بينما المشركون لهم أعداء . يقاتلون فى سبيل الله . ويقتلون إبتغاء لمرضاته . ما دام المشركون بغيهم وضلالهم . حرباً على دعوة التوحيد . لا تدفعهم عنهم صلات قربى . ولا يشفع لهم شرف نسب أو كريم أصل ، أو جليل مكانة .

فهم المكائدون ولو كانوا فى عشيرتهم الأكرمين . وهم المشركون ولو كانوا هم الأعـز نسباً والأشرف حسباً . فلا عزة إلا بالإسـلام ، ولا عزة إلا بالإيمان ولا تمايز بين الناس إلا بالعمل الصالح .

وهكذا كانت الهجرة هجراناً لجاهلية التعصب الأعمى ، والتحزب البغيض ، كانت خروجاً بالمسلمين من ديار ذل ولو كان فيها أهل وعشيرة ، إلى ديار أعزتهم بغير عصبيتهم ، وأكرمتهم بغير أصولهم ، وساندتهم وأيدتهم لما يدعون إليه وليس لما يدعونه من أصيل منبت وكريم أصل .

كان الانتصار بالهجرة خذلاناً للتعصب والتحزب ، وانهياراً للتشرذم والتقوقع .

كان الانتصار بالهجرة انتصاراً على الانتماء لعشيرة أو قبيلة ، وانتصاراً على الولاء الممقوت لسلطان فرد أو مجد جماعة .

كانت الهجرة انتصاراً للانتماء الأرحب ، لدين الله والمؤمنين من عباده ، حتى لو اختلفت أصولهم ، وتباينت مكانتهم ، فهم عند الله كما خلقهم الله ، يتمايزون بمصالح العمل ، وليس بكريم الأصل والنسب .

كان الانتصار بالهجرة ، هو انتصار على صراعات الباطل ، حيث تقاتلت القبائل فى الجاهلية ، حيث تصارعت العشائر قبل الإسلام ، ولقد كان قتالها وصراعها تأكيداً لمجـد أو استرداداً لمجد ، حيث انقسم الناس على الناس طلباً لسيادة أو فرضاً لإرادة ، لا من منطلق إيمان بفكر ولا حتى انحيازاً لرأى ، وإنما انتصاراً للمجد الموروث ، مجد الآباء والأسلاف .

ولقد كان الانتصار بالهجرة ، هو تأكيد لدعوة الإسلام ، بأن الإنسان بعمله لا بأصله ، وأن المؤمن بما عف عنه لسانه ، وتطهر به قلبه ، وما قدمت يداه لدنياه وآخرته ، وأن لا شفاعة له لمجد يدعيه وأصل يلوذ به ونسب يتذرع به .

فلقد كان المهاجرون هجراناً لما كانوا عليه ، من صلات ووشائج ، تعلقاً بما آمنوا به وجاهدوا فى سبيله . فانتصر الله لهم ، وانتصر دين الله بهم ، فكان النصر العزيز ، والفتح المبين .

ولقد شاء الله لرسوله ، أن يكون فى مكة صاحب رسالة ودعوة ، يتحمل فى سبيلها إيذاء أهله ، وإنكار عشيرته ، وعداوة عصبته ، رغم أنه الكريم فيهم ، العزيز بينهم ، ثم شاء المولى جلت قدرته ، وتسامت حكمته ، أن ينتصر لدينه ، وأن يعز رسوله ، وأن يؤيده بنصره ، فى رحاب أهل يثرب ، ولقد كان محمـد فيهم غريباً مغترباً اتصل بهم بوشائج الإيمان والإسلام ، ولم يرتبط بهم بعلائق الأرحـام والأنساب ، وذلك هو جوهر الإسلام وغايته .

أن يلتقى الناس فى رحابه ، لا يفرقهم سوى الخروج عليه ، ولا يجمعهم إلا الإيمان به ، ولا تمايز أقدار الناس فيه ، إلا بالعمل الصالح والموعظة الحسنة ، فاندفع الناس إلى دين الله أفواجاً ، فكان الفتح وكان النصر ، وكان أهل مكة مع أهل المدينة ، موكباً للهدى والنور أحاط بالبيت العتيق تسبيحاً ، حمداً لله على فضله ، وشكراً لله على نصره ، ونهاية لجاهلية الفكر وعبودية الإرادة ، وانتصاراً لإنسانية الإنسان يوم تحطمت أوثانه ، أوثان التحزب بغير الحق ، وأصنام التعصب للباطل ، أعاد الله علينا أيامه بما نبتغى ويرضى ، هجرة من الباطل إلى الحق ، وهجرة من التشتت إلى الوحدة وهجرة من الانقسام إلى الاتحاد .

وإنه لناصرنا بفضله ، ما دمنا على نهج رسوله ، اهتـداء بكريم قرآنه .

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً . محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » .

صدق الله العظيم

وسبحان الذى أغنى عبده ورسوله ، من أن يسأل لقومه إلا المغفرة والهداية . يجادلهم بالحسنى ويدعوهم للمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، فما استعدى ربه على قومه . وما توسل إليه إلا طلباً لهدايتهم ، ومغفرة لذنوبهم . فكانت بينات دعوته انتصار رسالته وارتفاع لوائه .

وسبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . لتكون تلك الآية هى آية أخرى ومعجزة عظمى ودليلا حسناً واضحاً على قوة دعوة الرسول (صلعم) وشمول رسالته . فما سرى الرسول صلوات الله عليه عبر المكان بما لا يقاس من الزمان فحسب . وإنما كانت آياته آية تصل بين الإسلام كدعوة ورسالة وبين ما سبقها من المنزلات من رسالات الرسل والأنبياء منذ خلق الله الأرض وإلى حين يرث الله الأرض ومن عليها .

فما سرى الرسول صلوات الله عليه عبر المكان من مكة إلى بيت المقدس ثم ما عرج من بيت المقدس عبر السموات حتى سدرة المنتهى إلا لتكون آيته آية على شمول رسالته وكمال دعوته . فما ارتد بعد ذلك إلى قبلة يرضاها بأمر من الله وإذنه من مسجد الأقصى إلى المسجد الحرام بما يعنى نكوصاً عن نهج أو نكراناً لقداسة . فلقد سرى إلى المسجد الأقصى وعرج منه بما يؤكد الوحدة لدين الله . وما يثبت الاتصال بين رسالات رسله . وبما يؤكد الاكتمال والكمال للإسلام كرسالة توحيد ودين وحـــدة .

وما كانت آية المعراج بعد آية الإسراء إلا تأكيداً للتواصل الحق بين رسالات الأنبياء والمرسلين ورسالة خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم والذى أرسل هدى للعالمين والذى تجاوزت رسالته أبعاد زمانه ، فما سبقه من أصفياء ربه ودعاة دينه من حظى بما حظى به المصطفى صلوات الله الله وسلامه عليه حين عرج للسموات العلا . حيث كان فى الناس وفيهم ، وبين الناس ومعهم . وفى زمان الناس وزمانهم . بل وفى وجـــود الناس وفى وجودهم . فما استقرأ بما أوحى إليه أخبارهم . بل عايش على القرب أشخاصهم بما استوحى السلام بما أوحى إليه من سيرتهم . وإنما اقرأهم السلام وأقرأوه السلام مباركين دعوته غابطين حظوته . مستشفعين بمكانته عند أرحم الراحمين . ولقد حددت مكانته حين كان مكانه عند رب العرش العظيم يناجى ربه : التحيات لله . الطيبات الصلوات لله . الزاكيات لله . ولقد ارتفع قدره صلوات الله عليه فوق أقدار البشر أجمعين من عباد الله الصالحين وأنبيائه المرسلين . حين اهتزت السموات والأرض لقول العزيز الحكيم : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .

ولقد كان سلام الله على نبيه ورسوله واسطة فى كل صلاة مسلم وخاتمة لكل صلاة مسلم . ترديداً لقول الحق وتكراراً لنجوى الرسول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وما رددته الملائكة والروح فيهم : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمـــداً عبده ورسوله .

الإخــوة المؤمنون المسلمون :

لقد كانت بداية الإسراء والمعراج . برهان شمول لدين الله ودعوة رسوله . فما انقطع الإسلام عما قبله وما تعارض الإسلام مع ما سبقه ، بل كان بجوهر الحق فيه . تسليما وتأصيلا لتوراة موسى وإنجيـــل عيسى وزبور داود . ولقد اهتدى رسول الإسلام . بملة إبراهيم حنيفاً ، وحكمة لقمان فى زمنه . وصبر نوح على أهله وغفران يوسف لأخــوته . وما تطلع لما ملك سليمان من سلطان وسطوة وما امتلك داود من أموال وثروة ، رغم أنه خير بين الشمس فى يمينه والقمر فى يساره فما اختار إلا دين الله يدعو

فى ذكرى الإسراء والمعراج

نلتقى أيها الإخوة فى رحاب شهر الذكرى وعظمة المناسبة ، التى قال فيها الحق تعالت قدرته على كل قدرة :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير . »

صدق الله العظيم

ولقد كانت آية الإسراء والمعراج بعمق دلالتها تجاوزاً لما واكب الدعوات والرسالات ، التى سبقت الإسلام ومهدت له ، من آيات ومعجزات .

فما كان الإسراء والمعراج ، إعجازاً يتمثل فى قدرة المخلوق كدلالة على قدرة الخالق وإنما كان آية شمول ودليل اتصال ، وبرهان تكامل بين الإسلام وما سبقه من رسالات الأنبياء والمرسلين . ثم كان آية اكتمال الإسلام لرسالات الأنبياء والمرسلين . فاكتمل به دين الله الأوحـــد ، والذى ما كان الكون كله إلا تمهيداً له حتى تعلو رسالة المصطفى (صلعم) راياته ويرتفع لواؤه كدين توحيد ووحدة فى السموات والأرض فسبحان الذى أغنى عبده ورسوله . عن آيات تشابهت ، ومعجزات تكررت . وبينات كفر بها الذين ظلموا أنفسهم ، وآمن بها من عباده من اختار لهم الهداية . وأضاء الإيمان بصائرهم وأبصارهم . فكانوا الناجين الفالحين فى الدنيا والآخرة .

وسبحان الذى أغنى عبده ورسوله عن بينات تبطل السحر ، وتفضح الزيف ، وتحصحص الحق . فما ألقى بعصاه . فإذا هى حية تسعى .

وسبحان الذى أغنى عبده ورسوله ، عن سؤال ربه . لما يؤكد إيمانه . فما طلب حياته لذبيح طير . وما كان فى العسر إلا كان فى اليسر يجد فى يمين الإيمان برده وسلامه .

وسبحان الذى أغنى عبده ورسوله عن أن يسأل الصالحين والطالحين من عباده مناً ولا سلوى ، ولا توسل ابتغاء لإيمانهم بمسالك الحس من نعم السماء موائد ممدودة تشبع الشهوات . وسبحان الذى أغنى عبده من أن يجاوز حـــدود قدرته وطبيعة فطرته تأكيداً لجوهر دعوته ، فما كان إلا بشراً ثم إنه بعد ذلك رسولا . فما أحيا ميتاً . ولم يكن ليشفى مريضاً وما رد الأبصار وإن كان يهدى البصائر .

وسبحان الذى أغنى عبده ورسوله ، من أن تكون آيات دعوته وبينات رسالته إلا تمثلا فى نهج حياته . فلقـــد كان الأمين صبياً ، العف فتياً ، الصادق الصبور . القـــادر . الشجاع . العـــادل الرحيم ، رسولا ونبياً .

ولقد استغنى باليقين عن إعجاز ينتشله من بئر يتمه ، وما كان كيوسف مؤولا للرؤيا فتنفرج كربته وتنزاح غمته ، ويملك فى الأرض خزائنها ، فهو الذى قال فيه الحق الوهـــاب : إنه يتيما فآوى ، وضالا فهدى ، وعائلا فأغنى . فكان حقاً عليه ، أن لا ينهر يتيما ، ولا يقهر سائلا ، فكان إعجازه ، صلوات الله وسلامه عليه مكارم الأخـــلاق حين أدبه ربه فأحسن تأديبه .

وسبحان الذى أغنى عبده ورسوله ، من أن يغالب المحنة فى نفسه ، إلا بنفسه ، فما كان بين المشركين ، إلا كما كان يونس فى جوف الحوت ، فما عجز عن الصمود ولا تراجع عن المقاومة ، ولا استسلم للبطش والقهر والطغيان . حين بدل الله خوفه أمناً ، واستنصر الله فنصره على القوم الكافرين . وليحقق له النصر المكين والفتح المبين بأمره وإذنه .

له ويجاهد فى سبيله وهكذا تكامل الإسلام مع ما سبقه وهكذا اكتمل الإسلام بما حققه فكان لكماله ختاماً . وكان ختامه كمالا لدين الله على أرضه بشيراً للعالمين ، ونذيراً للظالمين وهدى للمؤمنين إلى يوم الدين .

ألا إن شمول الإسلام فى عمق الزمان . والذى كان الإسراء والمعراج آية من آياته . إنما كان تواصلا لشمول الإسلام . من حيث هو نهج فى الدنيا والآخرة . فما كان الإسلام دين كهانة . ولا كان الإسلام دين عزلة عن الحياة ترفعاً عنها أو زهداً فيها . وإنما كان دعوة لاستمرار الحياة وتواصلها . عبر تواصل الناس مودة ورحمـــة . حيث فيهم الذكر والأنثى . وحيث الزواج سكينة للنفس . واطمئنان للقلب . وأصالة للأنساب . وما أفاض القرآن الكريم وفصل بقدر ما فصل فما . ربط الذكر بأنثى مباركاً من الله قائماً على شريعته . مستلهماً نهج رسوله . معدداً فى آيات كتابه المعاذير والمحاذير جميعها ثم يترك تفصيلا إلا ذكره ومحرماً إلا منعه . ومكروهاً إلا محله ومرغوباً إلا حث عليه . ميسراً غير معسر . مضمناً فى ذلك كله شمول الترابط الإنسانى مجسداً فى علاقة الذكر بالأنثى . فما ترك صغيرة فيها ولا كبيرة إلا أحصاها . عددها وفصلها . بينها ووضحها . وضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . فحين أباح تعدد الزوجـــات فإنه لم يطلقه بل علقه على عدل يستحيل بلوغه رحمة بالزوج إذا ظلم أو ظلم . ورحمة بالزوجـــة راضية أو غاضبة .

يقول أعدل العادلين (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعـدلوا فواحدة » .

وهو الذى أضفى على الزواج قداسته حين قنن علاقات أطرافه . فنأى به عن رجس الجاهلية الأولى فحدد المحرمات بالدم ثم المحرمات بالمعايشة ثم المحرمات بما يوغر الصدور كراهية وحقداً . غيرة وحسداً . يقول أحكم الحاكمين (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وإخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللائى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة . وأمهات نسائكم وربائبكم اللائى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم . وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيم) .

صدق الله العظيم

وقد اقترنت رابطة الزواج فى الإسلام وشريعته كصيغة بغير بديل لعلاقة الذكر بالأنثى إلا المشركين ، الكافرين ، فيقول الحق تعالى فى كريم آياته (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) .

صدق الله العظيم

ثم يربط الإسلام فى آيات قرآنه بين حسن المعاشرة بين الزوج والزوجة بالمغفرة فى الآخرة واليسر فى الدنيا فتقول الآية الكريمة : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) .

صدق الله العظيم

ويؤكد الله سبحانه وتعالى فى كريم آيات جوهر الزواج وعلائق الأزواج ، فإذا بها مودة ورحمة ، وإذا بها طمأنينة وسكينة ، وإذا بها ارتقاء بالحياة وسعادة للأحياء من عباده ، فتقول الآية الكريمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

صدق الله العظيم

ثم إننا نرى القرآن الكريم يفصل ولا ينكر على البشر طبائعهم ولا يطالب الناس بما لا طاقة لهم به ولا صبر لهم عليه . فأحل الزواج مودة ورحمة وأباح التحلل منه لمن لم يستطع عليه صبراً إلا أنه جعل الطلاق مشروطاً بواجبات وحقوق ، ثم إن الطلاق قد ارتبط عند الله ببغضه له . وإنكاره لوقوعه وأمر برده . حينما طالب المؤمنين من عباده بأن ينكصوا عنه .

فيقول الكريم الوهـــاب :

« والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قـــروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن مـــا خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر . وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجـــة والله عزيز حكيم » .

صدق الله العظيم

ثم هو يضفى على الزواج قداسته حينما يشترط لفصم روابطه فاحشة مبينة . ثم هو الذى لا يبرر نهاية بهوى النفس كراهية أو نفوراً فتقول كريم آياته :

(يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى ألا أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

صدق الله العظيم

ذلك أيها الإخوة المؤمنون المسلمون قليل من كثير حول الزواج وأحكامه فى كتاب الله وسنة رسوله . وهو دليل شمول فى ديننا الحنيف ، والذى أمرنا أن نعتصم بالزواج فى الدنيا مخافة الزلل فالعقاب فى الآخرة ، وحيث إرادة الله لنا مودة ورحمة . وحيث يسره للمؤمنين المسلمين يسراً بغير عسر ، جوهراً وليس مظهراً ، تكليفاً بغير تكلف طيب ، رفقة وتسانداً فى درب الحياة على هدى الإيمان وشريعة الإسلام ، حيث لا يطالب المسلم بما لا طاقة له به ، ولا يطالب المسلم ما لا صبر له عليه ، وذلك إذا تجاوز قدرته فيما يطمع إليه .

فما كلف الله نفساً إلا وسعها ، وما كان درب الحلال إلا درب الميسرة ، فلندعو العلى القدير أن ييسر أمورنا ما دمنا لا نعسرها على أنفسنا وما كان الكثير إلا قليلا فى بدايته وما كانت الثمرة إلا بذرة ، وما كانت الشجرة إلا غرسة ، بارك الله فيها وبارك حولهـــا .

فليكن أيها الإخوة مهرجان الزواج فى ذكرى الإسراء والمعراج عودة إلى كريم ما سنه السلف الصالح . والذين ملأ الإيمان قلوبهم وأضاء الإسلام بصائرهم فاهتدوا بنوره والتزموا بشريعته .

فليكن الزواج فى ذكرى الإسراء والمعراج يسراً لا عسراً ، وليكن مهرجان الزواج مرتبطاً بطهر المناسبة وبركة صاحبها صلوات الله وسلامه عليه والتى كانت رسالته معجزة الإعجاز ، شاملة لما قبلها مستوعبة لما بعدها من شئون الدنيا والآخرة ، مسترشدة بدستورها القرآن الكريم والذى ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها والذى قال فيه العالم الجليل الشيخ محمـــد أبو زهرة رحمه الله فى سفره « المعجزة الكبرى القـــرآن » ما يلى :

« تلك المعجزة الخالدة هى القرآن ، الذى يتحدى الأجيـال كلها أن يأتوا بمثله ولو اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، كما ذكر الله سبحانه وتعالى فى محكم التنزيل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو حجة الله على النبى فى رسالته ، وسجل الشريعة المحكم فى بيانه ، وهو المرجع عند الاختلاف والحكم العدل عند الافتراق ، وهو الطريق المستقيم المرشد عند الإعوجاج من سلكه وصل ، ومن لجأ إليه اهتدى .

روى الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه فى الجنة أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ، قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم والصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا :

إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد ، من علم علمه سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ، ومن التجأ إليه هدى إلى صراط مستقيم .

وإن القرآن الكريم لهو المعين الذى لا ينضب ، والثروة الإسلامية التى لا تنفد ، فيه حكم الأمور كلها ، ما وقع وما لم يقع ، وإن كل ما فيه حق وأنه مصلحة الدنيا والآخرة ، ما من خير إلا له فى القرآن أصل معتمد ونص يمكن الحمل عليه ، فما ترك الله الإنسان سدى ، وقد قال تعالى وقوله الحق « وما فرطنا فى الكتاب من شئ » وفيه غير ماضينا وأخبار كل النبيين ، فهو كتاب الله الكامـل ، فيـه معانى كـل الكتب المنزلة على الرسل وفيه أخبار أولئك الرسل مع أقوامهم وفيه الأمثال المرشدة والعظات الموجهة وفيه أعلى الآداب الإنسانية وأقوم السلوك الكامل لخلق كأجمعين . وفيه تعليم الإنسان الاتجاه إلى الكون وتعرف ما فيه والأخذ بالعلم من قوادمه وخوافيه . وفيه الدعوة إلى العلم بكل ضروبه ، علم الإنسان وعلم النفس وعلم الكون وإلى العلم بالنجـوم فى مسالكها والسموات فى أفلاكها والأرض فى طبقاتها ، فيه الدعوة إلى العلم بما لا يعلم وطلبه فى كل مداراته .

خاطب الله تعالى به أولياءه فعرفوه ، وأصحاب العقول المستقيمة فأدركوه ، وكان حقاً كمـا قال تعالى « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمر جميعاً » ذلك هو كتاب الله تعالى بما حمل من معان وتكليف وما كساه الله تعالى به من روعة وتشريف ، وهو كما وصفه الله تعالى بقوله الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلـودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » .

صدق الله العظيم

الإخــوة المؤمنين المسلمين . . .

فى رحاب هذه الذكرى الطاهرة العطرة لا يسعنا إلا أن نحمد الله ونسبح باسمه ونشكره شكراً كثيراً .

فقد صدق وعده وحقت كلمته وتعالت حكمته وأكملت هدايته لعباده المؤمنين الصالحين والذين قال فيهم سبحانه وتعالى :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلـوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » .

صدق الله العظيم

الحمد لله الذى أعاننا على أنفسنا وطهر قلوبنا وأضاء بصيرتنا ، وهدانا إلى صراط مستقيم وإلى درب قويم لا مكان فيه لآثار جراحـات سبقت ، ولا خلافات كانت ولا محن كقطع الليل تكاثفت وادلهمت ، فكان فجرنا بعد الليل الغابر فجر صفاء ونقاء ودعوة محبة ووئام أيادى ممدودة وقلوباً مفتوحة ونفوساً راضية مستبشرة .

اللهم إن الشكر لك ، والحمد لك ، والتسبيح باسمك ، والفضل فضلك والأمر أمرك فما ألهمتنا إلا صواباً ، وما اخترت لنا إلا ما اخترت لعبادك الصالحين .

والذين وعدتهم سلاماً فى الدنيا ومثوبة فى الآخرة ، جزاء الصابرين الشاكرين ، الحمد لله الذى وحد كلمتنا وألف بين قلوبنا ، وجمع صفوفنا ، فأصبحنا بفضله كالبنيان المرصوص يشد بعضنا بعضاً .

اللهم إنى أسألك ثبات القلب ، وقوة الإيمان ما دمت على طريق دينك وسنة رسولك صلوات الله عليه .

لقد قلت قولى هذا أيها الإخوة المؤمنون المسلمون لأن ذكرى الإسراء والمعراج فى عامنا هذا إنما وافقت ذكرى يوم مضى منذ عامين حيث كانت القلوب مختلفة والنفوس متنافرة والامتحان عسير .

فالحمد لله والشكر لله الذى أحال عسرنا يسراً واختلافنا مودة ، وتنافرنا محبـة ، وتفرقنا وحـدة بعد شتات والحمد لله من قبل ومن بعد .

بسم الله الرحمن الرحيم

« سبح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجـع الأمور ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور » .

صدق الله العظيم

ولعله من حسن الطالع ، أن يأتى هذا فى رحاب احتفال الأمة الإسلامية بحلول السنة الهجرية الجديدة ، وهى سنة لهـا أهميتها وخطورتها فهى آخر القرن الرابع عشر الهجرى ، ومطلع القرن الخامس عشر لانتصار الدعوة الإسلامية وانتصار الدين الإسلامى الحنيف .

وهى مناسبة أولى بالأمة الإسلامية أن تتأمل مغزاها وتعى دلالتها لتحدد مسار مستقبلها على هداها ، فما صمد الدين الحنيف أمام الزمن بل وأمام المحن ، إلا اعتماداً على أصيل دعوته ، وكريم جوهره فهو الحق الذى تراجع

أمامه كل باطل ، وهو النور الذى خبا أمام ضيائه وهج محاولات هدمه بل محاولات اقتلاعه .

وهكذا تمكن الإسلام بقلة مؤمنة ، أن يفرض وجـوده رغم الكثرة الباغية فى فجر الدعوة .

هكذا تمكن الإسلام أن ينشر لواءه ، رغم الفتن والمحن فى صدر الدعوة .

هكذا تمكن الإسلام أن يثبت جذوره ، رغم نفاق المنافقين وهوى المغرضين يوم الردة .

بل وهكذا تمكن الإسلام أن يتجاوز مهبط الوحى وأرض الرسالة ، ليكون للعالمين نوراً ، وللمؤمنين نهجاً ، وللمسلمين عادياً لدنياهم وآخرتهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وذلك رغم سطوة أعدائه والذين ظنوا أنهم ملكوا الأرض وما عليها .

وإذا كان إعجاز الإسلام قرآنه وسنة رسوله فإن صمود الإسلام أمام الزمن وأمام المحن ، إنما يرجع إلى أنه دين حق وحيث جوهر الحق فيه هو يقين دعوته بيقين دعائه ، فلقـد توحد المسلمون به وتفرقوا دونه ، وانتصروا به يوم انتصروا له ، وضاقت بهم الأرض وعايشوا شتات الفرقة يوم تخلوا ظالمين لأنفسهم عن لوائه .

وعاشوا المجـد قـوة وعـزة ، منعـة وحضـارة ، تقـدماً ورفاهية ، يـوم كانت كلمة الإسلام هى العليـا فى شئون آخرتهم ودنياهم .

ثم استضعفوا يوم ضعف إيمانهم بما أنزل عليهم فما أعانتهم كثرتهم بعد أن غابت من وجدانهم قوة الإيمـان فما كان الإسلام طقوساً تؤدى ، ولا شهادة يتلوها اللسان دون أن يشاركه القلب والوجـدان ، وما كان الإسلام نصيفاً لفئة ولا تجمعاً لعشيرة ، وإنما هو إيمان فى القلب وقناعة فى العقل وترشيد للسلوك .

وما كان الإسلام ديناً للآخرة دون الدنيا بل هو دين للدنيا تهيئة للآخرة ، حيث العمل فى الأولى هو معيـار المحاسبة فى الآخرة ، وحيث مثقال ذرة من خير وهو فعل وعمل ، أو مثقال ذرة من شر وهو فعل وعمل ، إنما هو بمعيـار الإسلام تحديداً قاطعاً للصالحين والطالحين فى دنياهم وآخرتهم ، ليس فى الدنيا وحـدها حيث للمخلوق مكانته ، وإنما فى الآخرة أيضاً حيث للمخلوق مكانة فى النعيم أو فى الجحيم بما عمل وبما كسب .

ذلك هو الإسلام دين للآخرة والأولى ، حيث لا صلاح للناس فى آخرتهم إلا بما أسهموا فى صلاح دنياهم ، وهو صلاح اقترن فيه البر بالتقوى ، حيث البر من الناس تكافل وتعـاون ، مودة ورحمة ، وحيث التقوى هى خشية الله فى عباده ، لا تمسهم ضر من فوق ، وإنما ينالهم منه عونـاً على أمورهم وإقالـة لعثراتهم ، ومساندة لضعيفهم ، ورشـداً للضـال منهم ، وعونـاً للسائل والمحروم فيهم .

ذلك أيها الإخوة هو الإسلام ، بل وذلك هو حال المسلمين ، يوم كان الإسلام نوراً فى قلوبهم ، وهدياً لعقولهم ورشاداً لمسلكهم ، فما ملكوا أمر الناس بالباطل ، ولا تولوا أمر الناس إلا بما يرضى الله ورسوله ، حيث كان سبيلهم القدوة الحسنة والموعظة الحسنة ، وحيث توحدت كلمتهم على الحق وللحق ، يوم استرشدوا بآيات ربهم وسنة رسولهم فكانوا من الفالحين .

إن على الأمة الإسلامية ، وهى على مشارف القرن الخامس عشر من الهجرة ، أن تتدبر أمورها ، وتتدارس أحوالهـا ، وتقارن ماضيها بحاضرها حتى تخوض معركة وجودها ، وقد عزها الإسلام كما أعز سالف أجيالها .

ذلك هو زادها بل ذلك هو عتادها ، وهى تخوض معركة وجـودها فى وجه غزو فكرى غلاب ، ذلك أنها فعلت ، فذلك هو درب استعادة مجدها القديم ، وإن ضلت فتلك بادرة فنائها ، حيث لا فعالية للفكر إلا بالفكر ، ولا فعالية لنهج فى الحياة إلى منهج يغايره ويخالف ويستند على نقيضه .

ذلك أن الإسلام وهو يطل بنوره على مشارف القرن الخامس عشر من الهجرة ، إنما يتعرض لهجمة جديدة وخطيرة ، ذلك أنها لا تواجهه بحيث يصمد ، وإنما تحاول أن تستوعبه عن طريق طرح نفسها فى إطاره ، وهى بهـذا تستهدف وجـوده وتراثه وجوهره ومحتواه جميعاً .

تلك هى أساسياته ، وهى لا تتناقض مع جوهر العقيدة الإسلامية فحسب ، وإنما هى تعاديها وهى لا تختلف عنها ، وإنما تستهدف أركانها وجذورها وجوهرها ومحتواها .

ذلك أن العقيدة الإسلامية تقوم على التسليم لوجـود قوة أوجدت كل الكائنات ما هو فان فيها ، وما هو حى فيها ، ذلك أن الكون مخلوق بقدرة خالقه ، وذلك أن الكل متصل بالجزء فى تكامل يستعصى فهمه على قلب جاحد وبصر قاصر وحس محدود وإيمان منقوص ومعـدم فما كان الكون وليد صدفة ولا يمكن أن يكون ، ذلك أن الصدفة لا تبدع النظام ، وانتظام الكون يذهل الألباب وتحار فيه العقول ، ولا مجال لإدراك كنهه إلا لمن اكتمل إيمانه .

كذلك فإن العقيدة الإسلامية تقوم على التسليم بأن زاد الآخرة إنما هو نتاج لعمل الدنيا ، فالحياة الدنيا بالنسبة للإنسان ليست بداية ونهاية وإنما هى معبرة لحياة خـالدة تتحدد نعيما أو جحيما بما قـدم الإنسان فى دنياه من عمل ابتغى به وجـه ربه أو استحق من خلاله غضبه ومقته .

والعقيدة الإسلامية أيها الإخوة تقوم على أساس التسليم بأن قـدرة الخالق على الخلق الشامل للكون بكل ما فيه ، إنما هى الموجـه لحياة عباده أفراداً وجماعات ، أمما وشعوباً ، فإن أحسنت أحسن لهـا ، وإن أساءت فعليها وزر سوءاتها .

والعقيدة الإسلامية لا تفسر حركة التاريخ فى آلية تتعالى على إرادة الإنسان وقـدرته على تحديد مصيره ، فالإنسان هو صانع تاريخه ومحدد مصيره إن خيراً أو شراً ، حيث له ثواب فى الدنيا والآخرة إذا ما أحسن وله عثرات فى الدنيا وعقاب فى الآخرة إذا أساء .

وإذا كان الفكر الإلحادى المـادى يدعى تكاملا أو تقارباً مع الإسلام باعتباره داعياً للعدل الاجتماعى ، فإن ذلك مردود عليه ، لأن العدل فى

شريعة الإسلام لا يفرض بالقهر ولا يتجسد بالإلزام وإنما يتحقق بالالتزام النابع من الإيمان بالعقيدة الإسلامية كاملة ومتكاملة ، حيث فصل الإسلام حقوق المسلم وواجباته سواء نحو نفسه وذوى القربى أو حتى اليتامى وأبناء السبيل .

ثم حـدد التزامات نحو مجتمعه ليس من ماله فحسب وإنما من دمه كذلك ، فالجهاد فى إطار الشريعة الإسلامية إنما هو برهان إيمان ودليل تقوى .

ثم إن العدل فى شريعـة الإسلام ليس فقه حاكم ولا اجتهاد فرد ولا إبداع فكر ، وإنما هى شريعـة الخالق يلتزم بها المخلوق ، حيث فرض القرآن الكريم الزكاة وحث على عون للسائل والمحروم وجعل من المال عبئاً على مالكه فى الدنيا والآخرة ما لم ينفقه فى سبيل الله فيضاً على عباده .

كذلك فإن العدل الاجتماعى فى الشريعة الإسلامية ليس هبة من يملك لمن يستحق ، وإنما هو فرض على من يملك لكل من يستحق .

ثم إن العدل الاجتماعى فى العقيـدة الإسلامية لا يمكن أن يكون مجرد توزيع لثروة وإنما هو استثمار لهـا ، وما أكثر الآيات البينات التى تحث على ذلك باعتباره ليس مجرد مظهر إيمان وإنما هو دليل إيمـان كذلك .

كذلك فإن العدل الاجتماعى كما طرحته العقيدة الإسلامية لا يقف عند حـدود إعادة تقسيم الثروة بحُسبانها مالا سائلا أو ثابتاً أو منقولا ، وإنما وهى تحث على العدل الاجتماعى وقد حرصت على الإنسان ومسلكه وعلى قيمه وخلقه ، باعتبار ذلك كله صيانة لأمن الفرد وأمن الجماعة وحفاظاً على ثروة الفرد وثروة الجماعة .

فنهت عن الخمر باعتبارها تبديداً لقدرته ، ونهت عن الميسر باعتباره تبديداً لثروته ، ونهت عن الربا باعتباره استغلالا لغيره ، ونهت عن الفاحشة باعتبارها خطراً على مجتمعه ، ونهت على النميمة باعتبارها تدميراً لعلاقته بغيره ، وقننت علاقته بذوى القربى ، فطالبته بالوالدين إحساناً ، وهما فى حالة الصحة والمرض ، فى حالة الصبا والكهولة ، وتعالت فى سموها بحيث لم تبح عصيان الوالدين إلا فى حالة الشرك دون سواها ، وبغير أن تترك فى صدره إلا الرأفة بهما وطلب الرحمة لهما من الرحمن الرحيم .

وكما حددت العقيدة الإسلامية للولد واجباته نحو والديه ، فلقـد قننت علاقات الأزواج فى حالات القبول والنفور ، وجعلت من الطلاق حلالا يبغضه رب العباد ، واشترطت لتعدد الزوجات عدلا يكاد يستحيل وجوده ، وأبانت للوارث ميراثه فى تفصيل محكم يتحدد فيه نصيبه بما يكفل العدل ويحجب الظلم .

وطرحت المحظورات مقرونة بالنهى عنها بغير إغفال لضرورة المضطر ، يواجه بها عسراً لا قبل له باحتماله ، ويسرت على الإنسان فى دينه وتسامحت بحيث اقترنت المعصية بالتوبة ، وفتحت باب الصفح والغفران لمن يهتدى بعد ضلال .

ثم أمرت بالشورى بين الناس وفرضت إطاعـة ولى الأمر ما دام ملتزماً بتعاليم ربه وسنة رسوله ، وذلك كله قليل من كثير لجوهر العقيدة الإسلامية والتى لا يمكن أن يدانيها أو يوازيها بل ويستحيل مقارنتها بفكر يقوم فى أساسياته على إنكار كل عقيـدة .

بل إنه يعلن ولا ينكر أنه ضد كل عقيدة .

تلك بديهيات قادنى لحديث عنها أيها الإخوة ما يردده البعض قصداً وليس جهلا ، حقداً وليس سذاجة بأن هناك نقاط التقاء بين الفكر المادى الإلحادى وبين الإسلام كنهج لحكم ونظام لحياة . وهى دعوة لهـا مخاطرها بل ولهـا أهدافها باعتبارها محاولة جـديدة من محاولات هدم الإسلام واقتلاع جذوره بالإضافة إلى أنها محاولة لصرف المسلمين عن التصدى لرياح الفكر المـادى الملحد ، بواعز من عقيدتهم وعمق إيمانهم والتزامهم دينهم وسنة رسولهم صلوات الله وسلامه عليه .

إن على الأمة الإسلامية ، وهى على مشارف القرن الخامس عشر أن تعمل على بعث النهضة الإسلامية من جـديد ، لا لتستظل براية الإسلام لاستعادة مجدها فحسب ، وإنما عليها وقبل هذا كله ، أن تتفهم جوهر دينها مستلهمة تعاليمه ، مسترشدة بآيات كتابه ، ونهج رسوله ، ذلك هو الطريق المتاح لأمتنا الإسلامية لتستعيد أمجادها ، وتخلع رداء تخلفها وتواكب العصر بل وتسبق كل عصر .

فما كان الإسلام دين جمود ، وإنما هو دين وجـود ، استوعب متغيرات كل زمان وكل مكان ، فهو هدى للعالمين ، وهداية للمؤمنين ، وكانت « إقرأ » أولى كلمات آيات كتابه ، وكان الحث على التأمل والفكر والتفكر والتدبر فى خلق السموات والأرض وفى أنفسنا دعوة متصلة للبحث والدرس والكشف والتطـوير والتحديث لمختلف جوانب الحيـاة ، حيث ضرب الأمثـال وساق العبر وأبرز الإعجـاز وسبق الجـديد وكل جـديد بما أشار أو حتى ألمح وأوضح ، دون أن يضع حـدوداً لآفـاق المعرفـة ، ودون أن يضع قيـوداً أمام الاجتهاد فى العلم .

وما زالت البشرية فى رحـاب الكتاب الكريم تحبو جـاهدة مجهدة وهى تقارن تواضع ما تكشف أمام الشمول المعجز لآياته والتفصيل المذهل لكل صغيرة وكبيرة أوردها تصريحاً ورمزاً وضوحاً ومثلا .

وما زال العقل البشرى رغم ما يدعيه من تقدم وتطور ورغم ما يحرزه من انتصارات ، يفاجـأ دائماً وأبداً بأنه ما أضاف جـديداً ، ولا كشف فريداً وإنما استطاع فحسب أن يدرك معنى جـديداً فى آية من آيـات كتاب الله الكريم .

إن على الأمة الإسلامية وهى على مشارف القرن الخامس عشر الهجرى ، أن تستلهم دينها ، وتجـدد نظرتها ، وتراجـع أسلوب تأملها لتراثها الخالد الباقى ، ففيه ما ينفع الناس كل الناس ، إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

بسم الله الرحمن الرحيم

« شهر رمضان الذى أنزل فيـه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقـان » .

صدق الله العظيم

« اللهم احفظنى بالإسلام قائماً . واحفظنى بالإسلام قاعداً . واحفظنى بالإسلام راقداً . ولا تطمع فى عدواً ولا حاسداً » .

الإخوة أعضاء اللجنة الموقرة لإعادة النظر فى القوانين :

إنها لدلالة خير وبركة . أن تبدأ لجنتكم الموقرة أعمالهـا فى رحـاب الشهر المعظم . شهر رمضان المبـارك . وهو شهر ارتبط بالإسلام كدين وحضارة . وارتبط به المسلمون تقيم ومنهج وسلوك .

ارتبط بالإسلام كدين وحضارة . ذلك أن الإسلام بشموله إنما اجتمع فيه تنظيم علاقـات المخلوق بخالقه . ثم علاقات المخلوق بنفسه . بالإضافة إلى علاقـات المخلوق ببيئته المادية والبشرية .

فكان الإسلام بذلك كله منهجاً حضارياً شـاملا . تعـدى فى المكان مهبط الوحـى فكان هـدى للعالمين . وتعـدى فى الزمـان ميقات الرسالة . فاستوعب متغيرات كل العصور . ليبقى شامخاً صالحاً فى كل زمان . متميزاً برحـابة وسماحة . ليتعايش فى ظلها أهل الكتاب . يتفتح بالمغفرة لخاطئين . يتسع بالصفح للتائبين . تدرجت أحكامه أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر فى كريم كتابه . والـذى تعـالى إعجـازه عن إعجاز البيـان . إلى إعجاز البنيان . حين قـدم الموعظة لتسبق الحدود . ثم حين وضع لحدود حـدوداً لا تنفصم عن الطارىء والعابر والأصيل من متغيرات الظروف . فأباح للمضطر ما حرمه على من ملك أمر نفسه لينتقى ويختار . وأباح للمريض والعاجز ألا يأخـذ لنفسه بما لا طاقة له به . حتى يستعيد قدرته ويسترد قواه . واشترط للحج وهو ركن وفريضة توافر المقـدرة ويسر السبيل . ذلك هو الإسلام ونهجه الحضارى المعجز . الذى استطاع بما لا يقاس من تواصل السنين أن يصارع حضارات القهر فيصرعها . وينتصر بانتصار الناس له فى شتى الأقطار والأمصار . وأن يعلو لواؤه ، وترتفع راياته ارتكازاً على عمق جذوره فى العقـول والوجـدان ، وأن ينتصر وينتشر تحت رايـات قناعة مبادئه وقيمه ، وأن يزدهر ويسود فى إطار ما أثرى به العقول والوجدان .

ذلك أنه لم يكن دين نصوص وطقوس وإنما هو دين حيـاةمتصلة ، للآخرة والأولى . حيث اقترن الإيمـان بالعمل . وحيث اقترن العمـل بالعلم ، وحيث كانت أولى آيـات دستوره « إقرأ » وحيث كانت دعوته للمؤمنين أن يتفكروا فى خلق السموات والأرض وفى أنفسهم .

وهكذا تكامل المنهج الحضارى الإسلامى بما نص عليه الكتـاب وما أقرته السنة ، وهكـذا أثرى المنهج الحضارى الإسلامى نهضة تلمس آثارها الأوائل ، يـوم تراجعت ظلمات الجاهليـة أمام زحف النور الجديـد ، ويوم تحطمت مع أصنام الحجر أوثان الفكر الجامد ، ومناهج التفكير العقيم ، يوم عايشت البشرية ثورة التشريع الإسلامى والفقه الإسلامى وعلوم التوحيـد والفلك والطب والكيمياء ، يوم ازدهرت فى ظل الإسلام حركة نشطة لترجمة التراث الإنسانى الغابر المجهـول ، يوم تحررت مناهج الفكر من الركون الكسول لأساطير الأولين باعتبارها تسجيلا وتفسيراً لحركة الحيـاة والأحياء ، يوم استثمر الإسلام جهد المسلمين له ، واللائذين به ، والمتعايشين فى رحابه ، فى إطار عدالة تأخذ ممن يملك لتعطى من يستحق ، بغير إهدار لشرف العمل ، وبغير إنكار لحق الطموح المشروع . يوم اقتحم المسلمون بالإيمان والعلم ، بالجهـد والعمل ، بحـار الظلمات وصحراوات التيه ، واتصلوا وتواصلوا بالإيمان فى كل مكان ، حملة لرسالة لا تفرض وإنما تقنع ، لا تتعصب وإنما تهدى ، تغرى بنموذج تعايشه ، استناداً إلى نصوص لا تقبل الاجتهاد والتأويـل .

ذلك هو نهج الإسلام يوم انتصر وانتشر . وإذا كنا اليوم طموحين للتمسك بأهـدابه والاحتكام إلى شريعته والعودة إلى حظيرته ، فإننا لا نملك إلا نهج الأولين فيما أخـذوا الناس به ، تدرجـاً بغير تعجل ، تمهلا بغير اندفاع ، اعتماداً على القدوة الحسنة والموعظة الحسنة ، استثماراً بما هو متاح حتى لايستباح لقلة من الطامعين نسبة لندرته ، أو حقـد المتطلعين إليه لقلته ، وذلك قبل أن نقيم الحـدود ونحتكم إلى النصوص بغير تبصر لجوهرها وحكمها .

الإخوة أعضاء اللجنة الموقرة لإعادة النظر فى القوانين :

لقد نص دستور السودان الدائم على أن الشريعة الإسلامية هى مصدر أساسى للتشريع ، ولقد كان هذا النص يستند إلى طموح تطلعنا عبره إلى وضع ركائز مجتمـع يسترشد بالإسلام ونهجه ، يتمسك بالإسلام وقيمه ، ينتصر للإسلام ودعوته ، تنتظم علاقات أفراده تماسكاً وتعـاوناً ومحبـة ، فى إطار ما أمر به ونص عليه دين الله الحنيف . يستوعب متغيرات عصره ، دون أن يفقد زمام أمره ، انجرافاً أو انبهاراً يلهيه عن أصوله أو يقتلعه من جـذوره ، حيث نـور الإسلام كامن فى العقل والوجـدان . ولقد حاولنا اجتهاداً أن نحذو حذو السلف العظيم ، فبدأنا بالحاكمين قبل أن نبدأ بالمحكومين ، حيث القـدوة قدرة على طلب الامتناع عن المنكر لا يطاولهـا جـدال ، حيث النموذج فى القمم ، نور وهداية ، لا شفاعة لمن تقصر بصيرته عن إدراكها ، ولا عذر لمن تعامى عن وهجها المضىء .

وإذا كنا فى القمم قد حاولنا ، بالقـدوة والنموذج والمثال ، فإننا دونها حاولنا وما زلنا نحـاول ، المساجد تعـددت مواقعها ، وتنوعت رسالتها لتكون تبصيراً لشئون الدنيا والآخرة .

كما أننا حاولنا ونحاول أن تظل نار القرآن زاداً للقلوب والعقول ، ونشطنا فى إحيـاء وتطوير مراكز تحفيظ القرآن ، وقـدمنا ما يشجع الناشئة على حفظه ، ثم إننا حاولنا ونحاول أن نكسر الحاجز الموهـوم بين علوم الدين وعلـوم الدنيـا ، وإذا كانت البداية ناجحـة ومشرقة فى جامعة أم درمان الإسلامية ، فإنها ستظل بداية ، إلى أن نعممها فى جميع مراحل التعليم على اختلاف مستوياته ومجالاته . ثم وإننا بالاجتهاد نحاول أن نطهر المجتمع من سلبيات نمت جـذورها فى ظل جاهليـة فرضها الإستعمار وأعوانه ، يوم أن فطن إلى أن أخلاقيـات المسلم إنما هى أمضى سلاح لمقاومة الأجنبى والمستغل على حد سواء ، وعلى هذا الدرب تقدمت خطانا ، تعثرت ، إلا أننا لم نتوقف ، تمهلنا إلا أننا لم نتراجع ، ثم أننا بالاجتهاد نحـاول أن نقرن الخطأ بالخطر ، ثم أن نقرن الخطر بالخروج على أوامر الدين ونواهيه ، وهكـذا فلقـد جرى تقنين معيار فارق لمعيـار المحاسبة لمن يهدد أمن الفرد والجماعة .

بحيث يكون مضاعفاً لمن فقد وعيه بتأثير كل ما هو مسكر ، حيث يصبح خطوه خطيئة ، بل ويصبح احتمال ممارسته لخطأ ، مدعاة للحساب والعقاب .

ولقد كنا بهذا كله نمهد لمناخ قادر على استيعاب مضاعفات التغيير . بحيث لا يفاجىء فيصدم ، وبحيث لا يباغت فيجرى تقبله بغير رضا أو بغير اقتناع .

ولعلنى بعد هذا كله أيها الإخوة أوجز بغير إطالة ، وأنا أطرح عليكم مستأذناً ، تصوراً لم أقصد أن يكون قيداً على شرف مسئوليتكم ، وإنما أقصد به أن يكون إسهاماً أدرك تواضع حجمه ، مقارناً بعلمكم الواسع الغزير ، وأنتم بصدد إعادة النظر فى القوانين ، وأعدده أمامكم على النحو التالى :

أولا : إننى أعتقد وأؤكد أن المعنى الحقيقى لوظيفة القانون ، إنما يجب أن تتعالى على مجرد الردع والمحاسبة لتمارس دورها فى تنظيم العلاقات بين أفراد مجتمع موحد ، بما يؤكد وحدة هذا المجتمع وتماسكه ، وبما يحول بين تشتته وانقسامه .

قال الله تعالى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ولاتدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسب أمرىء من الشر أن أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

ثانياً : إن هناك فارق ينبغى أن لا يغيب ولا يهمل بين ما هو مقصود بثبات النص بما يوحى بجهوده ، أو مرونة النص بما يؤدى إلى تسيبه ، ذلك أن القانون معيار ثابت ، إلا أنه ثبات لابد أن تتوافر له قدرة استيعاب المتغيرات المتطورة ، بحيث يتخلف عن مواكبتها ، أو يتراجع أمام تقدمها .

ثالثاً : إن قابلية الشريعة الإسلامية للتطبيق لكل زمان ومكان ، لا يمكن أن تكون قاصرة على ما نصت عليه بالنسبة للأحوال الشخصية .

كما أن إمكانات تطبيقها لا ينبغى أن تتوقف عند إقامة الحدود .

ذلك كله جزء لا يجب أن يحجب الكل . بل إن هذا كله ينبغى تناوله ، فى الإطار الشامل للشريعة الإسلامية السمحة .

رابعاً : إن قبول الإسلام لمبدأ الاجتهاد ، إنما كان ولسوف يبقى تحسباً لمتغيرات منظورة وغير منظورة ومن هنا كان التدرج فى المنع فى صدر الدعوة ، ثم كان التمهل فى النهى فى بداية الرسالة ، ثم كانت أحكام الإضطرار التى تبيح ما لا يستباح لمن لا يقع فى محاذيره ، وتلك كلها سماحة تنفى عن الإسلام إدعاءات التزمت والتعصب والجمود .

ودليلنا على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع معاذ بن جبل عندما أرسله إلى اليمن قال له : « بم تقضى يا معاذ ؟ قال بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال ، أجتهد برأيى ، فأقره الرسول على ذلك .

خامساً : إن هناك فارق زمنى يقاس بمئات السنين ، بين الشريعة الإسلامية فى مراحل ازدهار تطبيقها ، وبين مجتمعات عايشت الإيمان دون أن تعايش الإسلام ، تطبيقاً لمبادئه وممارسة لأحكامه ، وهو تراكم زمنى يتطلب تجاوز إثارة ، وعياً بمخاطر التسرع ، وإدراكاً للعلاقة العضوية بين الهدف ووسائل الوصول إليه .

سادساً : إن تراكم الزمن لم يكن سنين تواصلت بالجهالة على أجيال المسلمين اغتراباً عن جوهر دينهم الحنيف وحسب ، وإنما واكبها اغتراب عن الإسلام من خلال فكر فرض عليها ، وممارسات تقبلتها بالقهر والإذعان .

وهذا فإنه لمطلوب ألا يغيب عن أى حساب صدمة الطفرة المفاجئة بما قد تفرزه من نفور موقوت . ذلك أن هدفنا الأسمى أن يكون الناس عوناً للقانون وليس رهبة من سطوته ، وذلك تجنباً لاحتمالات التعميم من النص إلى الأصل . بما لا نقبله ولا نرضاه . كما أن ذلك بسوء الفهم قد يكون مدخلا لأعداء الإسلام والمسلمين .

سابعاً : إن القانون فى وظيفته العليا إنما ينبغى أن يكون تعبيراً عن واقع اجتماعى وحضارى معاش . بالإضافة إلى تطلعه تدرجاً إلى واقع يتعالى عليه بحكم ظروفه . ولهذا فإنه يكون المقصود بمرونة القانون ما يتناسب وهذا المعنى . كما قد يكون المنشود منه هو الوصول إلى تلك الغاية .

ثامناً : إن السودان هو بكل المقاييس كيان قارى ، حيث هو امتداد وتنوع فى المكان والسكان . بالإضافة إلى الاختلافات فى مجالات ومستويات المناشط الاقتصادية فيه . بكل ما تفرزه من تباين اجتماعى . ونسيج نفسى . وواقع حضارى ، ولما كان القانون أداة توحيد يتحقق عبرها التجانس ، فإننا باستلهام شريعة الإسلام كمصدر لكل قانون ينبغى أن نستلهم من الإسلام روحه . ومن واقع السودان المميز حقيقته ، بحيث تحقق فى النهاية وحدة إطارها الإسلام إيماناً وسلوكاً .

« المؤمنون تتكافأ دماؤهم . وهم يد على من سواهم ، ويجير عليهم أدناهم وهم كأسنان المشط لا فضل لعربى على أعجمى . ولا لأبيض على أسود . ولا لأحمر على أصفر إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب » .

تاسعاً : إن سماحة الشريعة الإسلامية إنما استمدت وجودها الفعال عبر عشرات القرون من جوهر الإسلام . حيث أباحت التعايش رغم اختلاف العقائد . بل طالبت بالتعاون والتفاعل مع أهل الكتاب .

[illegible]

ولا أظننى فى حاجة لأن أقول ، إن ذلك كله مطلوب منكم لأن كل الأمل أن يكون مجسداً فيكم .

« ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فعليها » .

بمناسبة افتتاح مسجد :

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين الذى أنزل بالهدى ودين الحق هادياً ومبشراً ونذيراً .

الحمد لله الذى أعزنا بدينه وكرمنا بنهج رسوله وهدانا إلى الإسلام صلاحاً لدنيانا وآخرتنا .

الحمد لله الذى أعاننا على أمر أنفسنا فما كنا لها بظالمين لا نشرك به أحداً . مسلمين بإرادته مؤمنين ببالغ حكمته طامعين فى غفرانه ورحمته ، راضين بحكمه فما كان حكمه إلا عدلا وما كان قضاؤه فينا يسراً أو عسراً إلا بما كنا قرباً منه طاعة وامتثالا ، أو بعداً عنه غواية وضلالا .

الحمد لله الذى كرمنا بكريم آياته ، وعزيز كتابه ، فما كنا لنضل إلا بالبعد عنه ، وما كنا لنهتدى إلا بالالتزام به وما كنا فى رحابه إلا مستبصرين بالآخرة والأولى ، فما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فأعان الناس على أمر أنفسهم ، حيث صلاتهم نهى عن الفحشاء والمنكر ، وحيث الأمر بالمعروف والبر كالتقوى . وحيث للسائل والمحروم حق معلوم لأمته وحيث للناس فى الناس قــول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى .

الحمد لله الذى جعل للناس مدخلا لنعيم الآخرة ، ما كان للناس منهم إلا مودة ورحمة وما كان للناس فيهم إلا امتثالا وقــدوة ، وما كان للناس فيهم إلا صلاحاً وتقوى .

يصلون الأرحام ، يؤتون الزكاة ، يحرمون النفس التى حرم الله قتلها ، لا يقربون الفاحشة ، ينتهون عن الميسر والخمر وما أهل به لغير الله ، يبتغون العدل ، وينأون عن الظلم وهم بالوالدين إحساناً ، يتعاونون على الإحسان والبر ، يسكنون إلى أزواجهن معروفاً أو يفارقوهن معروفاً ، يجادلون بالتى هى أحسن يوفون الكيل ولا يطففون الميزان ولا يقتلون أولادهم خشية إملاق .

الحمد لله الذى جعل من الصلة به صلة للناس فما كانت فرائضه إلا رحمة بالعالمين ، وما كانت أركان دينه إلا منافع لهم ، ثم ما كان فيما أقره عسراً ، وما كان فيما أمر به إلا ميسراً وحليما .

فما كان الصيام أيها المسلمون إلا مجاهدة للنفس ، معايشة للصبر ، مغالبة للشهوات ، امتحاناً للقدرة على مواجهة الشدة ، ثم كانت تذكرة وعبرة بمعاناة حاجة المحتاج سؤال السائل وحــق اليتيم والمحروم .

وما كانت الزكاة إلا براً من الناس للناس شاهداً على تعاطفهم .

وما كان الحج إلا لمن استطاع إليه سبيلا حيث للناس فيه منافع ، تبادلا للرأى ، مشورة فى الأمر ، تبادلا وتعارفا .

وما كانت الشهادة بوحدته ، والتسليم بوحدانيته والقناعة بأن محمداً عبده ورسوله إلا مخرجاً للإنسان من تيه الشرك به ، وتبصيراً للإنسان بموقعه فى الكون كمخلوق موصول الصلة بخالق واحد قادر على كل شىء ، قادر على أن يحيى ويميت . وهو على كل شىء قدير .

وما كانت الصلاة بعد هذا كله إلا ذلك كله ، ففى الصلاة صوم عن الشهوات تطهراً منها ، وفى الصلاة حج محدود حيث تولى الوجوه إلى البيت الذى بارك الله حوله .

وفى الصلاة زكاة محسوبة من وقت وجهد وابتغاء مرضاة الله تقرباً وزلفى ، وفى الصلاة شهادة تتلى بأن لا إله إلا هو وحــده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

ثم إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فترد الناس عن أذى الناس ، فى أحوالهم وأعراضهم وأنفسهم .

كما أن الصلاة جامعة منفردة ، إنما هى تجسيد لوحدة قلوب آمنت ، ولت وجوهها وجهة واحدة ، وخشعت نفوسها لإله واحد ، وارتضت جميعها الانتهاء عما نهى الله عنه ، واختارت جميعها الاحتكام لما قضى الله به ، وتعاهدت جميعها على الالتزام بما أمر الله به ، فتحققت بالصلاة وحدتها وتجسدت فى الصلاة أخوتها فى الإسلام وبالإسلام لا فرقة ولا شتات ، وإنما بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً .

الإخــوة المسلمون :

ما أولانا فى رحاب هذا المسجد أن نستذكر نهج مؤسسه أمامنا الأكبر محمد أحمد المهدى ، والتى ما كانت دعوته تحت راية الإسلام إلا انتصاراً للإسلام ونهجه ، دعوة تعالت على كل ما يفرق ، حيث تجاوزت فى حركتها عزة المنبت ونصرة الأهل وسطوة العشيرة ، حيث كانت ساحاتها حيث المؤمنين بها والذين توحدوا بالإسلام فأعزهم الإسلام بغير شبهة تعصب لمنبت فى الأرض أو عنصر فى النسب ، وتقدمت صفوفهم تحت راية الإسلام وحده ويدفعه الإيمــان وحده ، حيث كان دعاؤهم صدى لدعوتهم أن الحمد والعزة لله . . والله أكبر .

وإذا كان لنا فى كتاب الله ما يعيننا وفى سنة رسوله ما يكفينا ، فإن من اتبع هداه ونهج منهجه والنصر لدعوته ما يلهمنا أن نواصل السير فى خطاه ، نجــاهد ونجتهد ، غايتنا نصر الإسلام ووسيلتنا الاهتــداء بآيات كتابه ونهج رسوله .

ولينصرن الله من ينصره وإذا ما كنت بجهد المقل مبتغياً وجه الله ومرضاته قد وجهت بتجديد هذا المسجد فإنه يبقى الفضل لأصحابه ، ممن اجتهدوا فى إعاده رونقه وتجــديده وعلى رأس هؤلاء عمال ومهندسون عملوا فى ظل متابعة مخلصة لمن اختاره الله إلى جواره المرحــوم معاوية أبو بكر وزير الأشغال السابق . ومن قبله السيد مصطفى عثمان وزيرها الأسبق . بالإضافة إلى جهد مقدر للسيد وزير الأشغال الحالى السيد محمد سيد أحمد .

فليبارك الله جهدهم . ويجزيهم بما قدموا صلاحاً فى الدنيا والآخرة ، وليكن هذا المسجد منارة للإسلام جامعاً للمسلمين على هدى الدين الحنيف .

« وإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

من اللقاء الشهرى

لقد ذكرت فى كل هذا أيها الإخوة ووصلت إلى قناعة واقتناع بأن الضوابط المفروضة . رغم أهميتها وحيويتها . إنما ينقصها الشمول بالنسبة لكل الحالات . إن الضوابط الداخلية والمتمثلة فى خشية الفرد من حساب ربه ، ويقظة ضميره وإحساسه بمسئوليته . إنما هى الضوابط المطلوبة لمجتمع كمجتمعنا الجديد . يتطور فى كل يوم ويتقدم فى كل ساعة . ولقد كان متاحاً لى أيها الإخوة كما هو متاح لكم جميعاً فرصة التأمل الواعى لسيرة الرسول الكريم ونهجه فى الحكم كنهجه فى تحمل أمانة المسئولية بالنسبة لرعيته ذلك النهج والمنهج الذى مكن الرسول الكريم أن يرى قواعد الإسلام كدين فتوجهت صفوفها وتجمعت إرادتها وتحولت من قبائل متصارعة إلى كيان متماسك انتصر للإسلام وأقام دولته فى وقت واحد .

ولقد كان نهج الرسول ومنهجه فى غرس القيم والتقاليد الجديدة ليس بالتبشير وحده . وليس بالتحرير فحسب . وإنما بالمثال والنموذج الذى يتمثل فى شخصه ثم فى صحابته ممن تحملوا الأمانة من بعده . لقد كان الرسول الكريم لا يدعو إلى نبذ المحاباة فحسب . بل كان هو وعبر عشرات المواقف لا يحابى أقرب الناس إليه منتصراً على الدوام للحق والعدل . . كان الرسول الكريم . عف اللسان طاهر اليد فكان نموذجاً تتطلع إليه الرعية . ما نهى عن أمر أتاه ولا أمر بأمر عجز عن القيام به ، كان صادقاً وأميناً فى خلقه ومسلكه وتعامله مع الرعية . فكانوا بدورهم الصادقين الأمناء على دعوته . جاهدوا دفاعاً عنها فى حياته . وبعد مماته كان عادلا . فما ارتضى الظلم لغيره ولا ارتضى الظلم من غيره . كان لا يكره الناس حتى على الحق . فكانت رعيته على دربه . لا تحـاول بالقهر ما عجزت عن تحقيقه بالإقناع والمنطق . كان ذلك هو نهج الرسول الكريم وهو نهج تمثل فيه كمثال ونموذج فانتقل إلى رعيته وهكذا سقطت الجاهلية مسلكاً وخلقاً من وجدان الناس ليحل محلها التآلف والسماحة والتعاون .

ذلك هو النهج الذى ركزت عليه فى رسالتى للقيادات السياسية والتنفيذية فى بلادنا وكان هدفى وما زال أن يكونوا فى مسلكهم وتعاملهم النموذج لمن هم دونهم ، ذلك أنه من العبث بل ومن الظلم أن نتوقع أمانة من القاعدة ، إذا كانت قياداتها منحرفة ، وأن نطلب طهارة من العاملين فى أى موقع إذا كان المسئول عنهم بعيداً عن الطهارة والنقاء . إن التسيب فى أى مرفق ، بل إن الإنحراف فى أى موقع إذا ما انتشر ، علينا دائماً أن نبحث عن جـذوره ليس وسط الصغار الذين يسرقون الفتات ، وإنما فى الكبار الذين يستنزفون الموارد ، ذلك أن الكبير الذى تمتد يده إلى مال لا يملكه ، إنما هو خائن للأمانة بمفهومها المطلق ، وذلك أن الأمانة لا تتجزأ ، فمن يخون الأمانة فى المال سوف يخون الأمانة فى الأداء ، كما أنه سوف يعجز بغير جدال فى متابعة أو محاسبة مرءوسيه ، فى اللحظة التى يعجز فيها عن متابعة ومحاسبة نفسه عن انحرافاتها .

يأتى بعد ذلك النهى عن الخمر ومثيلاتها وما دونها ، ولعلكم توافقونى أيها الإخوة ، أن القيادة هى مسئولية تكليف وليست مسئولية تشريف ، بالإضافة إلى أنها موقع تتزايد فيه المهـام وتتضاعف فيه الأعباء ، ثم إنها موقع لا يتحمل غير شاغله مسئوليته عن أدائه فحسب ، وإنما مسئوليته عن أداء غيره كذلك .

والقيادة بهذا المفهوم تتطلب قدرة على مغالبة أهواء النفس وهى قدرة لا يملكها شارب الخمر ، كما وأن القيادة تتطلب طاقة تستوعب جهد التخطيط وجهد التنفيذ وجهـد المتابعة ، وهى طاقة لا يمكن أن تتوافر فى شارب الخمر ، مهما كان ادعاؤه ، ثم أن القيادة تتطلب نفاذ البصر وعمق البصيرة وحسن التقـدير وسلامة الحكم وتلك كلها صفات لا يمكن أن تتوفر لشارب الخمر كما تعلمون .

وإذا كانت تلك بعض مضاعفات الخمر وآثارها السلبية على القيادة المقتدرة ، فإن مثيلاتها وما دونها إنما تؤدى إلى ذات النتائج المدمرة لأية فعالية قيادية ، ولنا أن نتساءل أيها الأخوة هل نستطيع أن نأتمن المقامر على أموال غيره فى الوقت الذى لا يؤتمن هو نفسه على ماله وقوت أطفاله .

إن الضعيف أمام الخمر بغير مقاومة ، إن المندفع إلى الميسر بغير إرادة ، إن العاجز أمام أهواء نفسه ونزواتها بغير وازع من دين أو ضمير أو خلق ، إن هؤلاء جميعاً هم المتساقطون دوماً أمام الإغراء . . وأى إغراء ، إغراء ظلم أنفسهم ، وعلى حساب قدراتهم وطاقاتهم . إغراء ظلم غيرهم ، وعلى حساب الحـق والعدل .

ثم إغراء التهاون طلباً للسلامة .

أو إغراء التسلط تعويضاً لمشاعر النقص ، بالإضافة إلى أنهم وفى كل الحالات هم الضحايا الأوائـل لمحاولات الإغراء بالرشوة ، والاستجابة للوساطة ، والخضوع لاعتبارات المحسوبية والمحاباة .

وليس صحيحاً ولا يمكن أن يكون صحيحاً ما يقال من أن عبث الليل يقابل بجهد واجتهاد فى النهار ، فلقد لاحظت أيها الإخوة بنفسى العيون المتعبة فى الصباح الباكر ، والألسنة الملتوية من تأثير سهرات الليالى ، والشكوى من الصداع والأرق ، كما لاحظت مظاهر الحيرة والقلق فى وجوه كثيرة .

بل إننى لاحظت أيضاً أن العجز عن مغالبة أهواء النفس اندفاعاً وراء النزوات إنما هو المدخل للانهيار والسقوط ، فكم من أسرار تسربت بعد الكأس الأول أو الثانى ، وكم حماقات ارتكبت فى شوارع بلاد أجنبية بتأثير الإدمان رغم مهابة العمل وخطورة الوظيفة ، وكم كفاءات بل وجهود مخلصة وصبورة ضاعت وشوهت بفعل أقاويل تناولت السمعة والمسلك الشخصى ، بل وكم كفاءات فقدناها ، وساهم شعبنا فى توفيرها لأصحابها إلا أنهم بددوها فيما لا يفيدهم ولا يفيد وطنهم على حد سواء .

إن المحاسبة والتى تصل إلى حد البتر لا تعنى على الدوام القضاء على الظواهر السلبية وخاصة إذا ما انتشرت واستشرت ، ذلك أن فرداً يسقط فى براثن العقاب لا يروع غيره إلا لأيـام بل وربما لساعات .

ولهذا أيها الإخوة فقد وجهت رسالتى إلى قيادات العمل السياسى والتنفيذى لأضعهم أمام اختيارين بلا ثالث :

إما أن يكونوا بالتزام من الداخل قبل الالتزام من الخارج حيث يتوقع لهم أن يكونوا ، أمانة ونزاهة ، طهارة وقدوة ، وإما أن يتنحوا ليفسحوا المجال لغيرهم ، حتى ولو كانوا أقل قدرة وكفـاءة ، ذلك أن الكفاءة والخبرة تكتسب بالممارسة ، بينما الطهارة والنقـاء هما التزام بالاختيار والاضطرار .

ولقد كان موضع اعتزازى وفخرى أيها الإخوة أننى فى كل ما تلقيت من ردود على رسالتى تلك ما كان وعداً وعهداً على تجنب النواقص بمختلف أشكالها ، ويحق لنا أيها الإخوان أن نعتز ونزهو بقيادات العمل السياسى فى الاتحاد الاشتراكى وأعضاء اللجنة المركزية ، وأعضاء مجلس الشعب والوزراء ومساعديهم وكبار ضباط القوات المسلحة والبوليس والسجون ووكلاء الوزارات ومديرى المصالح والمؤسسات وقيادات الوحدات الفرعية .

لنا أيها الإخوة أن نعتز ونزهو بأن هؤلاء جميعاً هم بالصدق والحق بحكم وعدهم وعهدهم . إنما هى تجسيد لمبدأ أن الرجل ملك عام وأن مسلكه الشخصى لم يعد محسوباً له وإنما هو محسوب عليه ، وأنه بالإلتزام المطلق والاختيار الحر قد اختار النقاء والطهارة فى ممارسته لواجباته وتحمله لأعبائه .

ومع الفخر والاعتزاز والزهو بهؤلاء جميعاً أيها الإخوة فإن من حقنا جميعاً أن نتوقع من منطلق الإيمان بأن الأمانة جزء لا يتجزأ . . إن سلبيات كثيرة سوف تختفى من حياتنا ، سوف تختفى المحسوبية والمحاباة ، سوف يتراجع الإهمال ويتلاشى التسيب ، سوف تنتهى ظاهرة الرشوة والعبث بالمال العام ، والتجارة بالتراخيص ، والمساومة فى حقوق الشعب المشروعة سوف تختفى المحادثات التليفونية الناعمة والقراءات المتمهلة للصحف داخل المكاتب بينما مصالح الجماهير معطلة داخل الأدراج . . سوف تكون لمواعيد العمل قداسة لا تنتهك ، كما سوف تكون لمعدات العمل حصانة وصيانة من جانب العاملين ، سوف ينجز العمل المطلوب بغير مماطلة لدواعى الكسل والإهمال . سوف تختفى العطالة المقنعة ، وسوف ترتفع رايات الإنتاج فى كل مواقع الإنتاج .

لنا أيها الإخوة أن نتوقع ذلك بعد العهد والوعد ، ذلك أننى لم أطلب عهداً على أمانة مع النفس محدودة . وإنما طلبتها شاملة وكاملة ، وتلقيتها أيضاً شاملة كاملة . والالتزام بالوفاء بأعباء الأمانة بالنسبة للقيادى هى كل ما ذكرت .

أمانة العدل بغير تسلط . أمانة التسامح بغير تفريط . أمانة الأداء الكفء بغير تهاون . وأمانة المتابعة المقتدرة بغير تمهل ، وأمانة الحرص على مصالح الناس وأحوالهم وأقدارهم ومصائرهم فى تجرد .

وإذا كان هناك من يشكك فى إمكانية استمرار الالتزام فإننى أذكره فيما قلته فى ختام رسالتى للقيادات السياسية والتنفيذية بأننى سأكون عيناً ترصد الصادقين الوعد والناكثين العهد لأكون للأولين نصيراً ولأكون مع الآخرين حيث أرادوا لأنفسهم أحاسب ولا أعاتب ، أبتر ولا أغفر لأنفسهم حيث أرادوا لأنفسهم بعيداً عن الأمانة وتحمل مسئولياتها ، وحول إمكانية سن القانون . بدلا من مجرد التوجيه . فإننى أقول . إننى لا أملك وحدى إصدار قانون . ذلك أننا نعيش فى وطن المؤسسات الدستورية والسياسية ، وإننى إذا كنت من موقع مسئوليتى قد وجهت . فإننى من ذات الموقع سوف أتابع وأحاسب . ثم إننى لا أعتقد أن القوانين مهما كان صدقنا تستطيع أن تستوعب بالشمول كافة النواقص على امتداد وطن كبير ، وأن الالتزام من الداخل بالنسبة للقيادى السياسى والتنفيذى لهو أنفع وأجدى ذلك أنه بما يأخذ نفسه به . سوف يكون قدوة لغيره من مرؤسيه ، ثم أنه بأمانته فى تحمل المسئولية سوف لا يفرط فى حق نفسه بالتهاون مع من هم دونه . كما أنه لن يفرط فى حق غيره بأن يحاسبه قبل أن يوجهه ، وأن يحذره قبل أن يوقع عليه العقاب .

إننى أستطيع بالحق والصدق . أن أقول إننى أديت الأمانة بالنسبة إليكم جميعاً . فوليت عليكم قيادة تستمد رشدها من طهارة تعهدت بها ، وأمانة وعدت بالتزامها وهى إن صدقت فلسوف تكون خيراً ينعكس عليكم . وإن نكثت العهد وأخلت بالوعد فإننى بكم ومعكم ومن بين صفوفكم سأحمل غيرها أمانة قيادتكم والمضى بركبكم على طريق تحقيق أهدافنا العظيمة .

برنامج للولاية الثانية :

إننا أيها الإخوة ندرك أنه من العسير بل من المتعذر أن أسير فيكم بسيرة أهل العدل والإحسان والمجافين للظلم والعدوان ولكن يتعين على إذا كنت حريصاً أن أبتغى رضوان ربى وثوابه ، ومشفقاً من سخطه وعقابه أن أكون فى سيرتى وفى جميع أفعالى وأقوالى مقتدياً ومتأسياً بأئمة الحق والهدى والعدل والإنصاف ما وجدت إلى ذلك سبيلا ، باذلا ما يمكننى وما أستطيعه من غير ميل إلى اتباع الهوى وإيثار الدنيا على العقبى . وأقل ذلك أن أكون فى سيرتى فى جميع أمورى إلى ولاة العدل والإحسان أقرب وأشبه عنه بولاة الجور ، وخائفاً ومشفقاً على نفسى من تخليطى وتفريطى ، غير مغتر بربى ولا معجباً بنفسى ، ولا ظاناً ولا متوهماً أن لى قدماً مع ولاة العدل والحق والإنصاف فلعلى بذلك أخلص وأنجو ، وأن كان النجاة والخلاص من أبعد شىء وأعزه فى حق الولاة وقادة هذه الأزمان والأعصار .

عندما أشعر بأننى قد أعجبتنى نفسى ، واغتررت بربى وقبحت سيرتى وساءت تصرفاتى وذلك من شؤم تلبيس الشيطان وسوء خداعه وسعيه الخفى فى هلاكى وإن شاهدت تقصيرى وعدم القيام بما يجب على من حق ربى وحق من استرعيتهم من عباده وتوليت أمرهم من خلقه ، فإننى أعاهدكم أن أترك الولاية راضياً مختاراً وأرجع إلى الله سبحانه وتعالى مستغفراً لذنوبى ، معترفاً بالاقتراف والتقصير وعازماً على التوبة إلى الله تعالى .

• أعاهدكم إذا وليت عليكم أن أتبصر فى الدين وأتعلم مالابد لى من علمه من علوم الإيمان والإسلام لأزداد معرفة بما فرض الله على من طاعته وبما حرم على من معصيته ، وبما أوجب على سبحانه وتعالى من حق ربوبيته فى نفسه ، وفى حق من توليت أمرهم من عباده .

إننى أدرك أن العالم يعرف ذلك ويهدى إليه ، والجاهل مصدر كل شر وإضاعة .

أعرف أن الجهل قبيح بكل واحد ولكنه برؤساء الناس وأرباب المراتب منهم أشر وأقبح لأنهم لأنفسهم ولغيرهم .

• سأكون أحرص الناس على إقامة فرائض الله واجتناب محارمه وتعظيم شعائر دينه وحرماته وسآمر الناس بذلك وأحثهم عليه ، فإننى مقتنع بأن الله لم يولنى أمر عباده إلا لأقيم فيهم دينه ، وما أمر من طاعته وحرمه من معصيته ، أما أمور الدنيا ومعاشها ورزقها ، فهو تابع لذلك ولاحق به والأصل هو السعى فى إقامة فرائض الدين وأمر الله فى عباده .

• سأحرص على إزالة المنكرات ومحو آثارها وسوف لا أمكن أحداً من التظاهر بها ، ومن أظهر ذلك شيئاً سأزجره أبلغ الزجر وأعاقبه أشد العقوبة حسب ما يقتضيه الشرع أو الدستور أو القانون : إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

• سيكون بابى مفتوحاً للمواطنين وسأعمل على تسهيل وتيسير الوصول إلى لمن أراد ورغب من المتظلمين وذوى الحاجات ، وسأتولى بنفسى قضاء حوائجهم إن كانت عادلة وإذا لم يتيسر ذلك لشغل أهم منه وأصلح للمواطنين فسوف أفوض من أثق فى دينه وكفايته من الوزراء وأعيان الدولة .

وثقوا أنى سوف لا أوسط بينى وبينكم ولا استعمل عليكم إلا أهل الخير والعدل والأمانة والصيانة ، فإننى أعلم أن الوالى يحكم عليه بوسائطه الذين يكونون بينه وبين الناس ، فإن كانوا أخياراً وأمناء بلغوا بالأمور على ما هى عليه من غير تغيير ولا زيادة ولا نقصان ، وإن كانوا مفسدين خونة بلغوا بالأمور على حسب أهوائهم ووفق أغراضهم الفاسدة فتلتبس الأمور وتضطرب الأحوال وينسب ما يصدر منهم للحاكم مما يستحسن أو يستقبح ، لذلك سأكون فى غاية الحرص وسأتحفظ غاية التحفظ من أعوان السوء ومساعدى السوء .

لنا أيها الإخوة أن نعتز ونزهو بأن هؤلاء جميعاً هم بالصدق والحق بحكم وعدهم وعهدهم، إنما هى تجسيد لمبدأ أن الرجل ملك عام وأن مسلكه الشخصى لم يعد محسوباً له وإنما هو محسوب عليه، وأنه بالإلتزام المطلق والاختيار الحر قد اختار النقاء والطهارة فى ممارسته لواجباته وتحمله لأعبائه.

ومع الفخر والاعتزاز والزهو بهؤلاء جميعاً أيها الإخوة فإن من حقنا جميعاً أن نتوقع من منطلق الإيمان بأن الأمانة جزء لا يتجزأ.. إن سلبيات كثيرة سوف تختفى من حياتنا، سوف تختفى المحسوبية والمحاباة، سوف يتراجع الإهمال ويتلاشى التسيب، سوف تنتهى ظاهرة الرشوة والعبث بالمال العام، والتجارة بالتراخيص، والمساومة فى حقوق الشعب المشروعة سوف تختفى المحادثات التليفونية الناعمة والقراءات المتمهلة للصحف داخل المكاتب بينما مصالح الجماهير معطلة داخل الأدراج.. سوف تكون لمواعيد العمل قداسة لا تنتهك، كما سوف تكون لمعدات العمل حصانة وصيانة من جانب العاملين، سوف ينجز العمل المطلوب بغير مماطلة لدواعى الكسل والإهمال، سوف تختفى العطالة المقنعة، وسوف ترتفع رايات الإنتاج فى كل مواقع الإنتاج.

لنا أيها الإخوة أن نتوقع ذلك بعد العهد والوعد، ذلك أننى لم أطلب عهداً على أمانة مع النفس محدودة. وإنما طلبتها شاملة وكاملة، وتلقيتها أيضاً شاملة كاملة. والالتزام بالوفاء بأعباء الأمانة بالنسبة للقيادى هى كل ما ذكرت.

أمانة العدل بغير تسلط، أمانة التسامح بغير تفريط، أمانة الأداء الكفء بغير تهاون، وأمانة المتابعة المقتدرة بغير تمهل، وأمانة الحرص على مصالح الناس وأحوالهم وأقدارهم ومصائرهم فى تجرد.

وإذا كان هناك من يشكك فى إمكانية استمرار الالتزام فإننى أذكره فيما قلته فى ختام رسالتى للقيادات السياسية والتنفيذية بأننى سأكون عيناً ترصد الصادقين الوعد والناكثين العهد لأكون للأولين نصيراً ولأكون مع الآخرين حيث أرادوا لأنفسهم أحاسب ولا أعاتب، أبتر ولا أغفر لأنفسهم حيث أرادوا لأنفسهم بعيداً عن الأمانة وتحمل مسئولياتها، وحول إمكانية سن القانون، بدلا من مجرد التوجيه، فإننى أقول، إننى لا أملك وحدى إصدار قانون. ذلك أننا نعيش فى وطن المؤسسات الدستورية والسياسية، وإننى إذا كنت من موقع مسئوليتى قد وجهت، فإننى من ذات الموقع سوف أتابع وأحاسب. ثم إننى لا أعتقد أن القوانين مهما كان صدقنا تستطيع أن تستوعب بالشمول كافة النواقص على امتداد وطن كبير، وأن الالتزام من الداخل بالنسبة للقيادى السياسى والتنفيذى لهو أنفع وأجدى ذلك أنه بما يأخذ نفسه به، سوف يكون قدوة لغيره من مرؤسيه، ثم أنه بأمانته فى تحمل المسئولية سوف لا يفرط فى حق نفسه بالتهاون مع من هم دونه. كما أنه لن يفرط فى حق غيره بأن يحاسبه قبل أن يوجهه، وأن يحذره قبل أن يوقع عليه العقاب.

إننى أستطيع بالحق والصدق، أن أقول إننى أديت الأمانة بالنسبة إليكم جميعاً. فوليت عليكم قيادة تستمد رشدها من طهارة تعهدت بها، وأمانة وعدت بالتزامها وهى إن صدقت فلسوف تكون خيراً ينعكس عليكم. وإن نكثت العهد وأخلت بالوعد فإننى بكم ومعكم ومن بين صفوفكم سأحمل غيرها أمانة قيادتكم والمضى بركبكم على طريق تحقيق أهدافنا العظيمة.

برنامج للولاية الثانية:

إننا أيها الإخوة ندرك أنه من العسير بل من المتعذر أن أسير فيكم بسيرة أهل العدل والإحسان والمجافين للظلم والعدوان ولكن يتعين على إذا كنت حريصاً أن أبتغى رضوان ربى وثوابه، ومشفقاً من سخطه وعقابه أن أكون فى سيرتى وفى جميع أفعالى وأقوالى مقتدياً ومتأسياً بأئمة الحق والهدى والعدل والإنصاف ما وجدت إلى ذلك سبيلا، باذلا ما يمكننى وما أستطيعه من غير ميل إلى اتباع الهوى وإيثار الدنيا على العقبى. وأقل ذلك أن أكون فى سيرتى فى جميع أمورى إلى ولاة العدل والإحسان أقرب وأشبه عنه بولاة الجور، وخائفاً ومشفقاً على نفسى من تخليطى وتفريطى، غير مغتر بربى ولا معجباً بنفسى، ولا ظاناً ولا متوهماً أن لى قدماً مع ولاة العدل والحق والإنصاف فلعلى بذلك أخلص وأنجو، وأن كان النجاة والخلاص من أبعد شىء وأعزه فى حق الولاة وقادة هذه الأزمان والأعصار.

عندما أشعر بأننى قد أعجبتنى نفسى، واغتررت بربى وقبحت سيرتى وساءت تصرفاتى وذلك من شؤم تلبيس الشيطان وسوء خداعه وسعيه الحق فى هلاكى وإن شاهدت تقصيرى وعدم القيام بما يجب على من حق ربى وحق من استرعيتهم من عباده وتوليت أمرهم من خلقه، فإننى أعاهدكم أن أترك الولاية راضياً مختاراً وأرجع إلى الله سبحانه وتعالى مستغفراً لذنوبى، معترفاً بالاقتراف والتقصير وعازماً على التوبة إلى الله تعالى.

• أعاهدكم إذا وليت عليكم أن أتبصر فى الدين وأتعلم مالابد لى من علمه من علوم الإيمان والإسلام لأزداد معرفة بما فرض الله على من طاعته وبما حرم على من معصيته، وبما أوجب على سبحانه وتعالى من حق ربوبيته فى نفسه، وفى حق من توليت أمرهم من عباده.

إننى أدرك أن العالم يعرف ذلك ويهدى إليه، والجاهل مصدر كل شر وإضاعة.

أعرف أن الجهل قبيح بكل واحد ولكنه برؤساء الناس وأرباب المراتب منهم أشر وأقبح لأنهم لأنفسهم ولغيرهم.

• سأكون أحرص الناس على إقامة فرائض الله واجتناب محارمه وتعظيم شعائر دينه وحرماته وسآمر الناس بذلك وأحثهم عليه، فإننى مقتنع بأن الله لم يولنى أمر عباده إلا لأقيم فيهم دينه، وما أمر من طاعته وحرمه من معصيته، أما أمور الدنيا ومعاشها ورزقها، فهو تابع لذلك ولاحق به والأصل هو السعى فى إقامة فرائض الدين وأمر الله فى عباده.

• سأحرص على إزالة المنكرات ومحو آثارها وسوف لا أمكن أحداً من التظاهر بها، ومن أظهر ذلك شيئاً سأزجره أبلغ الزجر وأعاقبه أشد العقوبة حسب ما يقتضيه الشرع أو الدستور أو القانون: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

• سيكون بابى مفتوحاً للمواطنين وسأعمل على تسهيل وتيسير الوصول إلى لمن أراد ورغب من المتظلمين وذوى الحاجات، وسأتولى بنفسى قضاء حوائجهم إن كانت عادلة وإذا لم يتيسر ذلك لشغل أهم منه وأصلح المواطنين فسوف أفوض من أثق فى دينه وكفايته من الوزراء وأعيان الدولة.

وثقوا أنى سوف لا أوسط بينى وبينكم. ولا استعمل عليكم إلا أهل الخير والعدل والأمانة والصيانة، فإننى أعلم أن الوالى يحكم عليه بوسائطه الذين يكونون بينه وبين الناس، فإن كانوا أخياراً وأمناء بلغوا بالأمور على ما هى عليه من غير تغيير ولا زيادة ولا نقصان، وإن كانوا مفسدين خونة بلغوا بالأمور على حسب أهوائهم ووفق أغراضهم الفاسدة فتلتبس الأمور وتضطرب الأحوال وينسب ما يصدر منهم للحاكم مما يستحسن أو يستقبح، لذلك سأكون فى غاية الحرص وسأتحفظ غاية التحفظ من أعوان السوء ومساعدى السوء.

• اعلموا أن من يظهر فى من الأعوان والمساعدين حسن النصيحة والأمانة والكفاية زدته تقرباً وإكراماً وإعلاء فى منزلته . . ومن يظهر الغش والخيانة والإضاعة حذرته من ذلك وهددته . فإن انزجر كان بها وإلا حططت من منزلته وعزلته وأبعدته ، فإن أهل الغش والخيانة والإضاعة لا خير فيهم بل هم السبب فى تخريب الدول وإهلاك الرعايـا واجتراء الأعداء . . فى الحديث . . « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزيراً صالحاً ، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه وإذا أراد به سوءاً جعل له وزيراً غير صالح إن نسى لم يذكره وإن ذكر لم يعينه » .

• سأحذركم الظلم لأنه أساس الخراب وأصل الفساد وسبب الدمار والبوار . . ولأنه إذا عرف بى وانتشر عنى كرهتمونى ونفرتم منى وأحببتم زوالى وهلاكى وانطلقت ألسنتكم بذمى والدعاء على .

قال صلى الله عليه وسلم :

« خير أمرائكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشر أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

« يد الله مع الأمير ما لم يجر ، فإذا جار رفع الله عنه يده » .

وقال تعالى :

« وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » .

• سأبذل قصارى جهدى لأجعل كل شخص يعدل فى رعيته الخاصة بين أهله وأولاده والعاملين تحته ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . . على الراعى أن يعلم رعيته ما يلزمهم من طاعة الله واجتناب محارمه ويحملهم على القيام بذلك فعلا وتركاً . . وعليه ألا يظلمهم فى حقوقهم التى جعلها الله عليه ولهم وألا يمكن بعضهم ويأخذ للمظلوم منهم من ظلمه . . وإن كان يملك حيوانات مثل البهائم والبقر والإبل سأوجهه كيف يؤدى واجبه نحوها وكيف يتعهدها ويحسن النظر إليها فى علفها وسقيها ووقايتها ونحو ذلك : عليه أن يتولى ذلك بنفسه أو يوليه من يثق به من أولاده أو عماله . . وفى الحديث « اتقوا الله فى هذه البهائم فاركبوها صالحة » وورد فى الخبر « أن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها حتى ماتت لاهى أطعمتها وسقتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض » .

• أن التنمية مدخل الرخاء ، إلا أن الرخاء قد يؤدى إلى المزيد منه وقد يؤدى إلى إجهاض آثاره إذا ما تسرب عائده إلى مالايفيد الفرد وأسرته ومجتمعه ، ومن هنا فإن تحديد مسالك الاستهلاك لا يمكن أن تحددها قيود بغير الالتزام بالقيم والاعتصام بالدين والامتثال بأوامره والابتعاد عن نواهيه ، وهذا دور مناط بالدولة ومؤسساتها الدستورية والسياسية والتنفيذية بالإضافة إلى أنه واجب الأسرة كذلك .

• إن السودان هو الأصالة والكرم ، هو التكامل والتعاون هو التماسك بين أفراده فى مواجهة المحن ، هو المشاركة فى السراء والضراء هو الاعتداد بالنفس بغير صلف ، هو الكبرياء المرادف للعزة ، هو الأسرة الممتدة التى تتسع واجبات أفرادها عوناً ومساندة ، لتشمل الأقربين ، وهم هنا ليسوا ذوى القربى وحدهم وإنما الجار منهم والصديق فيهم والمحتاج منهم واليتيم بينهم ، وهى قيم ينبغى العمل على الحفاظ عليها بحيث لا تذوب تحت شعارات التحديث والتقدم ، وهذا واجب مناط بمفاهيم التعليم وأجهزة الإعلام والمؤسسات السياسية بالإضافة إلى مسلك القيادات كضرورة ونموذج .

• إن الديمقراطية فى مرحلة ما بعد الاستفتاء إنما ينبغى أن تكون بتفويض أكثر للسلطات والصلاحيات لمجالس الحكم الشعبى المحلى ، على مستوى الأقسام والأحياء والفرقان ، إلى جانب ضرورة العمل على المزيد من لا مركزية التخطيط والمتابعة مع التأكيد على مركزية الحكم بمعنى أن تختص المديريات بمسئولياتها فى التنفيذ بما فى ذلك التمويل لمواقع الإنتاج والخدمات فيها فى إطار الخطة القومية والخطة المحلية لتطوير البيئة .

• اللهم اجعلنى من الذين قال فيهم سيدنا على كرم الله وجهه « أولئك هم الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، بهم يدفع الله عن حجة يؤدونها إلى نظائرهم ويزرعونها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش به الجاهلون ، هيجوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمنظر الأعلى ، أولئك خلفاء الله تعالى فى بلاده ودعاته إلى دينه ، هاه هاه شوقاً لرؤيتهم » .

الفهـــــرس

صفحة

الناشر: المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار بالاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢